
مطبوعات
مكتبة مصر
يوسف ادريس
جمهورية فرحات

مطبوعات مكتبة مصر

جمهورية فرحات

قصة

تأليف
يوسف إدريس

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

مقــدمة

بقلم : الدكتور طه حسين

هذا الكتاب ممتع أقدمه للقراء سعيدا بتقديمه أعظم السعادة وأقواها ، لأن كاتبه من هؤلاء الشباب الذين تعقد بهم الآمال وتناط بهم الأمانى ليضيفوا إلى رقى مصر رقيا ، وإلى ازدهار الحياة العقلية فيها ازدهارا .

وكان كل شيء فى حياة هذا الشاب الأديب جديرا أن يشغله عن هذا الجهد الأدبى وأمثاله بأشياء أخرى ، ليست أقل من الأدب نفعا للناس وإمتاعا للقلب والعقل .

فهو قد تهيأ فى أول شبابه لدراسة الطب ، ثم جد فى درسه وتحصيله حتى تخرج وأصبح طبيبا . ولكن للأدب استئثارا ببعض النفوس وسلطانا على بعض القلوب لا يستطيع مقاومته والامتناع عليه إلا الأقلون .

وقد كلف هذا الشاب بالقراءة ، ثم أحس الرغبة فى الكتابة . فجرب نفسه فيها ألوانا من التجربة ، ثم لم يملك أن يمضى فى تجاربه تلك ، وإذا هو أمام كتاب يريد أن يخرج للناس فيخرجه على استحياء . ويقرأ الناس كتابه الأول « أرخص ليالى » فيرضون عنه ويستمتعون به ، ويقرأه الناقدون للآثار الأدبية فيعجبون له ويعجبون به ويشجعون صاحبه على المضى فى الإنتاج ، فيمضى فيه ويظهر هذا الكتاب .

وأقرأه فأجد فيه من المتعة والقوة ودقة الحس ورقة الذوق وصدق

الملاحظة وبراعة الأداء مثل ما وجدت فى كتابه الأول ، على تعمق الحياة وفقه لدقائقها وتسجيل صادق صارم لما يحدث فيها من جلائل الأحداث وعظائمها لا يظهر فى ذلك تردد ولا تكلف ، وإنما هو إرسال الطبع على سجيته كأن الكاتب قد خلق ليكون قاصا ، أو كأنه قد جرب القصص حتى استقصى خصائصه ونفذ إلى أسراره وعرف كيف يحاوله فيبرع فيه . وكنا نعجب فيما مضى بطائفة من الكتاب المجودين فى الغرب لم يتهيأوا للأدب عن عمد و لم يجعلوه لحياتهم غاية ، وإنما أنفقوا جهدهم كله فى درس الطب والتخصص فيه وفرض الأدب نفسه عليهم فرضا فبرزوا فيه أى تبريز . ثم رأينا هذه الظاهرة نفسها تمس بعض أطبائنا فينشأ منهم شاعر بارع كالدكتور إبراهيم ناجى رحمه الله ، وينشأ منهم الكاتب المتفوق الذى يتاح له من صفاء الذوق ونفاذ البصيرة وسعة العلم والفقه بأسرار الحياة ، فيخرج فى اللغة العربية كتبا أقل ما توصف به أنها تجمع بين الروعة والمتعة وتغنى حاجتنا إلى القراءة التى تلذ القلب والذوق والعقل جميعا كالدكتور محمد كامل حسين .

وكاتبنا هذا يمضى فى هذه الطريق ثابت الخطو ، وما أشك فى أنه سيبلغ من الأصالة والرصانة والتفوق ما بلغ الذين سبقوه .

وهذه ظاهرة جديدة فى أدبنا العربى الحديث إن دلت على شىء فإنما تدل على أن سلطان الأدب العربى ما زال قويا ، وقدرته على الاستئثار بالقلوب والنفوس ما زالت نافذة ، وعلى أن جذوة الأدب يذكيها ويقويها أن تجاور العلم فى بعض القلوب والعقول فتستمد منه قوة وأيدا ومضاء قلما يظفر بها الذين يفرغون لتنميق الكلام ويصرفون عن حقائق العلم صرفا . وأى فنون العلم أجدر أن يفقه الناس بالحياة ومشكلاتها وما تكلف الأحياء من ألوان العناء من الطب . فالطبيب يخالط الإنسان مخالطة لا تتاح لغيره من أصحاب العلم ،

يخالطه صحيحا ويخالطه عليلا ويبلو ألم جسمه وآلام نفسه أصدق البلاء وأعمقه ، ويفتح له ذلك أبوابا من التفكير تنتهى به أحيانا إلى الفلسفة العليا ، وتنتهى به أحيانا أخرى إلى الأدب الرفيع الذى يحسن فيه الانسجام بين الحس الدقيق والشعور الرقيق والذوق المرهف والعقل المفكر ، وتتيح له ذلك كله قدرة على التصوير الفنى لحياة الناس وما يزدحم فيها من الألم والأمل ، ومن السخط والرضى ، ومن الحزن والسرور ، قلما يتاح لغيره من الناس .

وربما منحه قدرة أخرى على فهم الملكات الإنسانية ، ورد أعماله وما يختلف عليه من الأحداث وما يكون لهذه الأحداث من تأثير فيه إلى أصولها ومصادرها التى أنشأتها وصورتها تصويرا لا يحسن فهمه إلا من يعرف دقائق النفس والجسم جميعا ، وما يكون بينهما من توافق أحيانا ومن تخالف أحيانا أخرى . وإذا أتيح الفن الأدبى للطبيب امتاز أدبه بالدقة والصدق وتجنب الألفاظ العامة المبهمة ، والعبارات التى تبهر الأسماع ولكنها لا تصل إلى القلوب ولا تحصل فى العقول شيئا .

وقد أتيح لكاتبنا من هذا كله الشيء الكثير فهو لا يحب التزيد فى القول ولا يألف تبهرج الكلام ، ولن تجد عنده كلمة قلقة عن موضعها أو عبارة إلا وهى تؤدى بالضبط ما أرادها على تأديته من المعانى .

هو طبيب حين يكتب يضع يده على معناه كما يضع يده على ما يشخص من العلل حين يفحص مرضاه ، وينقل إلينا خواطره كما يصور أوصاف العلل وكما يصف لها ما ينبغى من الدواء .

وله بعد ذلك خصلة تميزه من غيره من كتاب الشباب ، فالميل إلى تصوير الحياة الاجتماعية ظاهر عند أدبائنا من الشباب تختلف حظوظهم منه ويختلف توفيقهم فيه . ولكن كاتبنا لا يميل إلى تصوير الحياة الاجتماعية وما فيها من

الآمال والآلام فحسب ، ولكنه يحسن تصوير الجماعات ويعرض عليك صورها كأنك تراها .

فلم أر تصويرا لشارع أو ميدان تختلط فيها جماعات الناس على تباين أشكالهم وأعمالهم وألوان نشاطهم كما أرى عند هذا الكاتب الشاب .

ثم لا يمنعه ذلك من أن يفرغ للفرد فيحسن فهمه وتصويره فى دقة نادرة ، كل هذه الخصال تبشر بأن كاتبنا جدير أن يبلغ من فنه ما يريد ، ولكنى أتمنى عليه شيئين .. أحدهما ألا ينقاد للأدب ولا يمكنه من أن يشغله عن الطب أو يستأثر بحياته كلها . فالأدب يجود ويرقى ويمتاز بمقدار ما يجد عند الأديب من مقاومة له وامتناع على مغرياته وانصراف عنه بين حين وحين ..

وما أشك فى أن عنايته بالطب حين تتصل وتقوى ستمنح أدبه غزارة إلى غزارته وثروة إلى ثروته ، وستزيد جذوته ذكاء وقوة ومضاء .

والثانى أن يرفق باللغة العربية الفصحى ويبسط سلطانها شيئا ما على أشخاصه حين يقص كما يبسط سلطانها على نفسه ، فهو مفصح إذا تحدث ، فإذا أنطق أشخاصه أنطقهم بالعامية كما يتحدث بعضهم إلى بعض فى واقع الأمر حين يلتقون ويديرون بينهم ألوان الحوار .

وما أكثر ما يخطىء الشباب من أدبائنا حين يظنون أن تصوير الواقع من الحياة يفرض عليهم أن ينطقوا الناس فى الكتب بما تجرى به ألسنتهم فى أحاديث الشوارع والأندية . فأخص ما يمتاز به الفن الرفيع هو أنه يرقى بالواقع من الحياة درجات دون أن يقصر فى أدائه وتصويره ..

والأديب الحق ليس مسجلا لكلام الناس على علاته كما يسجله الفونغراف ، كما أن المصور الحق ليس مسجلا لواقع الأشياء على علاتها كما يصورها الفوتغراف ، وإنما الفرق بين الأديب والمصور وبين هاتين الأداتين

من أدوات التسجيل أنهما يصوران الحقائق ويضيفان إليها شيئا من ذات نفسيهما هو الذى يبلغ بها أعماق الضمائر والقلوب ، ويتيح لها أن تبلغ الأديب والمصور من نفوس الناس مايريدان ، وإلا فما يمنع الكاتب من أن يصطنع أداة من هذه الأدوات التى تسجل ألفاظ الناس ثم يضيف إلى أصواتهم صوته بلغتهم التى يتكلم بها هو حين يتحدث إليهم ، ثم يعرض عليهم ذلك كما يعرض تسجيل الأصوات لا يتهيأ له ولا يتألق فيه .

ليصدقنى الشباب من أدبائنا أن من الحق عليهم لمواهبهم وأدبهم أن يتمعنوا فهم المذاهب الأدبية أكثر مما يفعلون .. وألا يخدعوا أنفسهم بظواهر الأشياء فيفسدوا مواهبهم ويفسدوا أدبهم أيضا .

أما بعد فإنى أهنىء كاتبنا الأديب بجهده هذا الخصب ، وأتمنى أن أقرأ له بعد قليل كتبا أخرى ممتعة إمتاع هذين الكتابين وتمتاز عنهما مع ذلك بصفاء اللغة وإشراقها وجمالها الذى لم تبلغه العامية ، وما أرى أنها ستبلغه فى وقت قريب أو بعيد .

« طه حسين »

جمهورية فرحات

ما كدت أدلف إلى القسم ومعى الحرس حتى أحسست بانقباض مفاجئ ، لم تكن تلك أول مرة أدخله ولكنها كانت المرة الأولى التى أرى القسم فيها فى الليل ، ولهذا شعرت حين تخطيت الباب أنى أدلف إلى خندق سفلى لا يمت إلى الحاضر ولا حتى إلى الماضى القريب .. جدران يكسوها حتى منتصفها سواد على هيئة طلاء وكآبة تكسو نصفها الثانى .. وبقع بيضاء مبعثرة هنا وهناك لا تخفف السواد بقدر ما تظهر بشاعته ، وأرض لزجه لا تدرى إن كانت من الأسفلت أم من الطين ، ورائحة .. رائحة لا تستطيع أن تحدد كنهها وإنما لابد أن تحس معها بغثيان ، وضوء باهت يأتى من مصابيح بالغة القدم عشش عليها الذباب وباض .. مصابيح معظم ضوئها محكوم عليه بالسجن المؤبد داخلها ، والقليل الذى يتسلل منها هاربا لا يبدد الظلام بقدر ما يحتمى به ويتستر ، وإن وقع على الأشياء والناس فإنما ليظهر كل ما بها من حزن وقبح وبشاعة..

وأحسست حين احتوانى هذا كله وأصبحت جزءا لا يتجزأ منه ، والناس من حولى على سيماهم جد خطير يمشون كالمنومين ، وصناديق الفاكهة وعربات اليد وكراسى المقاهى التى صادرها بوليس البلدية وهى مكومة فى ركن ، وأصحابها متناثرون حول الجدران والأركان متهالكين على الأرض ورءوسهم مائلة على حجورهم ، والعساكر يبدون فى أرديتهم السوداء كعفاريت منتصف الليل ..

أحسست حين احتوانى هذا كله أننى لابد أنا الآخر قد ارتكبت جريمة ونسيت ، وتمنيت أن أهرب من المكان بأسرع ما أستطيع . ولم أكن أستطيع مغادرة المكان فقد كان علىّ أن أحجز فى القسم ليلة لأرسل إلى النيابة فى صباح الغد .. واحتاروا أين يضعوننى فالحجز كان ممتلئا ، والحجرة الأخرى التى يوضع السياسيون فيها عادة تعج بالمراقبات وصاحبات الحرفة ، ولم يجدوا لى فى النهاية خيرا من حجرة الضابط النوبتجى .. وهناك تركت ومعى حارس ..

كانت الحجرة على سعتها تضيق بمن فيها ، وكان أبرز الموجودين جميعا الضابط النوبتجى . وحين رأيته جالسا إلى مكتبه كالحكمدار وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة فى فضاء الحجرة ، وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة فى الجدار والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدروع والبلط والخوذات ، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة .. حين رأيته هكذا تخيلت إلا حدود لرهبته وقوته ، وأنه يستطيع ببساطة أن يقضم ذراعى أو يضع أصبعه فى عينى ، مع أنى كنت متأكدا ألا شأن لى به ولا شأن له بى ..

ووجدتنى أترك كل ما فى نفسى وكل ما يشغلنى وأنضم إلى جيش العيون المنصبة عليه من الناس المزدحمين أمامه ، والذين لا يفصله عنهم إلا سور خشبى منخفض ..

وبدا لى أول الأمر وكأنه ليس بكائن حى .. وإنما جسده قد صنع من طلاء الجدران الأسود ، ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه ، وعيناه فتحات بنادق ، ولسانه لابد كرباج ..

ولكنى حين هدأت قليلا واعتدت على المكان ، وتأملت كيف وضع « الكاب » فوق رأسه فى وقار مخيف ، وزرر معطفه الضباطى — على غير

العادة — إلى آخر زرار فيه ، وشد جلد وجهه فى تزمت صارم فاختفى كل ما فيه من تجاعيد وأصبح أملس كجلد الطبلة المشدود ، وأضفى على نظرات عينيه بريقا تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقدر ما ينقر ويلسع ، وحمل صوته ما لا يطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات الرصاص ..

حين تأملت كل هذا بدا لى حينئذ كأحد الجنرالات الطليان الأسرى الذين كنا نراهم أثناء الحرب .. وحدث أن جاء شاويش أو بيتشاويش لا أذكر ووقف أمامه ونادى عليه :

— يا فرحات ..

عجبت كيف ينادى بلا تكليف هكذا ، ولكن عجبى زال حين قال مرة أخرى :

— يا فرحات .. يا سى فرحات ..

و لم يرد الضابط النوبتجى إلا بعد أن قال له الرجل .. يا حضرة الصول ..

وكنت قد اقتربت حتى استندت مع غيرى من المستندين على السور الخشبى وسمعت لهجته التى فيها آثار باهتة من ريف الصعيد . ونم صوته العالى عن الفضاء الواسع الذى ترعرع فيه ، وعن مستلزمات الوظيفة من شخط ونطر وقد عملت عملها طوال تلك السنين فأتلفت صوته وأضافت إليه حشرجة كالتى تلحق براديو القهوة البلدى من كثرة رفع صوته . وذهب الجنرال من خاطرى تماما ووضحت أمام عينى ملامحه التى كان يلفها ضباب الرهبة والسلطة ، ورأيتها صعيدية خالصة بأنفه الكبير كأنف رمسيس . وجبهته الحادة العالية كجبهة منقرع ، وشيخوخته التى تنم عن تاريخ حافل فى خدمة البوليس إذ أنه لابد قضى أجيالا حتى يصل إلى رتبة الصول ، وقد دخل

الخدمة « نفرا » ككل الأنفار . ورأيت جسده العجوز على حقيقته مستقيما فى أجزاء منبعجا فى بعضها الآخر ، وقد فرضت عليه البدلة العسكرية والحذاء الثقيل و « القايش » .. فرضت على جسده شكلها فرضا كما يفرض قالب المكوى على الطربوش شكله وأبعاده . وكان من الواضح أنه يحب هذا المركز حين تسند إليه مهمة الضابط النوبتجى ، ويحب أن يعامله الناس كضابط بحق وحقيق وهو الذى — بلا شك — قد قضى ثلاثة أرباع عمره يحلم بهذا وينتظر اليوم الذى يحمل فيه كتفه « النجمة » .. وكان باديا أن كتفه لن تحمل شيئا من هذا القبيل ، فهو وإن كان يقوم أحيانا بدور الضابط النوبتجى إلا أن الإحالة إلى المعاش كانت تبدو وشيكة ، ونجمة الفجر أقرب إليه من نجمة الملازم الثانى .. وحين تركته وأدرت بصرى فى الحجرة ورأيت المكاتب الخاوية التى تركها أصحابها . ودولاب الدوسيهات ، والمروحة القديمة الموضوعة فوق الخزانة والتى كان يبدو أنها لم تستعمل منذ عشر سنين على الأقل وقد صنع التراب من نفسه عناكب فوقها ، والمصباح الكهربائى الذى له « برنيطة » من الصاج ، والذى يتدلى من السقف حتى يوازى رأس فرحات المائل على ما أمامه من أوراق ، والناس المزدحمين حول الحاجز الخشبى والذين يكونون خليطا — إن تنافر فى أشياء — فإنه يتفق فى نظرات القلق والحزن الغاضب والوجوه المتقبضة الجامدة كان معظمهم متهمين عائدين من تحقيق النيابة وتضمهم سلسلة حديدية طويلة ، تبينت بعد حين أنهم لا يقيمون وزنا للسلاحليك أو السلسلة أو الصول فرحات نفسه .. فشخطته تقابل بزمجرة وأحيانا برد لا يقل عنها قسوة ، حتى انفجر أحدهم مرة لأن فيشه وتشبيهه لم يكن بعد قد جاء من تحقيق الشخصية وكان عليه لهذا أن يمكث فى الحجز بلا إفراج حتى يجىء ، انفجر ولعن الدنيا والحظ والفقر

والذين كانوا السبب ، ولولا الملامة للعن الضابط النوبتجي هو الآخر .
ولمحت الضابط الذى هو فرحات يعانى الحرج الشديد وهو يسمعهم يهدرون ، ولكثرتهم وشراستهم وضربهم الدنيا صرمة لا يستطيع — كالضباط الحقيقيين فى نظره — إخماد ضجتهم ، ولما انتهى منهم ومضوا وعسكرى فى أول صفهم وعسكرى فى آخره ، والسلسلة ترن وتصلصل وهم لا يزالون يسبون ويلعنون ، تنهد فرحات تنهد الذى وضع أصبعه فى الشق ..

حين تركته وأدرت بصرى لكل هذا وعدت إليه وجدته حينئذ يبدو شيخا كبيراً جدا .. شيخاً إلى الدرجة التى تحس معها أنه عهدة من عهد الحكومة عثرت عليه ذات يوم أثناء « كبسه » على بلدته فصادرته ، وختمته بالطربوش الأحمر والبدلة الميرى ، وظل فى مخازنها حرزا من الأحراز يبلى ويصبح كهنة ولا تبلى ما عليه من أختام .

وقال وهو يجوس بعينيه خلال الموجودين :

— أف .. أقسم بالله الأشغال الشاقة أرحم من دى شغله .

وتوقفت عيناه علىّ وفيها دعوة واضحة ، وكنت أنا الآخر لى ساعات وأنا صامت فوجدت نفسى أقول :

— إيه .. الشغل كتير والا إيه ؟

وكمن كان ينتظر الفرج من زمن رأيته ينفجر :

— يوهوه يا أستاذ .. هو ده شغل ؟ .. دا سرك .. دا موريستان .. الناس اجننت .. يعملوا إيه ؟ .. حيخس عليهم حاجة ؟ كله على دماغنا ! والنبى أنا اشتغل فى الحديد ميت سنة ولا أقعد هنا ساعة .. والأكاده إن كله كلام فارغ .. كله كذب .. تبالى وحياتك .

اللى معور نفسه .. واللى ضاع منه شاكوش .. واللى كان نايم قال وراحت طاقيته .. ونروح بعيد ليه ! مش دى واقفة من الصبح ؟ مالك يابت ؟ أبقى مش الصول فرحات إن ما قالت إنهم ضربوها وأخدوا سيغتها ! .. مالك يا بت ؟ فيه إيه ؟

وكانت « البت » امرأة واقفة ضمن الواقفين ترتدى ثوبا كان أسود ثم أحاله ساحر الحاجة إلى رمادى ، وتتعصب بمنديل كالح لا يخفى إلا القليل من شعرها البنى الأكرت القصير وقد تلوت نهاياته وتنافرت ، وكان وجهها غامقا أسمر ، وفى عينيها كحل أفسدته الدموع ..

وردت تقول فى ذلة :

ــ أم سكينه والبت عيوشه وبنت اختها نبويه والواد ..

ــ مالهم ؟ مالهم ؟

ــ أتلموا علىّ وضربونى فى بطنى .. آه يانا ..

وفى ومضة خاطفة كانت فى حالة بكاء تام ، وأضافت والدموع والشهقات تختلط مى حلقها ..

ــ وام سكينه .. عضتنى .. هنا .. فى كتفى .. وزغدتنى فى بطنى .. والبت عيوشه قلعتنى الحلق ..

وقهقه الصول وخشخش صوته وقال :

ــ شايف يا أستاذ ؟ شايف ؟ مش قلتلك ؟ كله وحياتك كدب .. نصب واحتيال .. بقى بزمتك دى حيلتها البلى الأزرق ؟ حلق إيه يا بت اللى خدوه ؟ حلق حوش ؟

ــ حلق دهب يا بيه وغويشتين ..

والتفت الصول إلى وقال بلهجة ذكرتنى بنجيب الريحانى :

ــ تفتكر والنبى مين المجنى عليه فى الحكاية دى ؟

ــ مين ؟ ..

ــ أنا ! .. أنا يا فندم .. ماهو الكدب العلنى ده يبقى سرقه بالإكراه .. ومحضرها المصيبة من صورتين ، والمصيبة الكبرى ان أنا اللى حاكتب الصورتين ..

واستدار إلى المرأة ولسعها بنظرة كاوية فيها آثار من لمعة الضحك ، وأمسك القلم وفتح دفتر المحاضر الكبير وكأنه يفتح بوابة المتولى وقال :

ــ هه .. إلهى وانت جاهى ربنا ياخدكم ويخدنى معاكم خلينى استريح ..

ولما انتهى من كتابة مقدمة المحضر سألها :

ــ اسمك إيه يا بت ؟

ولم ينتظر أن تجيب أو يحفل بإجابتها ، وواجهنى مستأنفا كلامه وأنا أحس أنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثنى :

ــ أنا والنبى المجنى عليه .. ومش فى الواقعة دى بس .. فى ألف واقعه .. فى دشليون .. يمكن ما تصدقش .. اتفضل آدى دفتر الأحوال .. اصطبحنا بهتك عرض فى الطريق العام و ٥٩٢ اللى بعدها نشل حافظة نقود قال فيها قال ١٤٧ جنيه و ٨٣ صاغ وورقتين بوسطه .. أقسم بالله ما كان فيها إلا الورقتين . ويمكن لجل الحلفان خمسة تعريفه كمان ، واللى بعدها قال سرقة نحاس .. قايلين فى البلاغ إن النحاس وزنه ٥٠ رطل ومتهمين الخدامه .. حتة بت قد كده .. متطلعشى كلها على بعضها عشرة ارطال .. وغيره وغيره .. من الصبح وانا إيدى وقفت من الكتابة .. وكله ملاليم وكلام فارغ وكدب .. يا شيخ فضك .

والتفت إلى المرأة يسألها :

— ما تنطقى يا بت .. اسمك إيه ؟

وقبل أن تجيب ضحك وقال كمن تذكر نكتة :

واللا الجثة اللى لقيوها فى الخرابة مالهاش صاحب ..

قصدى صاحبها مجهول .. لقيوا السر الإلهى طلع منه كده لوحده ومن غير ما حد يكلمه .. قوللى ؟ .. اشمعنى نقى الخرابة دى يموت فيها ؟ .. يعنى ضاقت الدنيا فى وشه .. ما كنشى يتمشى لحد شبرا مثلا ؟ الله يرحمه مات .. واتعذب أنا ليه ؟

نهايته .. كتب عليكم الهم والغم كما كتب على الذين من قبلكم .

وأدار رأسه إلى المرأة :

— يا وليه اسمك إيه ؟ ..

— خديجة ..

— خديجة إيه .. انطقى ..

— خديجه محمد ..

— يا وليه تحركى .. محمد إيه ..

وقبل أن تجيب أرقد قلمه .. وأسند كوعيه إلى الصفحة ووضع رأسه بين يديه وقال من تحت حافة « الكاب » ، والمصباح الذى أمامه يهتز كالبندول فيتحرك ظل رأسه على الحائط الذى خلفه .. يتحرك رائحا غاديا كقرد كبير :

— أنا المجنى عليه والنبى .. هى حكاية محضر ؟ هو أنا عجزت من شويه ؟ ثلاثين سنة خدمة وحياتك ويوميا بهذا الشكل .. جبتها من المنزلة لعنيبة ومن العريش لمرسى مطروح .. وشفت اللى ادبح عشان عود قصب ، واللى حرق جرن عشان كوز دره .. الناس اجننت .. هو الواحد شاب من شويه ؟ ..

وأنهى كلامه فجأة وانقض على يد كانت تمتد إلى المكتب وخبط عليها بعنف وعصبية قائلا :

ـ قلتلك ميت مره شوفلك نشافه تانيه .. هو ما فيش فى القسم كله إلا دى ؟ .. أعوذ بالله أحنا فى سوق النور ؟

قال هذا وانتظر حتى اختفى صاحب اليد مهيض الجناح ، والتفت إلى بوجهه الجاد المشدود الملامح :

ـ والواحد يبقى حارق دمه .. وأولاد الـ « ... » ولا هاممهم وعمالين بهزروا ..

وكان يشير بعينيه وهو يتكلم إلى حجرة التليفون حيث اجتمع بعض العساكر حول زميل لهم بدين مترهل وله كرش كبير ، وكان بعضهم يكتفه والآخرون يحاولون جذب بنطلونه وإنزاله ، والرجل يلهث ويناضل بكل ما يسمح به شحمه من قوة ..

وبركن عيني لمحت الصول فرحات يبتسم ويضحك ويقهقه ، ثم ينسى كل شيء ويمد رقبته يتابع المعركة .. وظهر عليه أسف حقيقى حين انتهت المعركة بانتصار صاحب الكرش تخلصه ممن حوله . ورفع حينئذ صوته قائلا بلهجة صعيدية خالصة :

ـ آه يا نسوان .. ما قادرنشى على أبو كرش كليته « شغت » ؟!

وما كاد يتم كلامه حتى فتح باب جانبى وظهر المعاون فى الفناء ، وأصبح القسم فجأة أصم أبكم وهبطت الصرامة تجمد كل شيء ، وقال الصول للمرأة فى حزم :

ـ بتقولى اسمك خديجه محمد إيه ؟ ..

وتركته يحقق وشغلتنى عنه داورية الليل وقد بدأت تتجمع فى الفناء .

وحين تجمعت بدا منظرها عجيبا .. صفان من الظلام التام ليس فيه إلا بريق الزراير النحاسية الصفراء ، وفوق الظلام نار من الطرابيش الحمراء الفاقعة .. وأمام كل صف صف آخر من الأيدى الممدودة تسند البنادق بلا حماس .. وتسمع فى الظلام همهمات وضحكات تموت سريعا كالشهب ، وقد يشذ عن الأيدى الممدودة كوع ويلكز جاره .

وفتش عليها المعاون وأنفه — كالديك الرومى — فى السماء ، وعينه على زرار لا يبرق أو حذاء نفض عنه بعض سواده ، وراح وجاء ثم دخل حجرته ، والظاهر أنه تعشى فقد خرج وهو لا زال يمضغ وعلى شفتيه لمعة ، وفتش مرة أخرى وهو يجفف يديه بعد أن اغتسل ..

واندكت الأرض بالأحذية وكعوب البنادق مرات ، وعوقب بعض وكدر آخرون ..

ثم ..

جنبان سلاح و .. كتفان سلاح .. و .. داورية .. معتادان مارش ..

وخرجت داورية الليل تئز وتمايل وفى آخرها العسكرى البدين يحاول عبثا أن يوفق بين جسده غير المنتظم وخطواته المنتظمة ..

وأصبح فناء القسم بعد خروجها خاويا كعربة قطار الليل حين يقترب من آخر محطة ، وعدت إلى الصول فرحات فوجدته لا يزال يحقق مع المرأة ويسألها :

— اتلموا عليكى فين ؟ ..

— جوه السيما ..

— وإيه اللى دخلك السيما يا بت ؟ ..

— محمود ..

ــ محمود مين ؟ ..

ــ محمود !! ..

وهنا بدت على الصول فرحات صعيديته ، وسألها وجبهته معقودة دون أن يكتب فى المحضر :

ــ محمود دا إيه يا بت ؟ ..

ــ ابن خالتى ..

ووضع القلم من يده وهو يقول :

ــ آه يا بلد كابوريا ياولاد الـ ..

وأخرج من جيبه علبة صفيح قديمة من التى تباع فيها السجاير الغالية ، ولمحت فيها سيجارتين سادة وواحدة بفلة وعلبة كبريت . وأشعل السادة وغمغم بأشياء مبهمة تمس الآباء والأجداد وانجاب الإبهام حين قال لنفسه :

ــ سيما .. هه .. قال سيما قال ؟.. وتدخلوا السيما تنيلوا إيه ؟ .. هو انتو بتوع سيما ؟ ..

وانفلت من حديثه لنفسه يسأل المرأة وقد ثنى ظهره إلى الوراء ووضع ساقا فوق ساق :

ــ وتدخلى سيما يا بت مع واد زى ده ليه ؟ ..

وبحث بعينه ناحيتى ولعله كان يود أن يشهدنى على إجابتها فقلت له :

ــ إيه .. هو المحضر لسه ؟ ..

ــ آه .. لسه .. هو هيخلص ؟ .. حاضر .. أنا عارف انى عطلتك .. دقيقه واحده وافضالك ..

والظاهر أنه حسبنى شاكيا أو مبلغا .. ربما هذا .. وربما وجدنى أصليح مستمعا يفضفض لى بما عنده فى ليلة من لياليه الطويلة فآثـر أن يؤجـل

انصرافى .. وكتب شيئا وهو يبتسم ويقول لى :

ــ وادى انت بتتسلى .. مش بزمتك أحسن م السيما ؟

وتنهد وسأل المرأة ..

ــ هيه .. وطليقك سلط عليكى ليه ؟ تروحو السيما تنيلو إيه ؟ .. ما تتكلمى يا بت طليقك سلط عليكى ليه ؟ ..

ــ أصلى واخده عليه حكم نفقة ..

وكتب كلمة أو اثنتين والتفت إلى بنظرة فيها استنكار :

ــ روايات ؟ سيما ؟ روايات إيه اللى بيعملوها دى ؟ يبلوها ويشربوا ميتها أحسن !

ــ ليه مبتعجبكش ؟ ..

ــ تعجبنى ؟ تعجبنى ازاى ؟ الفيلم لازم يملا مخ الواحد .. إنما إيه المسخرة والرقص اللى لا تجيب ولا تودى ..

وأمسك القلم ووضع سنه على الدفتر وبدلا من أن يكتب قال لى بفتور :

ــ أنا مثلا لما قرفت من الروايات عملت مرة فيلم .

ولم تجعلنى قلة حماسته أصغى إليه تماما ، ولكن كلامه وقع فى أذنى موقعا فقلت :

ــ عملت إيه ؟ ..

ــ عملت فيلم .. رواية ..

ــ عملته ازاى ؟ مثلت فيه والا إيه ؟!

ــ لأ .. فيلم ألفته مخصوص عشان السينمات ..

وكدت أستخف بالأمر كله وأضحك فقد اعتقدت أنه لا بد شاهد حادثة أو جناية من الجنايات التى تحفل بها حياته ويريد بسلامة نيته أن يجعلها فيلما ،

فقلت وأنا أكتم ضحكى :

ــ فيلم إيه بقى ؟

فقال ببساطة ودون أن يتنحنح أو يعتدل أو يضع القلم ، أو حتى يلقى بالا إلى المرأة والناس الذين عند الحاجز .

ــ كان واحد هندى جه يزور مصر .. راجل غنى قوى .. من الجماعه اللى عندهم فلوس قد الفقر اللى عندنا .. الراجل جه .. وقعد فى لوكانده فخمه قوى زى ما تقول لوكاندة مينا هاوس واللا شبت .. وكان فيه جدع غلبان زى حالاتنا كده .. وانتبهت حواسى كلها فجأة ..

وملت على السور كثيرا حتى لا تفوتنى كلمة من كلماته ..

وأقبلت امرأة تستغيث فى شبه صراخ ، وكانت بيضاء حلوة وحواجبها مخططة بعناية فائقة .. وزمجر فيها الصول فرحات :

ــ مالك يا وليه ؟ .. مالك ؟ القيامه قامت ؟ ..

ــ الحق يا خويا .. الحق .. الواد موت أمه م الضرب !

ــ واد مين يا وليه ؟

ــ الواد ابن جارتنا ..

ــ واحنا مالنا ؟

ــ يوه .. مش انت يا خويا النبى حارسك البوليس ؟

ــ وهو يصح إن البوليس يدخل بين الواد وأمه ؟

ــ يه .. ولما يموتها الدلعدى يا خويا ؟!

ــ تبقى تفرج .. نبقى فى الحالة دى نروح نمسكه ..

ويئست منه المرأة فانتحت ركنا قصيا بالعسكرى الذى كان يحرسنى ، وراحت تهمس له بالقصة وتهمس له أكثر بحواجبها ، ثم غادرت القسم والعسكرى ساهم وكأنما أعجبته همسات الحواجب .

وعاد إلى الصول فرحات وقال :

ـ أما مصايب صحيح .. واد قال ! .. بس .. الجدع الغلبان ده كان خالى شغل .. يعنى زى ما يقولوا موظف فى كوبانية الشمس .. يعبى الشمس طول النهار فى قزايز ويسرح بيها فى الليل هىء هىء .. أمال ! .. آه .. فتك فى الكلام .. الراجل الهندى ده مره طالع م اللوكانده فوقع منه فص ألماظ يسوى النهارده بالميت سبعين تمانين ألف جنيه ، شافه الجدع المصرى قام واخده ومديه للغنى الهندى ..

ـ فص إيه يا راجل يا بكاش ؟

والتفتنا سويا ، وكان الذى قال هذا شاويش طويل معه دوسيه ما لبث أن سأل فرحات :

ـ عملت إيه فى المتوفى المجهول الاسم ؟

وهب فيه فرحات :

ـ حاعمل إيه يعنى ؟ أمشى فى الشارع أقول ياللى ضايع له ميت ؟ ..

ـ أنا رحت المستشفى وشفته ..

ـ تشرفنا ..

ـ شوف يا سيدى عينه عسلية وشعره شايب وعلى صدغه الأيمن ..

ـ وبتقول لى الكلام ده ليه ؟ .. هو أنا بعتك تخطبه ؟ .. روح شوف شغلك أحسن .. عسلية إيه يابو طويلة يا هايف ؟

ثم التفت إلى قائلا : الراجل الهندى جه يدى للمصرى فلوس إلا رأسه وألف سيف ما ياخد ولا مليم ، يهديك يرضيك مافيش فايدة فكبر قوى فى عين الهندى واكيف منه تمام .. راحت الايام وجت الايام وروح الغنى بلده وهو محتار يجازى المصرى ده ازاى ، فلقى ان أحسن طريقة إنه يشترى باسمه

ورقة لوترية .. تعرف البريمو كانت تكسب كام ؟ والا استنى أما نشرب شاى ..

وصفق كثيرا حتى جاء صبى البوفيه ، وطلب الشاى واختلف معه طويلا على الطلبات التى تناولها فى يومه .. الصبى يقول : ثلاثة وهو يقول اثنين، و لم ينته الخلاف حتى بإحضار الشاى .

وسمعنا باب المعاون وهو يفتح والمعاون يخرج ويقف فى الفناء ويتمطى ، وعاد فرحات يسأل المرأة :

ــ هيه .. إيه الحكاية ؟

ــ لما خدت عليه الحكم .. لف على عايزنى أتنازل .. مارضيتش فبعتلى أمه واخته وبنت خا ..

ــ هوس .. كفاية لحد هنا .. واتلموا عليكى فى السيما ؟

ــ أيوه وفضلو يضربو فيه لما كانوا حيسقطونى ..

ــ إيه ؟

ــ أصل انا حامل فى ست اشهر .

وترك الصول فرحات المحضر وقد استولى عليه حب الاستطلاع وأعجبته القصة وسألها :

ــ يخرب بيتك .. حامل من مين يابت ؟

ــ منه يابيه .. من طليقى ..

ــ إمتى ؟

ــ قبل ما يطلقنى ..

ــ وجوزك ده طلقك ليه وانت حامل ؟

ــ عشان وقع على اليمين ..

ـــ يمين إيه ؟ وطلقك إمتى ؟

ـــ ليلة أول رمضان اللى فات .. كسرت قلة أمه وانا قايمة اتسحر فحلف طلاق بالتلاته ليكسر قصادها دراعى ! ..

ـــ وكسر دراعك ؟ ..

ـــ لا .. طلقنى .

ـــ أنا قلبى كان حاسس والنبى .. بقى قلة أمه هى السبب ؟

بقى عشان قلة أمه اكسرت فى رمضان اللى فات ، يتحرق دمى النهارده طول اليوم .. قلة تمنها ساغ يا عالم أروح أنا ضحيتها ؟

اسمعى يابت ! هل لديك أقوال أخرى ؟ عايزه تقولى حاجة تانية ؟ ..

ـــ أيوه يابيه .. عيوشة هى اللى مقلعانى الحلق .. وآمها هى ..

ـــ أف .. يابت أقوال أخرى غير اللى قلتيها ؟

ـــ هو أنا لسه قلت حاجه ..

و لم أتمالك نفسى فضحكت ، وتحول غضب الصول هو الآخر إلى قهقهة عالية وانتهى من المحضر ، وتنهد وتثاءب وهز رأسه ..

وخرجت المرأة ومعها خطاب للكشف عليها .. ولدهشتى خرج معها كل الناس الواقفين ..

ـــ هيه .. كانت البريمو تكسب كام ؟ ..

ـــ انت لسه فاكر ؟ .. تكسب مليون جنيه .. ما هى كانت غالية كان !

واشترى ميت ورقة عشان يضمن المكسب ، وجه السحب واحدة منهم كسبت البريمو .. مليون من غير الضريبة ، وفكرشى الراجل إنه يطمع عليها ولا حد شاف ولا حد درى ؟ أبدا .. عمل إيه ؟ راح شارى غليون بضاعة كبير قوى .. ووسقه حرير هندى من اللى على أصله .. وإشى عاج .. وإشى

ريش نعام .. وإشى جوخ وكشمير ومابوليا محترمة .. وراح باعت المركب بالطقم بتاعها باللى عليها على اسكندرية ، وراح باعت عقد البيع والبوليصة خالصة كل حاجة لصاحبنا على مصر .. يعنى ما عليه إلا يستلم .

وهب .. وصلت المركب اسكندرية .. حاجة باسم الله ماشاء الله .. وبتاعة مين يا جماعة ؟ .. بتاعت فلان .. بالاختصار الراجل باع البضاعة اللى عليها واشترى بها مركب تانيه ، وخلّى مركب رايحه بلاد بره شاحنة ومركب جاية شاحنة ، وإذا كان حتة الطرد اللى قد كده الواحد بيخلص عليه فى السكة الحديد بكذا .. شوف بقى مركب زى دى تكسب قد إيه فى السفرية ..

واندفع فى هذه اللحظة إلى الداخل رجل قصير نحيل يرتدى جلبابا كله زيت وبقع ورأسه عار .. ويرتدى قبقابا له صوت مزعج ، اندفع كالسهم داخلا وهو يقول وعلى وجهه ألم عظيم :

ــ يافندى .. يافندى ..

وضايق دخوله الصول فرحات . وكأن أحدهم قد صوب إلى أرنبة أنفه لكمة فاستدار إلى الرجل وأرعد فيه :

ــ مالك ؟

ــ ما ليش يافندى .. واد ابن حزام حدف طوبة كسرت لوح القزاز بتاع بترينة الدكان .. لوح القزاز اللى معرفشى أجيبه النهارده .. بنور بلجيكى من الأصلى اللى قبل الحرب .. تلاتة متر فى تلاتة .. روح الله يخرب بيتك يا بعيد زى ما خربت بيتى ..

ــ دكان إيه ! ..

ــ بقالة المودة والإخاء فى الشارع العمومى ..

ـــ عارفها .. اللى عالناصية قدام الجاراج ؟ ..

ـــ أيوه .. إلهى يعمر بيتك .. ربنا مايوريك ..

ـــ البترينة نهين اللى اكسرت .. اللى عالشارع والا التانية اللى ع الحارة ..

ـــ الكبيرة يا فندى اللى ع الحارة ..

فقال الصول وهو ينفض يده من الأمر ويستعد لمتابعة الرواية :

ـــ تبقى مش تبعنا .. تبع بولاق ..

ـــ إزاى يابيه والبيت تبعكو ..

ـــ الناحية اللى ع الحارة تبع بولاق .

ـــ يا فندى إعمل معروف ..

ـــ قلتلك مش تبعنا .. روح قسم بولاق ..

ـــ ياف ..

ـــ روح .. جك ريح خماسى ..

واندفع الرجل يقبقب خارجا كالسهم : وانتظر فرحات حتى اختفت دقات القبقاب ثم رجع محاولا أن يستعيد الجو الذى عكره البقال .. وثنى ظهره إلى الوراء كثيرا ومال الكرسى لانثنائه .. وخلع الكاب وأمسك به فى يده يديره أحيانا وأحيانا يهف به وقال :

ـــ الراجل كان طهقان قوى من مراكب الخواجات . ففى ظرف سنة ربنا اداله واتسع قوى .. وحبه بحبه راح شاريلك مراكب إسكندرية كلها .. وما أصبحشى فيه مركب انجليزى .. طليانى .. تلتانى .. كله رفع العلم الأخضر ..

ولاحظت أن ملامح الصول فرحات قد تراخت وانزاح عنها كل ما فيها من صرامة واشمئزاز واتخذت طابعا عجوزا راضيا ، وعيناه هامتا فى سماء الحجرة

كفراشتين حالمتين ، وصوته خلى من كل تشويش وحفل بنشوة طارئة حلوة كانت تخرج الكلمات من فمه لذيذة وكأنها محلاة بعسل النحل ، فلا تملك إلا أن تحبها وتحب رعشتها الممتلئة بالرنين وهى تنساب فى تؤدة من خلال السكون الحزين الذى خيم حتى أصبح القسم كسرادق المأتم فى آخر الليل ، حين لا تسمع فيه إلا فحيح الكلوبات .. وهمسات المعزين :

ــ وأصبح للراجل مراكب لا تحصى ولا تعد .. أصغر ما فيهم تيجى قد القسم دهه عشرة خمستاشر مرة . يسكتشى على كده ؟ . أبدا .. الفلوس مالحستشى عقله فراح شارى بالإيراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوى .. وشغل فيه ييجى نص مليون عامل .. بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز .. والقزاز عمل مطاحن .. ومضارب رز .. وبعد كده إشى محالج واشى سكر .. واشى جاز .. واشى ورق .. واشى مكن .. واشى صلب .. المهم أنه جه يوم عليه امتلك فيه مصانع مصر كلها ..

وما عجبوش الحال الملخبط ده فراح لام المصانع وبناها على جتة تطلع ألف فدان لأ .. ألف إيه ؟ .. هى الألف تنفع .. ييجى عشر آلاف فدان .. خمستلاف منهم مصانع والخمستلاف التانية سكن فيها العمال .. مش سكن كلشنكان .. لا .. سكن .. بيت .. بجنينه بيلكونة وحاوى مما جميعه حتى فيه عشش الفراخ والأرانب .. ومش بس كده كان ما يخدش من عرق العامل حاجة .. اشتغل بخمسة ياخد خمسة .. بعشرة بعشرة .. ما هو لا مؤاخذة فى دى الكلمة العامل لما ياخد اللى يقضيه يشتغل ويتفرعن فى الشغل .. واحنا شعب وارث الفرعنة أبا عن جد .. فبدل ما يطلع متر يطلع مترين .. وبدل جزمة جوز جزم .. مهو كده هات وخد .. ادينى حقى وخد حقك .. انت راخر العامل أصبح حاجة تانية .. هدوم نضيفة أربعة وعشرين قراط ،

عفريته مكوية يروح بيها الشغل ، وييجى بعد الضهر يلبس بدلة الأيافة والطربوش النسر والجزمة الاجلسيه . وقهاوى إيه وجناين إيه وكازينات إيه وأبهة إيه .. والناس بقوا حلوين وفرحانين ومبسوطين .. ولا قرف ولا بلاوى .. طول النهار ضحك وفرفشة والليل يروحوا السيمات .. والسيمات دى مهمة قوى .. فى كل شارع سيما وبالأمر لازم كل كبير وصغير يخش .. والأفلام ، أفلام تمام .. وبوليس ، مفيش بوليس .. العسكرى بدل ما يتلطع ٨ ساعات فى الداورية له كشك قزاز فى قزاز فى وسط الشارع .. ومكتب صغير واللى عايز حاجة يجيله .. .

استنى بقى لحسن الواغش بعيد عنك جه .. أما نشوف إيراد النهاردة حيبقى كام ..

وحقيقة كنت أسمع الضجة ا. ,يلة التى أخذت تترى من ناحية الباب ، ولكنى كنت أنا المنساق هذه المرة وراء ما يقوله فرحات وما ذهلت له تماما ..

والتفت ناحية الباب فوجدته قد ازدحم بأربعة مخبرين أو خمسة طوال عراض أيضا ويرتدون اللبد ، وقد أمسك كل منهم فى كل يد من يديه قبضة أطفال مشردين ، ومتسولين عجائز وكل منهم يجر مافى يديه جرا . وقد ربط جلباب الطفل فى جلباب الآخر .. وكان المخبرون يبدون كالعمالقة الطوال ، والأطفال يبدون بجوارهم قصارا صغارا كالكتاكيت المذعورة ، وعبروا الفناء ووصل ركبهم إلى السور الخشبى ، وكذلك وصلت ضجتهم فأنهى الصول فرحات كل الأصوات بقوله :

— بس .. اخرس انت وهوه .. وقفهم طابور يابو طه قدامى .. بطل كلام عمى فى عينك ..

وذهب باقى المخبرين واصطف الطابور فى سكون ..

ورجع الصول فرحات إلى الوراء كثيرا وهو لا يزال فى نشوته فقلت :

ـــ وبعدين ..

ـــ ولا قبلين .. حالا مكن من ألمانيا جه .. والمهندسين والعمال اشتغلت .. وراحوا زارعينلك الصحرا كلها .. شوف بقى الرملة دى كلها لما تزرع ؟ .. الإكس يمشى فيها سبع تيام ما يحصلش آخرها .. وأهم من ده وده إن مافيش قولة حاجة اسمها توابيت محاريت . سواقى .. كلام فارغ من ده .. كله مكن .. الرى بمكن والدراس بمكن والسباخ بمكن .. وحتى كان فيه مكن يجمع القطن ويحش البرسيم .. والفلاح اللى عليه العمل .. مفيش قولة جلابية .. طاقية .. بشت .. أبصر إيه معرف إيه .. أبدا كله بدل .. بنطلونات كاكى لحد الركبة وبرانيط بيضة نظيفة وجزم بنعل دوبل مايدوبش أبدا .. والفلاحين يسرحوا طابور يشتغلوا لغاية الضهر بس وبعدين يرجعوا طابور .. والنسوان كذلك .. بس دول فى غيط ودول فى غيط .. والبيوت كلها حجر .. ولمض جاز تبطل خالص كله كهرباء والسحب على صاحب الأرض .. وكل صف بيوت له ميز ياكلوا فيه ويرجعوا لبيوتهم يقيلوا ، وبعدين العصر طابور على المدرسة يقروا ويكتبوا ويعرفوا اللى لهم من اللى عليهم . بس ياسيدى ماطولشى عليك الراجل من كتر الفلوس عنده زهد فيها كانت أرخص من التراب .. وحاكم الفلوس لما تبقى بالشكل ده الواحد لازم يقرف منها . اللى ياكل تفاح كل يوم بيقرف منه .. ففى يوم من الأيام أعلن فى الراديو .. أيوه .. مهو نسيت أقولك إنه عمل محطة إذاعة وعمل ليها فى كل بيت من البيوت وصلة .. أعلن فى المكرفون أنه متنازل عن جميع ..

وكان الصول فرحات ينظر إلى ويقول كلماته الأخيرة وكأنه يفكر فى مشكلة أخرى ..

وقال للعسكرى فجأة :

ـــ انت واقف بتعمل إيه يا جدع ؟! انت ما وراكشى شغل ؟ ..

وقال العسكرى فى صوت متقطع :

ـــ أصل .. الأ .. الأفندى .. أنا مستلمه ..

ـــ مستلمه ؟ ليه ؟

ـــ حرس عليه ..

واستدار إلى الصول فرحات وألقى على نظرة ما رأيتها منه قبل الآن واستمر يحدجنى طويلا ، ولا ريب أنه لم يجدنى أصلح كى أكون قاتلا أو سارقا أو خاطف طفل ولست أدرى ما كان يعنيه حين قال فى بطء وشك كثير :

ـــ آه . الأفندى ده . هو انت منهم ؟ ..

فقلت وأنا أبتسم :

ـــ من مين ؟ .. المهم .. الراجل أعلن إيه فى الإذاعة ؟ .. .

واستمر ينظر إلى ثم قال بصوت تائه :

ـــ آه .. والله مانا فاكر .. يا شيخ فضك .. أهو كلام .. انت بتصدق ؟

ثم شد جلد وجهه حتى عاد كالطبلة الصارمة ، وجذب « الكاب » حتى بلغ موضعه التقليدى من جبهته تماما ، وهوى على « المتسول » العجوز الواقف فى أول الصف بنظرة صاعقة من عينيه ، وانطلقت جعجعته المعهودة :

ـــ ما تنطق يابجم .. اسمك إيه ؟!

الطـابور

تتشابه الأسواق فى الأرياف ولا تكاد تختلف ، فكل منها فضاء واسع يحده سور ، وله باب وعلى أرضه دكاكين بضاعة ذات رفوف فارغة قد لوحت أخشابها حرارة الشمس وليالى الشتاء ، ثم مصاطب مبعثرة مصنوعة من تبن يؤلف بينه طين ..

ويوم السوق هو بلا شك أروع الأيام وأشهرها ، وهو الزحمة التى تحدث كل حين مرة معلنة وكأنها ساعة بشرية هائلة انقضاء أيام سبعة ، وفراغ جيوب وامتلاء جيوب ، وقبض أجور واختلاس أجور ، وشبع ناس وجوع ناس ، وتقيس العمر ..

وبعد أن ينفض السوق يبقى الفضاء لا تؤمه إلا الغربان وأسراب الخرفان والماعز الطوافة ، وفرق الرياضة من التلاميذ ، والمباريات وكرة القدم ..

وتتشابه الأسواق فى الأرياف إلا سوق السبت فى تلك الناحية ، فقد كان يتميز بظاهرة ، غريبة ، فسوره كله كان مصنوعا من حدائد لها أطراف مدببة ما عدا جزء صغير منه لا يتجاوز المترين قد بنى من الدبش والأسمنت وأحكم بناؤه ..

ومن قديم والناس يختلفون فى أمر ذلك الحائط الصغير .. كانوا يقولون أول الأمر أن تحت الحائط كنزا يفتح على ديك يؤذن ذات فجر ويكون للموعود ، ولكن ما لبث هذا القول أن بهت وأصبح التسليم به كالإيمان بطلوع ليلة القدر ، حكاية تذكر من قبيل التمنى ..

ثم قالوا إن الحائط أقيم فوق فوهة بئر كانت تتسرب منها الجن من باطن

الأرض إلى ظاهرها ، فأقيم الحائط ووضع فيه مصحف وبخارى وأحجبة وقطع زجاج مكسور ليمنع تسرب الجان ، ولكن هذا القول كسابقه لم يعمر طويلا ..

ثم شب جيل كان أقل خيالا من سابقيه رأى فى الحائط الصغير تجربة كان القصد منها بناء السور كله من الدبش والأسمنت ، وفشلت التجربة ..

ولا يكف الناس أبدا عن إيجاد تعليل ..

ومع هذا بقى السبب الحقيقى لا يكاد يصدقه أحد ..

فالسوق أول الأمر لم تكن سوقا وإنما كانت قطعة أرض بور لا ينبت فيها زرع .. رأى أهل القرى المجاورة أنها أقرب مكان يفدون إليه مثقلين بالغلة والبلح والجبن ، ويعودون وقد خفت أحمالهم بالدمور والمرايا والسكاكين الخارجة لتوها من تحت يد الحداد . وكانت تلك الأرض جزءا من الأملاك الواسعة التى آلت لأحد أعيان الجهة الذى ينحدر من سلالة من ترك أو مماليك .. الله وحده يعلم ..

ورأى المالك فى قدوم الناس ومواشيهم إلى أرضه البور كسبا له وطريقة لإخصاب الأرض حتى يزرعها بعد حين ، ولهذا سمح لهم بالقدوم بل كان يشجعهم على القدوم حين يمر وسط زحمتهم راكبا فرسه وموزعا ابتساماته الراضيات ..

ولما رأى أن الأرض قد استوت للزرع بما خلفته فيها المواشى من بقايا ، أراد حرثها ، ومع هذا قدم إليها الناس مثقلين وغادروها خفيفين ، وبططوا الحرث وأقاموا السوق ..

وطرد الناس وحرثها مرة أخرى ..

وفى الأسبوع التالى أقيم السوق أيضا وبطط الحرث .

وأشار عليه أيامها ناظره العجوز أن يستغل الأرض بطريقة أخرى ، فيترك الناس يجيئون على أن يأخذ ضريبة على المتسوقين . وأخذ المالك بنصحه ، وفى الأسبوع التالى انطلق محصلوه يترصدون القادمين ويجمعون الأتاوة ، ولكى يزيد الإيراد ويقلل المصاريف أقام حول الفضاء سورا من الخشب جعل له بابا على الطريق الزراعى وجعل على الباب محصلا واحدا ..

وهكذا وجدت سوق السبت ، وما لبثت أن عمرت وازدهرت وأضيفت إلى بلادها بلاد ، وأضيفت إليها هى سويقات للحمير والجمال ، واكتملت أصنافها حتى من « البوظة السادة » والعرقسوس ..

وكنت تعرف أن السبت يومها حين تجد الناس فى الصباح الباكر يزحفون صوب السوق من كل اتجاه ، وتجد الطرق المؤدية إليه قد حفلت بلابسى العمائم والجلاليب والذين بلا عمائم أو جلاليب ، وراكبى الحمير وساحبى الأبقار ، وحاملى المقاطف وطالقى الجواميس والمتوكلين على الله ..

ولم يكن على أهل القرى الغربية أكثر من أن يعبروا الطريق الزراعى ويدخلوا من الباب ليصبحوا فى قلب السوق .. أما أهل القرى الشرقية فالمسألة بالنسبة إليهم كانت أصعب ، فالمشايات التى تنحدر من قراهم كانت تلتقى عند الساقية القديمة فى مشاية واحدة ضيقة تنتهى عند نقطة فى السور الشرقى تقابل الباب فى السور الغربى ، وكان عليهم لكى يدخلوا من الباب أن يلفوا حول السور كله وفى هذا تعب ومشقة ودوشة لا لزوم لها . فاختصروا الطريق إذن وكسروا خشبة من أخشاب السور وأصبح الأمر لا يكلفهم أكثر من المروق بين خشبتين ليصبحوا فى قلب السوق .

وبمضى الوقت أصبحت المشاية الضيقة طريقا معترفا به من السوق وإليه ، وأصبحت الفجوة التى فى السوق بابا كأحسن ما يكون الباب .

وكان لصاحب الأرض « سرايه » تطل على السوق ، كلها مشربيات وشرفات وسلامليكات وأشياء من هذا القبيل ، والظاهر أنه كان واقفا فى شرفته ذات يوم فرأى طابورا لم يكن يعرف كيف يبدأ ولكنه رآه ينتهى فى السوق من خلال السور ، فجن جنونه وركب رأسه ، وركب كذلك حصانه ، وانطلق يرى الأمر . وهناك رأى الفتحة فشلضم وبرطم وأمر بإصلاح الخشبة المكسورة فى الحال ..

ويوم السوق التالى وقف فى الشرفة يشمت فى الطابور الذى لا ريب سيتكسر عند السور ، ولكن آلاف العفاريت ركبته حين رأى الطابور يواصل سيره المعتاد ..

ولما أسرع يعاين وجد الخشبة الجديدة مكسورة ، ويقولون أنه جلد النجار الذى أصلحها وجلده مرة أخرى ليصلحها ، بل وقف على رأسه حتى أتمها وامتحن متانتها بنفسه . وفى السبت التالى روع الرجل بالخشبة مكسورة .

واحمر وجهه بالحمق حتى كاد يدمى .. وقطع شجرتين من أشجار السنط وكومهما حتى سدت الفجوة ..

وما مر الأسبوع حتى كانت الشجرتان كل فى أقصى ناحية والطابور لا يزال لا بداية له ، ولكنه ينتهى داخل السوق من خلال الفجوة ..

وكاد شريان من شرايين الرجل ينفجر ، وهذه المرة كلفه استعمال عقله ليلة بأكملها . وفى الصباح أحضر فرقة من الصعايدة بكريكاتهم وفئوسهم ، وما انتهى الأسبوع حتى كانوا قد حفروا ترعة حول السور كالخندق وأطلق فيها الماء ..

ولم يتعب نفسه ويقف يوم السوق فى الشرفة ولا ما بعده من أسواق ، فقد

كان متأكدا تماما من انقطاع الرجل ..

والذى حدث أن شجرتى السنط جىء بهما ووضعتا فى الخندق وبقى ظاهرا منهما ما يكفى ليخطى الإنسان عليه فى أول سوق بعد الترعة ، ثم قلقلت كتل من الطين الجاف ، نفس الطين الناتج من حفر الترعة وأسقطت فوق فروع السنط ، وبعد أسابيع ردم جزء من الترعة أصبح يصل بين المشاية والفجوة .

ويبدو أن الرجل كان راكبا فرسه يتنزه ذات يوم فوجد المشاية واصلة إلى السور وظل يسب ويرطن أياما ، وظل كذلك يكظم غيظه ، وقد أصبحت المسألة مسألة كرامة وعند وتحد من الفلاحين العبط . فانتقى من بين خفرائه ثلاثة طوالا عراضا وقال لهم : خراب بيوتكم إن نفذ أحد ..

ويوم السوق تلكأ الطابور لأول مرة وما لبث أن توقف ، فقد نشبت عند السور خناقة كبيرة ، وفى الضحى حمل الطوال العراض إلى السراية ودمهم يسيل ..

واستعاد الطابور بقية اليوم سيره وسرعته .. وطاب الخفراء وعادوا يحرسون الثغرة ، ونشبت معارك أقل حدة ، وتلكأ الطابور مرارا ثم كف عن تلكئه واستأنف سيره تحت وابل من حقن الجميز ، أو خيارتين ، أو طورة بلح ، أو نفس دخان ، أو حتى عواف عليكو يا رجاله ..

وذات مرة رأى صاحب الأرض خفراءه جالسين يستظلون بشجرة الجميز وتأتيهم المنح من الذاهب إلى السوق والعائد منه فطرد الخفراء وأحضر بنائين وأحجارا وبنى ذلك الحائط العالى الذى أغلق الفجوة تماما وجار على ما حولها ، وأغلق كذلك كل فجوة فى نفسه ممكن أن يتسرب منها الشك فى احتمال فشل الحائط .

و لم يكد سبت واحد يمضى حتى اكتشف الرجل مخبولا أن الخشبة التى بجوار الحائط تماما قد كسرت ، وأن فجوة جديدة قد صنعت ..

وأقسم يومها أن يبيع السوق ..

و لم يتح له أن يبر بقسمه إذا استولت عليه شركة الأسواق ، بناء على مرسوم وامتياز وبأقساط طويلة الأجل ..

ومع أن الشركة قد أقامت بدلا من الخشب سورا من حديد كلما بلى جددته ، ومع أنها لم تركب رأسها كالصاحب القديم فتستأجر فتوات أو تقيم حيطانا ، بل استعانت بالمركز فجعل لها كل سبت كوكبة صغيرة من الخيالة تجوب السور رائحة غادية ..

مع هذا إلا أنك إذا وقفت فى الصباح الباكر من أى سبت ، فسوف تجد المشاية تحفل بالطابور الذى لا تعرف كيف يبدأ ، ولكنك تراه ينتهى فى السوق من خلال السور ؟

ودائما ستجد هناك حديدة مكسورة ..

رمضان

كان فتحي ــــ وهو صبى فى العاشرة من عمره ــــ ثائرا جدا على الرجال الكبار وعلى أبيه بنوع خاص ، فمن حوالى ثلاثة أعوام على ما يذكر ، طلب من أبيه أن يصوم رمضان فقال له أبوه . لا يصح قبل أن تبلغ الثامنة . وكظم فتحي صبره وانتظر عاما طويلا على مضض . وحين حلت مقدمات رمضان من العام التالى وبدأ يرى « الفطرة » و « النقل » و « عين الجمل » تملأ الأجولة أمام الدكاكين ، لم ينتظر حتى يفاجأ بالأمر الواقع وإنما قبلها بكثير انتهز لحظة انسجام من لحظات أبيه ــــ وفتحي يعرف أن لحظات الانسجام تلك تأتى فى أول الشهر ــــ انتهز الفرصة وذكره بما قاله فى العام الماضى . وأردف هذا بقوله إنه خلاص قرر أن يصوم . وادعى أبوه النسيان التام فى أول الأمر ، ثم لما أخذ يذكره ويضيق عليه الخناق قال له : لا صيام لمن لا يصلى .

وكانت إجابة فتحي حماسة صريحة إنه حتما سيصلى .

وحسب أن الأمر لن يكلفه أكثر من الوضوء والصلاة ، ثم يتاح له بعد ذلك أن يصوم .

وكان فى هذا متفائلا جدا إذ لم يتح له أبدا أن يصلى كما أراد .

فقد توضأ كما تعلم فى المدرسة ، وفرد « سجادة » أبيه ليصلى عليها فإذا بأبيه يسبقه ويطويها . ولما سأله فتحي عن السبب أجابه بأنه يشك فى وضوئه وطهوره ، ويخاف على السجادة أن تلحقها النجاسة . فترك السجادة وصنع لنفسه مصلى من جلبابه القديم النظيف ، ولم يعترف أبوه أبدا بطهارة الجلباب وبالتالى لم يعترف بصلاته ، وقرر فتحي حينئذ أن يجبر أباه على الاعتراف

فيذهب ويصلى فى الجامع .

وملأه الجامع روعة وأحاسيس رنانة فيها دمدمات موسيقية ضخمة .. يكح المصلى من هؤلاء فيكح فراغ الجامع الهائل كله ، وإذا قيلت : بسم الله الرحمن الرحيم فسرعان ما تتضخم وتتضخم ، وترن وترن ، وتكبر وتكبر ، وتتموج وتلد بسملات أخريات تتصادم وتتكسر عند الجدران العالية الملساء .

ويكون الجو فى الخارج نارا وقيظا والجامع وحده هو الذى يحفل بطراوة ممدودة حلوة ترد الروح . ويكون الضوء فى الخارج فظيعا فى كثرته وقوته ولكنه يتهادى فى النهار إلى الجامع من البرج الذى فى أعلاه المصنوع من زجاج ملون ويسقط منه على المصلين فيلونهم تلوينا جميلا .. وجه يبدو أحمر والرقبة التى بجواره زرقاء ، وعمامة صفراء ، وعين بنفسجية .. وفى الليل تضئ الثريات .. يا سلام على نورها الكثير وبللورها الذى يشع وينور ويزغلل .

أما المصلون أنفسهم فكان فتحى لا يحبهم إلا إذا صلوا جماعة واصطفوا صفوفا وراءها صفوف فى نظام وخطوط مستقيمة ، ويقول الإمام : الله أكبر فيردد المصلون جميعا وراءه : الله أكبر ، وكلهم فى نفس واحد وكأنهم رجل واحد ، كبير جدا أكبر من سيدنا الحسين ، وصوته ليس مرتفعا يخيف إنما صوته يرن رنينا حلوا يحس معه فتحى أنه لا يصدر عنه وإنما يصدر عن ملائكة كثيرين يملئون صدر ذلك الرجل الكبير .

ثم الأروع من هذا حين يسجد المصلون ويراهم فتحى باركين على الأرض .. باركين ، مئات الظهور المنحنية كلها متشابهة وإن اختلفت فى ألوان ملابسها ، صانعة بهذا سجادة عالية محببة مزخرفه بكل الألوان تفرش المسجد من الحائط للحائط ..

وفى الجامع أيضا لاقى الأمرين .. فإذا ذهب يتوضأ من الحنفيات ترك الرجال الكبار وضوءهم ومضوا يترقبونه ويتمنون له الخطأ . ويتدخل أحدهم قائلا : إغسل اليدين حتى المرفقين يا ولد .. فإذا غسلهما للمرفقين تصدى له آخر : يا ولد .. ذراعك التى غسلتها لا مست ذراعك التى لم تغسلها .. أعد الوضوء .. ويعيد الوضوء مع أنه يكون متأكدا أن ذراعه لم تلامس ذراعه الأخرى ولا قاربتها . أو قد يبتسم له شيخ له لحية طويلة ابتسامة صفراء ويقول : انت استنجيت يا شاطر ؟! ويخجل فتحى جدا ويهز رأسه ، ولكنه يترك الوضوء كله وينفض يده منه ويذهب ليتوضأ فى بيتهم حيث لا رجال ولا شيوخ ..

وإذا ما وقف ليصلى جماعة لاقى الصعاب ، فإن الذى بجواره يدفعه من كتفه قائلا : روح للصف الثانى . والصف الثانى يدفعه إلى الثالث ، وهكذا إلى أن يجد نفسه فى النهاية واقفا فى الآخر بلا صف . ويجد نفسه هو والصغار الآخرين الذين ذهبوا يصلون منبوذين مطرودين فيصنعون وأمرهم إلى الله صفا أخيرا . وما أسرع ما أدرك فتحى أن الوقوف فى الصف الأخير له ميزة إذ يتاح له من مكانه هناك أن يشاهد المصلين جميعا وهم راكعون أو ساجدون ، ومن فرط ما أحب فتحى مشهدهم ذاك كان إذا صلى جماعة وركعوا هم كلهم أو سجدوا يبقى هو وحده بلا ركوع أو سجود ، ليستطيع أن يستمتع بمشهدهم .. حتى إذا ما قاربت الحركة على الانتهاء سارع هو بالركوع أو السجود لئلا يلحظه أحد ..

وهو فى صفهم الأخير ذاك كان لا يعدم الأمر أن يأتى مصل مسن متأخرا ليلحق بصلاة الجماعة ، فما أن يرى صفهم حتى يهب فيهم : صلاة إيه دى اللى كلها عيال .. امشى قليل الأدب منك له . ويتفرقون ويتبعثرون ويطيرون

تاركين المسجد كله للكبار .. وإذا كان سعيد الحظ ورضى ابن حلال أن يوقفه بجواره فى الصف ، فلابد أن أحدهم سيخرج من صلاته ليقول له : يا وله .. انت بتصلى من غير طاقية .. امشى شوف لك طاقية عمى فى عينك !

ولهذا لم يتح لفتحى أبدا أن يصلى بانتظام ، وكذلك لم يتح له أن يوفى الشرط الواجب للصوم . وكان يهمه جدا أن يصوم .. ولم يتحمل كل هذا العناء سدى .. كان يهمه أن يصوم ليستطيع أن يتناول السحور فلا يتناوله إلا الصائمون ..

وكان السحور عند فتحى تعادل لذائذه كل القصص التى قرأها والأفلام التى شاهدها ومرأى الأسود والقرود فى حديقة الحيوان .. وكل لذائذ أخرى موجودة فى العالم . ولم يكن قد أتيح له أن يحضر السحور أو يتناوله . كان يسمعه ..

فحين يعود بعد أن يكون قد شبع نطا وجريا وصراخا ولعبا مع غيره من أطفال الحارة — والظاهر أن رمضان يغير من عادات الكبار — فالكبار يودون للأطفال دائما أن يحيوا حياة مثل حياتهم .. حياة كلها جد وخطورة ، فهم لا يلعبون ولا يودون لهم اللعب ، وهم لا يستسيغون الصراخ والقفز ولا يودون للأطفال أن يقفزوا أو يصرخوا ، بل يريدونهم دائما أن يظلوا جالسين مؤدبين متزمتين مثلهم . وكان رمضان إذا جاء وأكل فيه الكبار وشربوا — ورمضان الذى هو شهر الصوم يأكل فيه الناس أكثر مما يأكلون فى أى شهر آخر — إذا أكلوا وشربوا ، تحدثوا وسهروا وتناقشوا وأصبحوا أكثر إنسانية ، فليس غريبا إذن أن يسمحوا للأطفال أيضا باللعب وبالبقاء خارج البيوت وقتا أطول .

كان فتحى يعود وقد استهلك كل طاقته الصغيرة من النشاط ، ومع

هذا .. ومع ما يكون فيه من تعب لا يأتيه النوم ، فبعد وقت قد يطول وقد لا يطول يبدأ السحور ، وحينئذ يرقد فى فراشه وكأن قد انتابته نوبة ملاريا خبيثة تؤرق جسده فينقلب إلى اليمين وسرعان ما يمل اليمين فيفتعل الحركة إلى اليسار ، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه ، وأذناه وعقله وانتباهه كله .. هناك .. فى الحجرة المجاورة حيث أبوه وأمه يتناولان السحور ..

كانا يبدآنه بصمت لا يسمع فيه إلا تثاؤب أبيه ، وأمه وهى تغمغم بآهات وتشكو من تعبها ومفاصلها ومن الجيران ومن قطط الجيران وكلابهم والعيش الذى جف . ثم كان أبوه يتطوع ويقول كم الساعة وقتها دون أن تسأله أمه ، ولا ريب أنه يفعل ذلك ليفتتح حديث السحور وما ألذ حديث السحور ..

كان أبوه هو الذى يتحدث فى الغالب ، وإذا تكلمت أمه تقول كلمات مقتضبة أو تعيد الشكاية من مفاصلها . وكان فتحى يحب أباه لحديثه ذاك حين يتكلم بصوت فيه تلك الرنة التى تصاحب صوت المستيقظ لتوه من النوم ، ويخرج كلامه إلى الظلام والسكون فيبللان ذلك الرنين ويحيلانه إلى نغمة حبيبة تنفذ إلى قلبه وتنغزه ، فيتمنى لو قام فى التو وعانقه وقبله ..

وحين يتحدث أبوه وفى فمه بقية من طعام .. ويمضغ قليلا ثم يتابع الحديث الذى تحيطه هالة موسيقية من أصوات الملاعق وهى ترن فى دقات معدنية هامسة ، كان حينئذ يتصور أن أباه ينطق شهدا ، ويستعذب الطعام الذى يمضغه دون أن يعرف ما هو حتى لو كان طعمية ، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه ويتمنى أن يقفز من الفراش ليكون قريبا من حديثه ونبراته ..

وحين كان الحديث يعرج على الأولاد — أى على فتحى وأخوته — كان يتمنى أن يتعثر بائع الزبادى الذى ينادى بصوته المزعج فى الخارج ويسقط فى حفرة فيسكت ، وأن يضرب جارهم امرأته التى تصرخ بصوتها الملسوع

ولا تتوقف ويأمرها بالسكوت ، وتصمت الدنيا كلها ليستطيع أن يسمع أباه وأمه وهما يتحدثان عنه . فأمامه فى النهار لم يكونا يتحدثان إلا ليلوماه أو يأمراه بإحضار شيء أو يشتماه ، أما حديثهما من ورائه — وهما معتقدان أنه نائم — فقد كان يود بحياته كلها أن يسمعه ، ويسمع المشاريع التى يدبرانها له . يقول أبوه : نشترى له بدلة كاملة للسنة الجايه ، ويدق قلب فتحي وكأن البدلة جاءت وارتداها . وتقول أمه : أحسن نوديه الزراعة المتوسطة يخلص بسرعة . ويغتاظ فتحي ويكاد فى مرقده يقول لا بأعلى صوته ، ولكن أباه يتولى الإجابة ويصر على دخوله الثانوى ، فيقول فتحي فى سره : يحميك يا أبى .

ويصبح حينئذ طرفا ثالثا فى الحديث ، طرفا بعيدا يسمع ويرضى ويفرح ويسخط ويثور ، وهو آمن أنه يستمع إلى الحقيقة المجردة ، وأن ما يقوله أبواه هو الذى سيقرر مصيره وليس الكلام المنمق الذى يسمعه فى النهار ..

ثم الكارثة .. حين يحس فتحي — وقد تربى له من أجل ذلك إحساس مخصوص — أن الطعام قد انتهى .. فيبدأ بطنه يمغص ولعابه يسيل ، حين تنساب إلى أذنيه أصوات أبويه وهما يغمغمان فى إبهام ، وتبدأ أصوات مضغهما تأخذ طابعا معينا يعرفه فتحي جيدا ، إذ فى هذه الأثناء يكون دور « الكنافة » أو « قمر الدين » أو باقى القائمة قد أتى ، ومع أن فتحي يكون عالما تماما أن سيناله من كل صنف نوب فى الصباح ، إنما فرق كبير بين أن يأكل الكنافة فى السحور هكذا والسكون شامل والدنيا ظلام والنور جميل ، وبين أن يأكلها فى وضوح الصبح وشمسه الكثيرة وذبابه وضجيج أخوته ومنازعاتهم .. فرق كبير ..

حين يبدأ السحور كانت تبدأ سعادات فتحي .. وكذلك تبدأ متاعبه ،

فإذا لم يعجبه الطعام ظل راقدا مستيقظا أسعد ما يكون برقدته واستيقاظه وسماعه حديث السحور ، أما إذا لم يعجبه الحديث وسخط على مشاريع المستقبل أو هفت نفسه إلى صنف من أصناف الطعام ، كان حينئذ لا يتحمل الرقاد فيقوم مدعيا الذهاب إلى دورة المياه مارا بالصالة ، وحريصا على أن يرى نفسه لوالديه فى ذهابه وإيابه ، وأن يريهم بالذات وجهه المتجهم الذى يكاد يبكى .. بل أحيانا كان يبكى ، وأحيانا كان يسأله أبوه عن سبب بكائه فيبكى أكثر ، فإذا ألحف أبوه ادعى بعد لأى أن عنده مغص مثلا أو أن برغاثا قرصه ، فإذا ضحك أبوه ازداد بكاؤه .. وكل همه أن يشعرهم أنه غاضب . وأحيانا كان يدعى أنه يحلم ويصرخ فيجرى عليه الوالدان ويمثل دور المستيقظ لتوه من كابوس تمثيلا — والحق يقال — رائعا ، حتى أن واحدا من والديه لم يشك أبدا فيه . وكان ما يضايقه جدا أنهما لم يفهما أبدا ولم يدعواه أبدا إلى مشاركتهما السحور أو حتى الجلوس والاستماع إلى الحديث .. كل مـا يقولانه .. نام يا خويا .. نام يا حبيبى .. اسم الله عليك .. وكلام مثل هذا من كلام الشبعانين المتحدثين المستمتعين ..

كان من الضرورى جدا أن يصوم فتحى ..

وظل ساخطا على الكبار وعلى أبيه بصفة خاصة ، حتى أجابه إلى مطلبه أخيرا .

جاءت ليلة النصف من شعبان وأنذرهم فتحى بأنه لا محالـة صائم ، فطبطب أبوه على كتفه وقال : إن شاء الله .

وافرح يا فتحى وأخبر كل الأولاد والقرايب والعمـات والخالات .. خلاص انتهى كل شىء وابتسمت الدنيا ، أجل سيصوم ! قال له أبوه هذا وانتزع التصريح من أمه .

وجاء رمضان ، وليلة أول سحور لم ينم بل حتى لم يخرج من البيت ليلعب مخافة أن يغافله أبواه وهو فى الخارج ويتسحرا . فإذا أصبح الصباح قالوا معلشى لقد فاتك السحور فلا ينبغى أن تصوم ..

وحين جلس الثلاثة فى النهاية هو وأبوه وأمه ، كان فتحى حريصا جدا ألا يحدث صوتا أو يسقط شيئا ، فقد كان خائفا خوف الموت أن يصحو أحد إخوته الصغار ويصر على السحور ، قائلا وهو يبكى بكاء سخيفا : اشمعنى فتحى ؟ .. ومن يدرى فقد يرق قلب الوالدين ويوافقان ؟ فتفسد الوحدانية التى يتمتع بها معهما ويفسد تعب السنين .

وحدث لأمر ما أن قام أخ من إخوته وعبر الصالة إلى دورة المياه ، فقال لأبيه : على فكرة .. دا قايم يتمحك وبس . أوعوا تسألوا عنه ..

ومهما كان ما حدث فى ذلك السحور .. وكان أول سحور فى رمضان ويزخر كالعادة بأطايب الأطعمة .. مهما كان ما حدث فإن فتحى لم يجد له ذلك البريق الذى أحرق خياله أياما وليالى ، بل ناله ما يناله دائما إذا وجد فى حضرة الكبار : هات دى .. ودّى دى .. ناولنى ده .. شوف إيه اللى بياكلنى فى ضهرى .

ونام فتحى ..

وصحا متأخرا ، بل استيقظ مبكرا ولكنه آثر أن يبقى متناوما حتى يغادر الفراش فى الضحى كما يفعل الكبار تماما .. صحا وفى عقله حقيقة واحدة : ألا يسهو ويشرب فقد حذره أبوه مرارا من هذا ..

وراح ينظر إلى إخوته وهم يحدثون بكلامهم وعبثهم ضجة الصباح الوجلة ، التى تكفيها شخطة واحدة لتنتهى .. راح ينظر إليهم ويستصغرهم ويستصغر ما يقومون به قائلا فى سره : لهم حق .. فهم فاطرون . ولكنهم

بدءوا يحلون لغزا كان واردا بإحدى المجلات .

ووضح من كلامهم أنهم يلفون بعيدا من الحل ، وكان لابد أن يقنعهم بأنهم صغار وأنه ذكى ولا بد أن يحله هو قبل أن يصل واحد منهم إلى حله .. فتخلى عن الفراش وقام ببطء وهو يحس أن شيئا كبيرا ثقيلا يملؤه ، وأن فى فمه طعما غريبا قابضا ..

وحين جلس معهم وحاول حل اللغز ففشل أدرك أنه لغز تافه لا يستحق اهتمامه ، بل بدا له أن كل ما يحدث فى العالم إن هى إلا أشياء تافهة لا تستحق عناء الجلوس . وعاد إلى النوم مرة أخرى .. عاد وهو مطمئن فهو فى إجازة ، ورمضان كان طيبا فجاء فى الصيف هذه المرة ..

واستيقظ فتحى لا لأنه كان يريد أن يستيقظ ، ولكن لأن شيئا أقوى منه أجبره على أن يتململ ثم ينتبه ويصحو . كان الطعم الذى فى فمه قد تغير وأصبح فمه جافا يكاد يكون لا طعم له ، وأحس لحظة أن فتح عينيه أنه عطشان . وفى الحال قام ووجهته الماء .. ولكنه توقف حين طردت الخطوات القليلة التى خطاها البقية الباقية من النوم فى رأسه ، وأدرك أنه صائم . وفرح وكأنه كان سيسقط فى حفرة ثم تبينها .. ولكن عجيب هذا .. إنه ما إن أدرك أنه صائم حتى ازداد عطشه .

وجلس على الكنبة التى فى الصالة .. كانت أمه فى المطبخ غارقة لأذنيها فى إعداد الطعام وأبوه فى الشغل وإخوته لا يبدو لهم أثر ، والساعة حوالى الثانية عشرة . وكان عليه أن يتخلص من ذلك الإحساس السخيف الذى يملأ فمه .

حاول أول الأمر أن يتخلص منه بتجاهله فذهب يبحث عن شىء يشغله ، وكان من زمان يريد أن يفك « المنبه » ويتفرج على « العدة » التى بداخله .. وأسرع يبحث عن معدات الفك ، ولكن مسمارا استعصى عليه ورفض أن

يدور إلى اليمين أو إلى اليسار ، فرمى المنبه . لم يكن يقصد أن يرميه وإنما وجد نفسه هكذا يدفعه مرة واحدة من فوق الترابيزة فيسقط وتتكسر زجاجته . وانحنى يلم الزجاج المكسور ويخفى الجريمة ويخفى المنبه هو الآخر ..

وهبط من المنزل بعد تجربته العقيمة تلك يبحث عن إخوته أو عن أطفال فى الحارة فلم يجد ، كلهم كانوا فى تلك الساعة الملعونة فى بيوتهم ، والحارة ليس فيها إلا الشمس الحارقة والتراب وما عليه من ذباب ..

وعاد إلى البيت وهو أكثر عطشا ، والضيق قد بلغ به حدا جعله يتمنى أن يقف موقفا من المواقف التى كانت تخذله فيها شجاعته ويتغلب عليه فيها حياؤه وخنوعه .. كان يتمنى أن يجابه موقفا كذاك ليرى الناس العين الحمراء ، والضيق من العطش قد طرد منه كل خنوع وحياء ..

وحاول أن ينام لما لم يجد موقفا ولا ناسا .. وباءت محاولته بفشل ذريع . وسرعان ما مج الفراش وفكر فى أن يجرى ويلف فى البيت ويكركب أشياء ثم ينظمها علّه يساهى الشعور بالعطش الذى كان يفرى نفسه ..

ولكن ما إن بدأ يتحرك ويلف حتى جلس على أقرب كرسى وقد أيقن أن كل حركة تزيده عطشا على عطش ، وأن نتيجة محاولاته لنسيان المشكلة أنها تعقدت وازدادت حدة وخطورة ، وأصبح فمه ينبح ويصرخ ويتلوى وكأنه تناول حفنة من الشطة واستشرت حرارتها تلهب كل جوارحه ..

وبدأ فتحى حينئذ يفكر .. بل هو فى الحقيقة بدأ يتململ من الصيام ويدرك وعورة الطريق الذى اختاره .. بل الذى تمناه وهفا إليه عدة رمضانات . بدأ يفكر ويقارن بين العذاب الذى هو فيه واللذة التى حظى بها ساعة السحور . والحق أنه لم يقارن ، فكل ما كان يشغله هو العذاب .. وكل ما كان يبحث عنه هو المهرب ..

كان من لحظات قد سمع الراديو يدق عند جيراتهم معلنا الواحدة ، أى باق من الزمن خمس ساعات حتى يستطيع أن يشرب .. خمس ساعات ؟ يا للهول .. خمسة فى صفر بصفر وخمسة فى ستة بثلاثين ومعانا صفر .. يعنى ٣٠٠٠ دقيقة . لا يمكن ! لا يمكنه أبدا أن يستمر حيا يعانى ما يعانيه ٣٠٠ دقيقة . ٣٠٠٠ يبدو أن هناك خطأ . لا . هناك صفران فقط . يعنى ٣٠٠ دقيقة ولو .. لايمكنه أبدا أن يمكث ولا حتى ٣٠٠ ثانية . اسمع يا ولا يا فتحى .. خليك جدع .. واصبر وصابر .. وتحمل الألم حتى يحين موعد الإفطار وتشرب ثم تسترخى كما يفعل أبوك والصائمون ، وتتحدث عن العطش الذى لازمك من أول النهار وتبالغ فى وصف أهواله .. آه .. يجب أن يحتمل .. خصوصا وأنه سمع شيخا من الذين يكثرون من زيارتهم فى رمضان يقول : إن الجزاء يزداد بمقدار ما يتحمله الصائم من ألم .. هه .. يعنى إيه ؟ سيتحمل ولن يهمه .. كلها كم ساعة وينتهى .. كم ساعة ؟! ٣٠٠ دقيقة . يعنى واحد اثنين تلاته .. عشرة عشرين .. ثلاثين .. مضت دقيقة .. يا نهار أبيض .. باقى ٢٩٩ مرة مثل هذه .. لا لا لا .. لن يستطيع التحمل ! سيموت ، ويستشهد ، ويذهب إلى الجنة حدف ، والجنة فيها ماء .. ياللهول ! ليس فيها ماء .. لقد سمع أن فيها أنهارا من الخمر واللبن والعسل .. أف .. أعوذ بالله .. إنه لا يطيق ذكر العسل فهو يعطش .. إنهار عسل ولبن ، ولكن ليس فيها ماء . وإذا عطش عطشا مثل هذا فى الجنة فكيف يشرب ؟ وهل يرتوى من اللبن ؟ .. اللبن الأبيض السميك الذى .. أعوذ بالله .. إخص .. ما هذه الخواطر ؟ إنه الشيطان .. لابد أنه الشيطان يوسوس فى صدره . ابعد أيها المتجوس لن أسمع كلامك .. أبدا .. أبدا أنت تدلنى على الفساد .. لن أسمع كلامك ..

وسمع فتحى فى تلك اللحظة — رغم ضجة الوابور — الحنفية مفتوحة فى

المطبخ والماء يندفع منها كركر كركر .. لا ريب أن الشيطان هو الذى فتحها أو وسوس لأمه حتى فتحتها .. سحقا لك أيها اللعين ! والله لو حتى صببت الماء فى فمى لن أشرب .

وضم فتحى فمه بشدة وكأن هناك ماء حقيقيا سيدخله ، وظل على وضعه ذاك مدة وقد خيل إليه أنه إذا فتح فمه فسيفطر لا محالة ..

ولكن الشطة استعرت حرارتها داخل فمه المضموم ، وكان حلقه قد أصبح جرحا كبيرا مليء بها وأشعلت فيه نارا وألما . وحاول أن يبتلع ريقه ومصمص ودار بلسانه داخل فمه كله محاولا عبثا أن يجد نقطة بلل واحدة .. وكان الماء لا يزال يهطل بشدة من الحنفية ويدخل أذنه حتى خيل إليه أنه يشرب الصوت من خلال أذنه ، فسد أذنيه ومع هذا ظل خرير الماء — أو إبليس — يخترق أصابعه ويداعب آذانه ..

وطوف خاطر فى عقله وحوم .. إنه لن يفطر قطعا ولكن ماذا يفعل بذلك العطش ؟ إنه يذكر أن ذات الشيخ قال إن المضمضة ليست حراما فلماذا لا يتمضمض ؟ وكان ما يخيف فتحى هو أن يتسرب بعض الماء إلى بطنه إن هو حاول ذلك ، ولكن إلحاح الخاطر أقنعه أنه لابد أن يثق فى نفسه . وقام وذهب إلى نفس الحنفية اللعينة التى أرهقت أعصابه ووقف يردد النظر بين أمه وهى منهمكة فى إعداد الطعام وبين الحنفية ، ثم مد يده وملأها من السيل المنهمر . ورأته أمه وهو يدفع الماء إلى فمه فشهقت شهقة عظمى وسألته عما يفعله ؟ فأجابها بأن ريقه جاف وأنه فقط يبلل فمه . فابتسمت ابتسامة من يشمت وقالت : مش قلتلك ؟ .. عامل لى راجل .. أما أشوف ..

واغتاظ فتحى جدا فأفرغ كل مافى فمه من ماء وراح يصق بشدة حتى أتى على كل ما أحدثه الماء من بلل وريق ، وعاد إلى حيث كان فى الصالة وفى

صدره تصميم مانع قاطع أن يثبت لأمه ولكل الناس أنه رجل .. وأنه قادر على الصوم مثلهم وليكن بعد ذلك ما يكون ..

ولكن المضمضمة التى لم تتم أججت فقط كل النار التى فى جوفه ، وجعلت العطش يمتد داخل زوره إلى بطنه حتى بدأ يحس أن عامودا من نار وفلفل يحشو رقبته ويملأ فم معدته ..

لو يشرب مرة واحدة فقط لسكت هذا النباح واستطاع أن يواصل الصيام إلى منتصف الليل إن شاءوا ، ولكن الشرب معناه أن يفطر ولا يدعه أحد يتناول السحور بعد الآن وتسقط رجولته فى أعين والديه ، ويعدونه طفلا فاطرا مثل إخوته الفاطرين ..

ولكن هل من الضرورى أن يعلم الناس أنه شرب هذه المرة ؟ ماذا لو شرب خفية دون أن يراه أحد ، ثم أمضى بقية اليوم فى صيام ما بعده من صيام وسمح لنفسه حتى أن يشكو مما لاقاه من ظمأ بعد الإفطار ؟ ماذا لو حدث هذا ؟ إنه لن يفقد شيئا بالمرة ولن يعيره أحد بما فعل إذ إن أحدا لن يراه ، فهناك فى الصالة قلة ماء لا تزال فيها بقايا من ساعة السحور ، سيأخذها ويذهب إلى حجرة الجلوس ويغلق الباب ويفرغها فى فمه بأسرع ما يستطيع ، ثم يفتح الباب ويتأكد من خلو الصالة ويضع القلة فى مكانها ، ويلعب بعد هذا أو ينام ويمرح بقية اليوم ..

ولكن .. رمضان !!

إن رمضان سيعرف لأنه يرى الناس ولا يرونه . ويعرف إن كانوا يقطرون أولا يفطرون ...

وارتسم رمضان فى عقل فتحى هائلا فى حجم الدنيا كلها .. يجلس على عرش من ذهب وألماظ .. بعيدا .. بعيدا خلف الشمس ووراء كل النجوم

والسحب .. يعرف دون أن ينظر من الفاطر ومن الصائم .. ويطح الفاطر .. يلقى عليه حجرا يصيب منتصف جبهته ويسيل الدم .

وارتعش فتحى للرؤيا .. وأفاق منها قليلا وحاول أن يتذكر واحدا فقط يعرفه بطحه رمضان لأنه فطر فلم يجد .. ولكن من يدرى ربما يكون هو أول واحد ستناله البطحة .

وسأل نفسه سؤالا مفاجئا .. ألا يمكن أن تكون حكاية رمضان هذه كذبه وأنه لا يرى ولا يبطح ولا هو حتى موجود بالمرة ؟ لم يدر فتحى من أين جاءه السؤال .. لعله الظمأ .. ولكنه ظل حائرا بين الخوف الذى يدفعه إلى أن تكون الإجابة لا والظمأ الذى يهيب به أن يكون الجواب نعم ، ظل حائرا إلى أن عنت له فكرة : سيعد إلى ثلاثة ثم يحاول رفع ذراعه ، فإذا كان رمضان لا يريده أن يرفعها فليمنعه .. وعد .. واحد .. اتنين .. تلاتة .. وحشد كل قوته وقد خيل إليه أول الأمر أنه مهما حاول فلن تتحرك . وقفزت الذراع فجأة من جانبه فى الهواء . وملأه الرعب ولكن بعد أن اطمأن قليلا وبدأت الثقة تأخذ طريقها إلى نفسه ، رأى أن يجرب تجربة جديدة فوقف وقال : سأمد رجلى وأخطو ، فإذا كان رمضان يرانى ويستطيع منعى فليمنعنى . ومد رجله فامتدت ، وخطا خطوة وثانية وثالثة وكاد ألا يتوقف ، وازدادت فى نفسه الثقة وقلت الرهبة ، بل انتابه غير قليل من الاستخفاف برمضان ومحاولة تحديه ، ورأى أن يتحداه أكثر ليبين قوته إن كانت له قوة ، ويجرب تجربة أخيرة .. واخذ القلة إلى حجرة الجلوس وقال سأتذوق قطرة واحدة من الماء ، فإذا كان رمضان يستطيع أن يكسر القلة قبل أن تصل إلى فمى أو أن يقطع لسانى إن كان جدعا فليفعل .

ومع امتلائه بالثقة والتحدى فقد رفع القلة فى وجل وهو يحملق فى

انبعاجها وكأنه يتوقع فى كل لحظة أن تنفجر .. ولم تحدث الكارثة وأيقن حينئذ أن رمضان وحجارته وبطحاته لابد خرافة وأفرغ كل ما تحتويه القلة من ماء فى جوفه .. وكان يتوقف ليتلذذ بطعم الماء ويتساءل كيف لم يفطن أن للماء طعما من قبل ، بل وطعم حلو ساحر لم يتذوق مثله أبدا .

ورجع إلى جلسته فى الصالة ينتقم من الوقت الطويل الذى أمضاه فى لهيب العطش بوقت طويل آخر يمضيه فى نعيم الرى . ولكن شعورا بالانقباض بدأ ينتابه . كان هينا أول الأمر ولكنه ما لبث أن ثقل وتعمق . أحس بشىء يهبش صدره ويخيفه ويرهبه .. ولم يكن خوفه كخوفه من العفاريت أو الجن أو أبو رجل مسلوخة وإنما كان يحس بأنه خائف من شىء داخله ، وكأنه يخاف من نفسه ..

ولم يسكت ذلك الإحساس بل راح يدب ويتسلل إلى عقله ويملك عليه كل تفكيره . وأيقن أن لا بد أن تحدث كارثة ، لابد أن رمضان سينتقم منه ويجازيه .. فمن غير المعقول أن ينال متعة الشرب بعد الظمأ هكذا وبدون ثمن . وكان مستعدا أن يتقبل أى عذاب أو أية مصيبة ، فقط لو كان يعرف نوعها أو ما هى . أجل ، إذا كان رمضان لم يفعل شيئا قبل الشرب فلابد أنه فاعله بعده . ولكن متى ؟ وكيف ؟ ذلك هو ما يخيفه . هل يبطحه ؟ هل سينتقم منه بأن يجعله يرسب فى الامتحان ؟ هل تقع فوق رأسه الصخرة المعلقة بين السماء والأرض والتى كثيرا ما حدثته عنها جدته وقالت إنها صعدت وراء النبى ؟ هل يمرض أخوه ويموت ؟ ..

وتوقع أن تحل الكارثة فى العصر .. ولما لم تحل قال بعد المغرب .. ومضى المغرب والعشاء ، وقبل أن ينام ضربه أبوه علقة ، وقال فتحى : بس .. هذا هو عقاب رمضان . ولكنه فطن حين رقد يبكى فى فراشه إلى أن أباه ضربه

لأنه كسر زجاجة المنبه وليس من أجل إفطاره ، وبالتالى لم يكن ما حل به هو العقاب المتوقع .

وانتظر فتحى أن تحل المصيبة فى الأيام التالية ولكنها لم تحل ، حتى بعد أن تكرر ظمؤه وتكرر شربه خفية ..

لم تحل إلا حينما ضبطته أمه وهو يشرب ذات يوم . وبعد أن انجابت لحظة مفاجأته وانتهت من تأنيبه وتعنيفه فرح فتحى فى قرارة نفسه لأنهم سوف يقولون إنه لا يستحق الصيام ويجعلونه يفطر ، ويستطيع بعد هذا أن يشرب ويأكل دون عقاب أو وجل . ولكن المصيبة الكبرى أنهم هذه المرة قالوا إنه باظ .. وضربوه علقة ، وأرغموه على الصوم بالقوة ، وراقبوا التنفيذ بدقة .

واضطر فتحى أن يصوم بعد هذا ويواظب على الصيام لا خوفا من رمضان وبطحاته ، ولكن خوفا من أهله الذين لا يفيد معهم رفع ذراع أو إجراء تجارب ، إذ هم يعرفون كل شىء إن آجلا أو عاجلا ، وهم الذين يتولون بأنفسهم العقاب ، ويضربون العلق ويبطحون ولا يرحمون ..

قصة حب

١

ليست أول محطة ترام فى شبرا البلد بداية خط فقط ، ولكنها قبل هذا مركز تفاعل مستمر بين القاهرة وضواحيها وبين المدينة والمصانع الكثيرة المبعثرة حولها . تجد عليها الفلاحين القادمين إلى مصر وقد أخذتهم رهبة المدينة مبهورين بطنين الحركة الزائدة والدنيا الجديدة ، وتجد العمال الزاهدين فى تلك الحركة الحاقدين على المدينة ولا يجدون منها خلاصا .

وتجد ، فى ذلك اليوم من يناير ، حمزة واقفا كعادته ينتظر الترام الذى يترك الصف الطويل من العربات المكدسة فى أول الخط ويأخذ طريقه إلى « العتبة » .. ينتظر وهو يتنفس بارتياح فتلك المحطة كانت أيضا مركز تفاعل مستمر بين الحياة الخانقة التى يحياها فى الصباح فى المعاطف البيض وأحواض الصبغة وأنابيب الاختبار ، وبين الحياة الرحبة والواسعة التى كانت تبدأ حين يضع قدمه على رصيف المحطة ..

كان واقفا وقد أغمض عينيه قليلا خلف نظارته ليستطيع الرؤية بوضوح ، وكان يرقب الناس ويتململ قلقا ، وكانت الوجوه التى تقع عيناه عليها جادة صارمة يخيل إليه أن بريقها شرر رغبات كامنه تتحرر ، وانطلاق ثورة ، وعندما كانت تتناهى إليه الأصوات كان يحسبها دائما حفيف مظاهرات أو جئير إضرابات ، ورغم البرودة والغيوم التى تحجب وجه الشمس فالدنيا كلها كان لها رائحة .. رائحة خاصة ينتفض لها الجسد كرائحة فوهة بندقية

حديثة الإطلاق ..

واندفع ترام من أول العربات بادئا رحلته الطويلة .. وبالكاد قفز إليه حمزة واحتل مكانا بين الناس الكثيرين الواقفين وما انتهى الكمسارى من بيع التذاكر حتى كان الناس قد تآلفوا تماما ورفعت من بينهم أحجبة التحفظ والغربة .. واستمع حمزة إلى أحاديثهم وهو يرهف آذانه .. لا مشادات ولا اعتذارات أو نكات .. الإنجليز .. الإنجليز .. والكتايب والفدائيين وكفر عبده والدبابات .. أرسكين والعساكر المصريين .. أربعة إنجليز اتقتلوا .. محطة الميه اتنسفت .. ليهم يوم ولاد الكلب .. والله لنطلعهم من مصر بزفة .. لو فيه سلاح .. لازم السلاح .. نجيبه منين ؟ منين ؟ م الدنيا الواسعة .. بس لو كانوا يطلعوا لنا واحد لواحد ! ..

وجاءت محطة حمزة بعد ثلاث محطات من بداية الخط فى منتصف المسافة بين القاهرة وشبرا البلد .. وحين هبط لم تكن هناك منازل ولا عمارات .. مساحات واسعة من الأرض المخضرة وأعمدة تليفون وعشش مصنوعة من الصفيح وأكوام هائلة من القمامة ..

ومشى قليلا فى أرض مهجورة حتى وصل إلى المكان الممهد الذى نصبت فيه خيمة ، وصنعت فى طرف منه « تبة » ضرب نار ، وأقيمت فى الطرف الآخر موانع من الخشب أمامها خندق محفور . وعند الخيمة وجد أيضا اليافطة المكتوب عليها بخط صغير : اللجنة العامة للكفاح المسلح ، وأسفلها وبخط كبير : معسكر تدريب شبرا . ووجد اليافطة معوجة فعدلها .. وأشار بيده محييا ورد تحيته شاب أسمر ضخم يرتدى بنطلونا طويلا أصفر وفانلة لها رقبة وأكمام .. وكان الشاب قد رآه قادما فغادر جلسته على التبة وأقبل ناحيته ، وسلم عليه حمزة ثم دخلا إلى الخيمة يحتميان من الزمهرير ، وجلس حمزة على

صندوق له مقابض على جانبيه وجلس الشاب على الأرض بجواره . وفرك حمزة كفيه ليدفئهما ونفخ فى يديه دون جدوى فقال وأسنانه تصطك :

ـ الدنيا برد ..

ـ أوى ..

ـ يا سلام على كباية شاى يا حسن !

ـ عاوز تشرب شى ؟ .

ـ يا سلام يابو على ..

ـ شى .. نعملولك شى ..

ومضى الشاب إلى وابور غاز برجلين اتنين ، وكوز صفيح وإبريق فخار كبير مملوء بالماء وعلبة فيها سكر ، وأخرج من جيب بنطلونه باكو شاى نصف أوقية .. وبينما كان يشعل الوابور سأله حمزة :

ـ حدش جه ؟ .

ـ ولا نفاخ النار ..

ـ فيه واحد كان مواعدنى الساعة اتنين ودلوقتى وربع .. ما جاش يا حسن ؟

ـ ما جاش ..

ـ غريبة ..

ـ ما غريب إلا الشيطان ..

ثم نظر إليه الشاب وابتسم وأضاف :

ـ أنا موش مصدق ..

ـ إيه يا حسن ؟

ـ إن حنعملو معسكر تدريب ..

ـــ ليه يابو على ؟.

ـــ مش باين ..

ـــ بكره يبان فاهمنى إزاى ..

وهب الوابور وملأ الخيمة لهبا ودخانا وكاد يأتى على سقفها ، فسب الشاب « ديك » الوابور وأصحابه ، وبعد أن هدأت العاصفة قال لحمزة :

ـــ تحبه تقبل ؟

ـــ لأ .. نص نص ..

ـــ بس يا أستاذ حمزة شوية السلاح اللى عندنا دول كرب قوى .. دول ما ينفعوش ببصلة .

ـــ متخفش .. البرتّا عندك .. وريهالى .

ـــ ليه ؟

ـــ وريهالى بس .

وقام الشاب إلى صندوق آخر وفتح قفله وأخرج « برتّا » لها ما سورة تلمع .. وتناولها حمزة وتفحصها وأغمض عينا ونظر فى ماسورتها بالعين الأخرى وهو يغمغم :

ـــ مليانه وساخة .. ادينى شوية جاز وحتة اسطبة .. دى طليانى .. خدوها الإنجليز من الطلينه .. واحنا خدناها من الإنجليز ..

وغادر الصندوق الجالس فوقه ، ورفع غطاءه وعسعس حتى وجد « مفك » ، وأغلق الصندوق وجلس ومضى يعبث بمسامير « البرتّا » ويفكها ..

وتناهى إلى سمعهما صوت حركة فى الخارج ، فرفع الشاب الأسمر طرف الخيمة ونظر وقال وهو لا يزال ينظر :

ــ أما غريبة ! إيه اللى جاب الناس دو لم هنا ؟

ــ مين يا حسن ؟ ..

قالها حمزة وهو منهمك فى فك مسمار عاص ، فعاد الشاب يقول :

ــ واحد أفندى وواحدة ست ..

ــ فين يابو على ؟

ــ جنب الخيمة ..

قالها الشاب الضخم ثم رفع صوته من خلال الفتحة :

ــ عاوز إيه يا فندى ؟

فرد صوت أخنف قليلا :

ــ حمزة فين ؟ ..

فرد حمزة وهو لا يزال مشغولا :

ــ دا لازم سعد .. تعال يا سعد .. خش ..

ودخل سعد .. عصبى وأصفر وقصير ، ويرتدى بلوفر من الجلد ومنظارا أسود واندفع يقول :

ــ إيه ده ؟ ساعة أدور انت فين . علق يافطه يا أخى . ارفع علم على الخيمة لما تكون فيها . صباح الخير .

فرد حمزة :

ــ صباح الخير .. اقعد يا سعد ..

ــ مش قاعد .. معايا ناس .. شغل . عشان تقوللى مابتشتغلش .. كفاح لا يهدأ . تعالى ياآنسة فوزية .. اتفضلى .. خشى ماتخافيش . بنى ادمين والله اللى هنا .

ومن باب الخيمة الصغير انحنت فتاة داخلة ، ووقفت عند الباب حائرة

مترددة تحدق فى حمزة و « البرتّا » التى أصبحت إجزاء سوداء بين يديه ، وفى الشاب الآخر الذى كان واقفا فى منتصف الخيمة بفانلته الصوف الزرقاء ذات الرقبة الطويلة كمارد خرج لتوه من قمقم ..

ورفع حمزة بصره ونظر إليها .. كانت متوسطة الطول مثله وأكثر منه نحافة ، لها وجه صغير أبيض وشفتان شديدتا الحمرة وشعر غزير ، وكانت ترتدى معطفا « بيج » ورغم هذا كانت ترتجف من البرد وفى وجهها شحوب وارتعاش ، ورغم ارتجافها كانت فى عينيها لمعات دفء ونشاط زائدين . وأحدث دخولها حركة فى الخيمة .. قام حمزة من فوره وأفسح لها مكانا فوق الصندوق ومد يده ليصافحها ، وحين وجدها تنضح بالجاز وسواد الصدأ مد لها ذراعه ، وأحس بأصابعها وهى تلتف حول ذراعه باردة كالثلج ، ولكن قبضتها على غير ما توقع كانت قوية ..

وقبل أن يعود الهدوء قال سعد بكلماته المتقطعة السريعة :

ــ أهو ده الأستاذ حمزة يا ستى عضو اللجنة المسئول عن معسكر التدريب ..

فقالت بلا وجل : أهلا وسهلا ..

وأردف سعد بسرعة :

ــ ودى يا سيدى الآنسة فوزية سكرتيرة لجنة المدرسات للمقاومة الشعبية ..

وتغيرت نظرات حمزة فى الحال وصافحها مرة أخرى ، وهذه المرة بيده التى كان قد نظفها .

وأضاف سعد :

ــ دول لهم كفاح مدهش .. زى ما انت عارف كنا بنلم تبرعات ورحت

أجمع من المدرسة بتاعتهم فى المنيرة فتعرفت بيها . ولقيت أن المسألة أكثر من كده .. وأصرت على إنها توصل للجنة حالا . قلت أجيبها لك .. مش كويس .. هنيني بقى .

وكان حمزة ينظر إليه وهو لا يدرى أيثنى عليه أم يوبخه ، فقد كان من الضرورى أن يحدثه بهذا قبل أن يفاجئه بها على تلك الصورة . وقبل أن يقرر ماذا يفعله كان الشاى قد أعد وصبه الشاب الضخم فى ثلاث كوبات من الزجاج الرخيص الأزرق ذى القاعدة السميكة ، وصب البقية فى كوز صفيح كان يغطى فوهة الإبريق ، وقال لفوزية بصوته الغليظ وهو يمد لها يده بكوب :

ــ خدى .. لحسن دا انتى نازله رجف الأرا ..

ورغم هذا فقد تناولتها منه فوزية وأحاطت الكوب بيديها .. وأصر سعد على أن يشرب هو الشاى الذى فى الكوز ، ولم تفلح المحاولات التى بذلت ليقلع عن إصراره ..

وحفلت الخيمة بأصوات رشف الشاى الذى كان يتصاعد بخاره من الكوبات ومن أفواههم ، ويشيع فيهم نشوة دفء طارئة فى يوم له برودة الرصاص ..

وكان حمزة طول الوقت يختلس نظرات خفية إلى فوزية .. كانت تلك تكاد تكون أول مرة يجمعه العمل مع فتاة ، وفى أعماق نفسه لم يكن يثق بالفتيات ولا بما يمكن أن يقمن به وإن كان يردد دائما أن لا فرق بين الرجل والمرأة ، وأن لها مثل ما له من حقوق .. وصحيح كيف يمكن لفتاة ترتجف من البرد هى ومعطفها هكذا .. ولها رفع كهذا أن تخوض معركة مثل التى يخوضونها وتقف معه جنبا إلى جنب ؟ .

وقال سعد :

ــ كويس خالص مجهودكو .. حاجة عظيمة .. انتو عملتو الخشب اللى بره ده إمتى ؟!

ــ امبارح .

ــ كويس جدا عظيم خالص . وحيبتدى التدريب إمتى ؟ .

ــ بكره ..

ــ دا شىء غريب ! دا شىء عظيم ! مدهش ! بكره بكره ؟

ــ أيوه ..

ــ عال جدا ، دى حاجة تستاهل التهنئة .. دى عايزة حفلة وأن شاء الله كده حتبدو بميت واحد .. لازم على الأقل ميه .

ــ حنبتدى بعشرة ..

ــ شوية جدا .. قليل قوى .. شوية خالص .. إيه ده ؟

ــ كويسين .. انت اتأخرت ليه ؟ مش كان معادك اتنين ؟

ــ أبدا . أبدا أبدا .. كان اتنين ونص . أقسم بشرفى كان اتنين ونص . لا لا لا أنا فى مسألة المواعيد دى دقيق .. دقيق جدا .. اتنين ونص يعنى اتنين ونص . اقسم بشرفى كان اتنين ونص . انا دقيق فى مسألة المواعيد دى بالذات ..

ــ كان معادك اتنين .. وبلاش حكاية شرفك دى فاهمنى ازاى ؟ .. ياللا بينا ..

قالها حمزة وهو يقوم ، وخرج الجميع والشاى يشيع فيهم الثقة لمواجهة البرد .. الفضاء ساكن سكونا مذهلا والبقعة جرداء .. والسماء ملبدة بالسحب وكأنها توشك أن تمطر .. وهناك على مرمى البصر القاهرة فى سمائها

غبرة رمادية ، ومنازلها تبدو مكدسة لا تشذ منها سوى عمارات قليلة ومآذن تظهر من بعيد وكأنها مداخن مصنع مهجور كبير ، والأرض الواقفون فوقها رخوة تكاد تنوء بالأرجل ، وهواء خفيف أصفر يهب فى حدة ويداعب القش الكثير الذى يغطى وجه الأرض فتطير له قشاشات وتخرفش له الباقيات .

وسألت فوزية :

ــ هو ده المعسكر ؟

فرد حمزة وهو ينظر إليها ويتأمل أنفها الصغير الذى احمرت قمته المدببة من البرد :

ــ آه ..

ــ وفيه متطوعين كتير ؟

ــ مش كتير إنما كل يوم بيكتروا ، بكره دى كلها حتملى طوابير وتمرينات ..

ــ ومين اللى حيدرب ؟

ــ ضباط متطوعين .

ــ منين ؟

ــ من الجيش ..

ــ بس ده إيه ؟ .. بتصريح ؟ ..

ــ هو فيه حاجة اسمها تصاريح !

ــ يعنى الحكومة تسكت ؟

ــ هو فيه حكومة ؟

ــ الله ! .. طبعا ! .. أمال مين اللى بيحكم ؟ ..

ــ إحنا .. إحنا اللى بنحكم ! .. الشعب ..

وحملقت فيه فوزية برهة وكأنها لا تصدق ..

وكان سعد فى هذه الأثناء قد تركهم وراح يقفز من فوق الموانع الخشبية ويتفرج على الخندق ، وينام على بطنه عند تبة ضرب النار ممسكا ببندقية وهمية ، فقالت فوزية :

ــ أما غريبة قوى سعد .. شوف بيعمل إيه ؟..

ــ آه .. هو متحمس ..

ثم سكت هنيهة وقال :

ــ ألا قولى لى يا آنسة فتحية .. انتو اديتو سعد تبرعات ؟

ــ أصدك فوزية .. أنا اسمى فوزية ..

واحمرت أذنا حمزة احمرارا شديدا وتلعثم كيانه ..

وأضافت فوزية :

ــ بس أنا جاية مخصوص علشان أعمل علاقة مباشرة مع لجنتكم ، لأن هدف لجنتنا الأساسى هو خدمة الكفاح المسلح ..

وقال حمزة باهتمام وبحرص وهو لا يزال يؤنب نفسه :

ــ كويس أوى ..

ــ واحنا كنا لمينا شوية فلوس عشان نشترى بيهم إسعافات طبيـة للفدائيين ، إنما الظاهر انكو أنتم فى حاجة أكثر للفلوس دى .

ــ الحقيقة إن احنا دايما فى حاجة لفلوس ..

ــ طيب ممكن اقابلك بكره وأد يهملك ..

ــ ممكن جدا ..

ــ فين ؟ ..

ــ أيوه يا ستى ..

وأخرج حمزة مفكرة صغيرة من جيبه قلب أوراقها ، ثم رفع رأسه ولمعت نظارته بشعاع من أشعة الشمس استطاع اقتحام السحاب والنفاذ من بينه ، وقال :

ـــ تقدرى تيجى هنا ؟

وفكرت فوزية لحظة ثم قالت :

ـــ الساعة أربعة ؟

ـــ يناسبنى جدا .

ثم رفع حمزة صوته ونادى على سعد وانتحى به مكانا وظلا يتهامسان فترة ، ثم شد على يده مودعا وكذلك فعلت فوزية ، ولاحظ حمزة أنها تسلم بقوة غريبة على بنات جنسها وكأنها صديق قديم ..

وكان آخر ما رآه منها ابتسامة ، وحزام معطفها المفكوك والهواء يجذبه وراءها ويعبث به ..

وعاد حمزة إلى مجلسه فى الخيمة ، وإلى « البرتّا » وقطعة القماش والجاز ، وكان أحيانا يهز رأسه ويقول : غريبة ! ، فيسأله الشاب الضخم .. هى إيه اللى غريبة ؟! فيقول حمزة تائها : ولا حاجة ..

٢

وفى الرابعة من اليوم التالى كان المعسكر قد دبت فيه حياة عشرة شبان يرتدون ملابس التدريب ، وتهتز الأرض تحت أقدامهم وهم يروحون ويجيئون صفوفا ، وبين الحين والحين تتصاعد صرخات معلمهم آمرة . وكان حمزة فى قلب الخيمة ومعه الشاب الضخم ممسكا كل منهما بفأس وهو يحفر ويعمق إذا كان العمق غير كاف .

ورفع حمزة رأسه يقذف بالتراب اللين مرة فرآها ، وهنا فقط تذكر أن ميعاده معها قد حان وأحسن بنوع من الفرحة وهو يرى شبحها قادما من بعيد ، وانتظر حتى اقتربت فغادر قاع الخندق ومضى إليها وهو ينوء بحذائه الذى كان محملا بما لا يطيق من الطين اليابس ، حتى لم يجد بدا آخر الأمر من خلعه ..

وشدت فوزية على يده بنفس طريقتها القوية المتحمسة .. وهى تكاد تضحك على بنطلونه الذى شمره وقميصه المزدان بنياشين لا عدد لها من الوحل وجوربه الذى تطل منه أصابع قدميه متحدية البرد والأناقة ..

وأخذها بعيدا عن المعسكر ، وقد وجد الطابور الصغير من الشبان يلخبط ويسهو ويتغامز خفية حين رآها ..

وقبل أن يبدأ أى حديث فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها قبضة جنيهات ناولتها له قائلة :

ـــ سبعة وعشرين جنيه ونص ..

ثم أضافت مبتسمة :

ـــ دفعة أولى ..

وأحس حمزة بفرح حقيقى .. سبعة وعشرون جنيها .. بندقيتين « لى أنفليد » وكذا طلقة ، وقال وهو يعيد ترتيب النقود :

ـــ برافو والله ..

ودعاها للجلوس بجواره على الأرض وفعلت هذا دون تردد ، وانطلقت تحدثه عن لجنتها وعن نفسها حين طلب منها هذا .. مدرسة فى مدرسة المنيرة .. قرأت كثيرا وفهمت كثيرا ولكن لم يكن لها أى نشاط ، فحين جاءت معركة القنال اندفعت من نفسها تناقش الأمر مع زميلاتها المدرسات وتم النقاش إلى تكوين اللجنة ..

وكان حمزة يهز رأسه ويحثها على المضى بإيماءاته ، ولدى كل كلمة يكاد ينظر إليها من جديد ويحاول أن يقنع نفسه أن المرأة ممكن فعلا أن تقوم بعمل ..

وقبل أن يصافحها مودعا قال لها وهو يقلب مفكرته :

ـــ يوم الأربع زى النهارده حكون من بعد الساعة سابعة فى مصر الجديدة على طول ، فممكن نتقابل هناك علشان ننسق الإتصال ..

ففكرت لحظة ثم قالت :

ـــ ولو أن يوم الأربع عندى ست حصص إنما حاجى ..

ـــ الساعة تسعة جنب قصر البارون امبان .. ممكن ؟

ـــ ممكن ..

ـــ وإذا حصل ومقدرناش نتقابل .. عارفه تعملى إيه ؟

ـــ إيه ؟ ..

ـــ يبقى نفس المكان والزمان بس الأسبوع اللى بعده .. فاهمانى إزاى ؟ .

وكان هو الذى شد على يدها بقوة هذه المرة حتى كاد يخلعها .

ومضت ..

ووجد حمزة نفسه تمضى وراءها وتفكر فيها .. فى حجمها الصغير الدائب الحركة وكأن ثمة مولد خفى يغذيها بطاقة لا تنفد من نشاط ، وانفعالاتها السريعة التى تتلاحق على وجهها واستجاباتها السريعة لانفعالاته ، يضحك فتكاد تضحك ملامحها ، ويأسف فيقرأ الأسف بوضوح فى وجهها ، ودائما وهو يحدق فيها يعجب من الإحساس الذى يتملكه .. الإحساس بأنه قوى قوة لا حد لها وأنه ممكن أن يصنع معجزات ، ثم ملامحها الدقيقة الأنيقة التى فى كل دقيقة منها وسامة وأمل . إنها حقيقة تبدو كصبية صغيرة لا ينقصها إلا المريلة لتصبح تلميذة بإحدى المدارس .

وكاد حمزة ألا يتوقف عن التفكير فيها لولا أنه نهر نفسه بشدة ، وعاد يغوص فى قاع الخندق ويشذب حوافه ..

٣

فى مساء اليوم التالى كان حمزة جالسا على إحدى قهاوى « القرين » بمديرية الشرقية .. قهوة فى وسط القرية تطل على ميدان جاء صدفة فى وسط البيوت و لم يقصد به أن يكون ميدانا .

و كانت القرين أيامها تحيا على أخبار المعارك التى تدور وقصص البطولات واستعداد الإنجليز .. وتتحفز لضرباتهم . وكان حمزة قد انتهى من الاتفاق على صفقة سلاح .. ثلاثة رشاشات وخمسة مسدسات وصندوق ذخيرة .. يتم تسليمها فى القاهرة فى صباح باكر من أحد مقبل ..

والمساء فى قرية كتلك كان شيئا جديدا على حمزة .. « كلوبات » شاحبة قليلة .. ومصابيح غاز بزجاجات وبلا زجاجات .. وأناس رائحون وغادون يأتون من ظلام شارع ويختفون فى ظلام آخر .. وحركة بطيئة ميتة ، وبهائم سارحة وبهائم راجعة ، وبلد لا يمكن أن يصدق أحد أنها قتلت وحدها فى خلال سنوات مئات من عساكر الإنجليز ، حتى قدم بشأن نشاط أهلها المعادى للإمبراطورية البريطانية استجواب فى مجلس العموم ..

ودقت الساعة الثامنة والنصف واستمع حمزة إلى الأخبار التى تجمع أهل البلدة جميعا لسماعها ، وعم لدى تلاوتها سكون عميق كالسكون الذى يسود صلاة الجمعة والإمام يخطب ، والغريب أن حمزة لم يسمع الراديو يعقب بكلمة واحدة على مذبحة المحافظة التى حدثت فى اليوم السابق .. وكانت الأخبار عادية .. وعن لصاحب القهوة أن يسمع تعليق الإنجليز على

الأخبار من محطة لندن ، فأتى بمنضدة ووقف عليها وأخذ يبحث بين المحطات .. وكان حمزة منتبها أكثر إلى الرجل ووجهه الضئيل النحيل المنكب على الجهاز فى حماس بالغ وهو يتابع مؤشر المحطات ، ومنتبها أكثر إلى الناس الذين لم يتفرقوا بعد ولا تزال أفواههم تفسر الأخبار وتتناقلها وتتنبأ ، وتتوعد .. ولكنه تنبه فجأة واستيقظت كل حواسه على صوت المذيع فى لندن وهو يقول إن الأحكام العرفية قد أعلنت فى مصر .. وأسرع حمزة يغادر مكانه ويقف بجوار الراديو ويكاد يلصق أذنه بالميكروفون .. الحرائق تجتاح القاهرة .. الأجانب يذبحون فى الشوارع .. السلب والنهب والقتل يدور على قارعة الطريق .. الانفجارات تترى فى أنحاء العاصمة والدماء تسيل فى شوارعها .. النحاس يطلب إعلان الأحكام العرفية .. مرسوم إعلان الأحكام العرفية .. قوات من الجيش تستدعى .. الحالة تنذر بخطورة بالغة ..

ولم ينتظر حمزة لحظة واحدة واستأجر عربة أقلته حالا إلى التل الكبير ، وهناك ظل يشير لكل عربة مارة على طريق المعاهدة حتى رضيت واحدة أن تأخذه ..

وأوقعته أفواه الناس وهى تتناقل شائعات مبهمة سوداء لا رابط بينها فى دوامة ، ولكنه حين أصبح فى محطة مصر ورأى الأدخنة تنعقد كالحة فى السماء ، ومبانى كثيرة تتلظى الجحيم وتبدو حمراء غامقة فى سواد الليل ، وألسنة اللهب تطل منها كألسنة الشياطين ، ونار تتفحم وأخشاب تتوهج ومحلات منتزعة الأبواب مدشدشة المحتويات ، والقاهرة الحبيبة تنزف أطرافها خرائب وأنقاضا وتتساءل بناياتها الواجفة عن المصير ، وعساكر الجيش بلباس الميدان وخوذاته ، ودوريات بوليس فى عربات ، والوزارة أقيلت وأحكام عرفية جاءت أسود من الأدخنة التى فى السماء وأفظع من اللهب الذى يجتاح

الأرض .. حين رأى وسمع شعر بالجو مشبعا بظلال أيد سوداء أثيمه ، ورائحة مؤامرة تختلط برائحة بارود أجهض انفجاره ، والعلامات تشير إلى مستقبل قاتم ..

وبين حمزة والأحكام العرفية ثأر مبيت وتاريخ دام طويل يرجع إلى سنة ١٩٤٨ ، ولذلك رأى ضرورة البحث عن مكان آخر يلجأ إليه وقد أصبحت حجرته فى ظل الأحكام الجديدة غير مأمونة أبدا ..

واضطر إلى ركوب تاكسى فلم تكن هناك أية وسيلة أخرى للمواصلات .. وكان فى جوفه غليان لا يرحم والسؤال يطفو إلى وعيه بين الحين والحين : ترى هل يسعفه بدير هذه المرة أيضا ؟ ..

وتوقفت العربة فى شارع من شوارع الدقى وهبط ودق جرس الشقة رقم ٩ وظل يدقه باستمرار فالساعة كانت حوالى الثانية عشرة والظلام يغمر الشقة ، وفتح الباب فى النهاية وأطل بدير برأسه الضخم وجسده الممتلىء الشاهق وهو يوحوح من البرد ..

وباختصار أطلعه حمزة على الموقف وأبى بدير أن يصدق .. وجلسا إلى الراديو والمذيع يردد بين الآونة والأخرى : إيها السادة .. نحن فى انتظار أنباء هامة ..

وجاءت الأنباء فى الثانية عشرة والنصف .. وفى الواحدة تلى مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة . وطلب حمزة من بدير أن يبقى لديه بضعة أيام ، ووافق بدير وخيل لحمزة أنه يوافق على مضض ..

٤

وقضى حمزة أياما كئيبة خانقة فى الشقة الفاخرة يروح ويجىء كالطلقة الحبيسة ..

الجرائد التى ينكب عليها طول اليوم فارغة خاوية .. اختفت منها تماما أنباء الكتائب والمعركة وحفلت بتأييد التجار والشركات لرئيس الحكومة الجديد منقذ البلاد وحامى حمى الأوطان ، نفس التجار والشركات الذين كانوا لا يتركون مناسبة تمر أيام الكفاح المسلح إلا ويعلنون تأييدهم التام للفدائيين وتبرعاتهم للكتائب ..

تاجر الأسلحة اللعين لم يحضر فى صباح الأحد الباكر ولا فى ضحاه .. حظر التجول مفروض والقاهرة تموت مع الغروب والشتاء بارد .. والخروج قد أصبح مخاطرة عظمى فالبوليس السياسى منتشر والحملات تتزايد كل يوم وهاكستب قد فتح أبوابه يستقبل الوطنيين ، وصلته قطعت بأعضاء اللجنة ، وحين طلب من بدير أن يذهب لمقابلة أحدهم قال له : اسمع يا خويا يا حمزة .. تقعد عندى فى الشقة على عينى وراسى .. إنما تشغلنى فى الأمور بتاعتكو دى .. يفتح الله .

النقود التى معه مرصودة للسلاح ولا يمالك فيها تصرفا وما عاد معه نقود ، وفقد العمل ..

ومع كل هذا كان شىء ما فى نفس حمزة يأبى أن يصدق ما يحدث وينكر أن كل شىء قد انتهى ، فكان أحيانا كثيرة يتحدث مع نفسه ومع بدير وكأن المعركة لا زالت قائمة ، وكأن الضربة المفاجئة الغادرة لم تكن ..

وأحيانا كثيرة كان يفكر فى فوزية ويعجب من الأمل الكبير الذى يعلقه على مقابلتها ، فلحظات معرفته لها لم تتعد الساعة ومع هذا فميعاده معها كان يبدو وكأنه كل ما تبقى له من أمل .

غير أن ذلك الأمل الأخير تبدد حين تذكر حمزة مفجوعا أن ميعاده معها فى التاسعة ، وأن حظر التجول يبدأ من السادسة ومن المستحيل عليهما أن يلتقيا ..

وجاء يوم الأربعاء . ميعاد اللقاء . ومضى اليوم وحنق حمزة يتضاعف ويتضاعف حتى ليكاد يطغى على حنقه لمؤامرة الحريق كلها ..

وفى صباح الخميس لم يغادر الفراش .. وهم قابض يخنق روحه وإحساس يتملكه أنه فقد شيئا غاليا كان يعتز به ، وكأن فوزية ماتت من حياته بل كأنها قتلت ، وكان قاتلها فى نظره هو نفس حارق القاهرة وفارض النوم من الغروب ، وخائن المعركة وسارق الأقوات ..

وتبين حمزة بعد أن إنجابت موجة حنقه قليلا أنه فعلا قد انتزع من حياته الحافلة انتزاعا ، وإن كفاحه قد تلخص فجأة فى جدران بيضاء ملساء أنيقة ، ووجه الأستاذ بدير المحامى وجسده الضخم ، ويأس كبير قاتل ..

وأيقن أنه لا يمكن أن يقضى فى حياته الجديدة تلك ساعات ، وأنه قطعا إذا بقى فيها سيفقد عقله ، ومع أنه لم يمت ولم يفقد عقله بل راح يمارس هوايته المحببة فى التهام الطعام والتلذذ بأصنافه ، ويهىء للوجبة نفسه وكأنه ذاهب إلى أهم المواعيد ، ويستخرج كل ما لدى بدير من كتب ويختار منها ويقرأ ، ويصادق الخادمة الصعيدية العجوز التى كانت تأتى كل ثلاثة أيام لتنظيف الشقة ، ويناقش بدير كثيرا فى السياسة حتى استطاع آخر الأمر أن يقنعه أن الملك والإنجليز هم الذين حرقوا القاهرة .. وكان قبلا يقول .. ملك إيه اللى يحرق البلد ؟ بقى دا كلام ؟ .. أنا معاك صحيح أنه راجل خمورجى وبتاع

نسوان إنما حرق البلد دى مسألة تانية ..

مع هذا إلا أنه كان يقوم بما يقوم به من أعمال بميكانيكية لا روح فيها كمحكوم عليه بالإعدام انتهى أمله ..

غير أن أشياء صغيرة قد تحدث فتغير من حياة الناس .. وسمع حمزة فى الراديو مرة أن حظر التجول قد رفع إلى العاشرة وكاد يمط شفتيه فى ابتسامة من يقول :

— وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟

لولا أنه فى أجزاء من الثانية كانت قد تجمعت فى عقله متباعدات ، وانتصب أمامه أمل كاد من فرط الثقة به أنه يتخيله حقيقة واقعة .

لقد تذكر أنه قال لفوزية شيئا كهذا : إن لم يتم اللقاء فيكون الميعاد فى نفس المكان والزمان من الأسبوع التالى ..

ولكن . هل لا تزال فوزية تذكر هذا ؟ وهل من المعقول — إن هى تذكرت — أن تأتى وقد انتهت المعركة ؟

ومن أين يأتيه ذلك اليقين الذى يملأ عليه نفسه ويؤكد له أنها لا بد قادمة ؟ ..

أسئلة مثل تلك عاش عليها الأيام الباقية من الأسبوع ، وكانت لا تزال تراود عقله وتلح وتتجسم فى خياله وهو واقف مساء ذلك الأربعاء بجوار قصر البارون امبان ومنظار أسود على عينيه ، وأنفه يشم من بعيد رائحة الآدميين ويتوقع فى كل لحظة أن يضع البوليس يده على كتفه ويقول : ياللا بينا يا حمزة ..

وفى تلك البقعة الموحشة من مصر الجديدة ، وفى ليلة شتاء كليلتها كان البرد متوحشا لا يهذبه نور ولا تقلم أظافره مساكن . وكان السكون لا تقوى عليه أعصاب .. سكون بارد مخيف وكأن سكون قصر امبان المهجور قد عم

الدنيا .. سكون يكاد يتلون فيصبح كالظلام المحيط ، ويكاد يتجمد فيصبح كتلا سوداء كأسفلت الطريق . وكان الظلام ميتا لا حياة فيه وكأنما قتله البرد المتوحش وقبرته كتل السكون المتجمدة السوداء .

وقف حمزة وطالت وقفته ، وعقله — من فرط ما كان للحظات قيمة — يكاد يتحول إلى ساعة تعد الدقائق وتحصى ما تبقى على موعد حظر التجول وتضطرب إذا مرت الثانية ، وتكاد تتوقف إذا ما أحصت دقيقة كاملة ..

وتلاحقت ضربات قلبه فجأة ، ثم رأى شبحا صغيرا قادما من بعيد ، ووجد نفسه يتحرك ناحيته بلا أى تمعن أو انتظار ويا لروعة الوجه الأبيض الدقيق الذى أطل عليه من الظلام .

— أهلا ..

قالها وهو يودعها أسبوعا بأكمله من اليأس المر والأمل الخافت ، والترقب الذى دام أكثر من مائة ساعة . وما كانت الكلمة تغادر فمه حتى أحس باندفاعه أكثر من اللازم ، وحين سلم عليها فعل هذا بوعى حتى لا يعتصر يدها .

وسارا جنبا إلى جنب ، وكانت فوزية تبتسم باستمرار وتلمع عيناها دافئتين نشيطتين فى الظلام كلما سقط عليهما ضوء بعيد . وسألته لماذا النظارة السوداء فى الليل ؟ فأجابها :

— أصلى مختفى .. والنظارة تساعد ..

— ولا تساعد ولا حاجة .. دانا عرفتك على طول .. عامل إيه بعد اللى حصل ؟ ..

ولم يجب حمزة فقد خيم عليه صمت ما لبث عدواه أن انتقلت إليها ، كانت الضربة قد عادت بكاملها إلى وعيه وكأنما قد صوبت إليه لحظتها ، وأخيرا قال :

— خسارة !

— أيوه .. خسارة !

ثم أضافت :

— تعرف إنى رحتلك المعسكر النهارده ؟

— ليه ؟

— أصلى قلت يمكن تكون قصدت بنفس المكان المعسكر ، فقلت أروح هناك وإن ماجتش أجيلك هنا ..

— وازى المعسكر ؟ ..

— يدوب عرفته .. دا معدش فيه حاجة .. الخيمة طبقها الهوا .. والخشب مهدود .. ولقيت هناك نقطة عساكر .

وعاد حمزة يقول من بين أسنانه :

— خسارة !

وتنبهت الساعة التى فى عقله إلى الزمن فجأة ، وكانا قد اقتربا من الشارع الرئيسى فقال حمزة بعد أن نظر فى ساعته :

— احنا لازم نرجع مصر بسرعة .. باقى تلت أرباع ساعة على حظر التجول ..

قال هذا وجرى يبحث عن تاكسى ، وسألها وهو يجرى :

— انتى ساكنة فين ؟

فأجابته وقد بدأت تجرى هى الأخرى :

— فى شارع خيرت ..

وقال حمزة وهو يزيد من سرعته : ياه !

وبدا عثورهما على تاكسى فى تلك اللحظة يكاد يكون مستحيلا ، ولكنهما وجدا واحدا كان فى توصيلة إلى مصر الجديدة ، وما كادا يضعان

أقدامهما فيه حتى انطلقت العربة كالقذيفة وسأل السائق :

ـــ على فين ؟

ـــ شارع خيرت أولا وبعدين الدقى ..

فقال السائق وهو يضغط على البنزين :

ـــ أما نروح شارع خيرت الأول .. وإذا كان فيه وقت نشوف حكاية الدقى دى ..

ومد حمزة يده واستخرج سيجارة من جيب سترته الأعلى فسألته :

ـــ انت بتشرب سجاير والا إيه ؟ ..

ـــ أبدا .. بشرب سيجارة كده كل ٣ أيام .. مش كيف فاهمانى ازاى ؟

ـــ بس بالطريقة دى حتبقى كيف ..

ـــ متخفيش ..

وسكتت فوزية قليلا ثم قالت :

ـــ أنا كنت ناوية أجيبلك فلوس المرة دى، إنما ٢٦ يناير ده لخبط الدنيا .. معلهش ..

ـــ إنما لازم حاترجع كل حاجة زى ما كانت .. بل أقوى مما كانت ..

ـــ لازم ..

ـــ حترجع المعسكرات والكفاح المسلح وكل المعركة ..

ـــ لا بد حترجع ..

وسكت حمزة قليلا ثم أضاف :

ـــ دلوقت أنا بقيت فى حاجة ماسة ليكى عشان نخلص بعض حاجات .. وأنا مش حاقدر أقابلك بعد كده بره ، وحاليا قاعد فى شقة واحد صاحبى محامى ، وأنا معرفشى استعدادك إيه ؟ فاهمانى إزاى ممكن تواصلى والا ..

وفاجأته بقولها ..

ـ إدينى عنوان البيت .. وأجيلك إمتى ؟

ـ أنا مش عارف نمرة البيت إنما حوصفهولك ..

وبعد دقائق كان التاكسى يتلوى مع شوارع مصر ثم يقف لدى بيت فى شارع خيرت قريبا من ميدان لاظوغلى . ورفض السائق أن يوصل حمزة إلى الدق ، ولكن تحت إلحاحه والورقة ذات الخمسين قرشا قبل ..

ودق جرس الباب .. وفتح بدير وقد ارتدى الروب دى شامبر فوق جلباب كستور وحبك طاقية صوف بيضاء على رأسه وتعمم فوقها بكوفية ..

وقال له بدير وهو يعود إلى جلسته :

ـ يا أخى سيبت ركبى .. أنا افتكرت إنك أكيد اتمسكت .. كنت فين ؟

ـ كنت بدور على شغل ..

ـ ولقيت ؟

ـ أيوه ..

ـ إيه ؟

ـ حادى دروس خصوصية ..

ـ فين ؟

ـ هنا ..

وقهقه بدير ، واهتز الفوتيل بقهقهته وكذلك جريدة الزمان التى كان يقرؤها ، وأصبح الروب فى أزمة ..

ـ هنا فين ياسى حمزة ؟

ـ فى الشقة هنا ..

ـ لأ كويسة .. ما انت دمك خفيف أهه .. أمال بيقولو عليك الكلام

الفارغ ده ليه ؟ المهم .. اتعشيت ؟

ــ مليش نفس ..

ــ أهو ده مش معقول . دا انت بسم الله ما شاء الله عمر ما كان مالكشى نفس .. دى معجزة دى .. لازم واحد يهودى مات ، نفس إيه يا شيخ ؟ لازم تتعشى .. اتعشى عشان عايز أكلمك شوية ..

ولم يستطع حمزة أن يقاوم أكثر ، واضطر للجلوس وازدراد اللقم ..

وقال له بدير وقد اتخذت سيماه طابع الجد :

ــ اسمع يا حمزة .. انت تعرف إن مصلحتك هى مصلحتى وانت زى أخويا تمام .. وبقى لنا ييجى ١٥ سنة زملا وأصحاب .. وأنا عايز أقول لك حاجة ..

ــ إيه ؟

ــ ما تهدى بقى يا خويا يا حمزة وتفضك من الحكاية دى .. كفاية بقى ضيعت كام سنة من عمرك هدر وماعدشى فى العمر قد مامضى .. انت طول عمرك كده حتفضل هربان ومرفود ومااتناش لاقى تأكل . لا مؤاخذة يعنى يمكن كلامى شديد شوية إنما الحقيقة كده ..

وابتسم حمزة وسأله :

ــ دا نفس الكلام اللى بتقوله أمى بالضبط . أهدى إزاى بقى ؟ ..

ــ تهدى .. تشتغل وتتجدعن وتتجوز وتعمل لك بيت وعيلة وتفوق لنفسك بقى .. واحد مثقف زيك ما يصحش يعيش كده .

ــ بس أنا سعيد جدا بالحياة اللى أنا عايشها دى ..

ــ سعيد ؟ سعيد إزاى بقى ؟

ــ سعيد لأن المهم مش الواحد عايش إزاى والا فين المهم الواحد عايش ليه ؟ المهم الواحد بيعمل إيه للناس ؟

ــ أنا موش فاهم .. خدنى على قد عقلى يا أخى .. انت بتقول إيه ؟ .

ــ ما هو طبعا لازم تكون موش فاهم .. انت راجل ليك حياتك الخاصة وبيتك الخاص وعملك الخاص .. أنا ماليش حياة خاصة .. أنا واضع نفسى وحياتى فى خدمة الشعب .. إذا استدعت الحاجة إنى أهرب أهرب .. أسجن أسجن .. أموت أموت ..

ــ ده مش معقول .. بقى يعنى انت خلاص بقيت نبى والا ولى ما انتاش عايز حاجة من الدنيا ؟ مالكشى يعنى مطامح خاصة ؟

ــ مطامحى الخاصة هى بالضبط مطالب الشعب العامة .

ــ إيه الحكم دى ؟ أفهم من كده بقى إن سعادتك لا حتتجوز ولا عمرك حايبقى لك بيت يعنى ؟

ــ لازم حتجوز وأخلف .. بس لازم جوازى يخدم قضيتنا مش يكون على حسابها .. ولازم حيبقى لى بيت بس بيت يهيأ لى فرصة أكبر لخدمة الشعب ..

ــ يبقى إن شاء الله حتفضل كدهه متشرد زى ما انت على طول ..

ــ أبدا . اللى مشردنى هو نفسه اللى مشرد ملايين المصريين ، ومش ممكن الملايين تفضل مشردة على طول .

وسكت بدير طويلا ثم قال :

ــ هيه .. طيب الظاهر مافيش فايدة .. هيه .. تصبح على خير ..

وجذب الغطاء وما لبث أن تصاعد شخيره وراح فى النوم .

ولم ينم حمزة فقد ذكرته المحاورة التى دارت بالغربة التى أحسها منذ أن جاء إلى الشقة الفاخرة . حتى كلمة « الشعب » وهو ينطقها بدت غريبة هى الأخرى ، لا تكاد تجد لها مكانا بين النجف والأبسطة وقطع الأثاث المنمقة . وكذلك بدت الرؤى التى راحت تنبثق فى خياله .. أمه .. أبوه .. أبوه عامل

الدريسة ، وشاربه الغزير الكث الذى ينثنى فجأة عند أطرافه .. عزب الدريسة حيث مرتع طفولته وصباه .. العزب التى تقيمها المصلحة فى مكان ما بين محطتين للعمال الذين يصلحون القضبان .. المجتمع المغلق المقفول على من فيه كل قاطنيه من العمال .. الحياة يزاولها الناس معا .. الأسرار ملك للجميع والفقر موزع بالعدل على الجميع .. والزوجات يستحممن معا فى صباح الجمعة ويتباهين بما حدث ليلتها ، والأزواج يغطسون معا ليتطهروا فى الترعة .. العزبة يتولاها النساء من الصباح فتبدأ الخناقات التى لا تنتهى على الأوز الضائع والبط .. البيض هو العملة السارية بين النساء والسجاير اللف هى السارية بين الرجال والنقود هى العملة التى لا بد من سريانها بين الرجال والنساء وإلا كان ما كان . فى كل عزبة ذئب يلتحى أحيانا لحية ويتستر أحيانا بزوجه ، الرجال قد لا يعلمون والأطفال والنساء له بالمرصاد . فى كل عزبة بخيل منبوذ يجمع المليم فوق المليم وأمله قيراط أرض يشتريه فى بلده . فى كل عزبة سنى مهووس يسخر منه الرجال وتتبرك به النساء . فى كل عزبة زوجة جميلة وغيرة ومشاحنات ، وأطفال يولدون بالعشرات ، وناموس وملايين الحشرات ، وكلاب وعواء كلاب تحرس الفقر والقلل والستر ..

فى كل يوم مشكلة وشكلة وزعيق وشجار ، ومحاولات للريس أن يفرض سلطانه ومحاولات من العمال أن ينزعوا عنه السلطان . وكلام من الكادر وكلام عن الخصم ، ونساء يبحثن عن الحبل ورجال يبحثون عن السلف ، ومناطيل صفراء فى صفارها رقع ، وطاقيات صوف طويلة وأحذية من مخلفات الجيش المصرى ثقيلة ، وصفير قطار آت وصفير قطار ذاهب ، وبنت بكر تفتح الشباك وتتأمل الآتى والذاهب وتتنهد وتحلم بالبندر والأفندية وثلاث أساور قشرة ..

فى كل يوم شكلة وشكلة وزعيق وشجار ، وما يكاد اليوم ينتهى والشمس

تغيب ودخان المواقد يهمد ودخان القطار ينقطع ، حتى يؤوب الرجال إلى البيوت فى الشتاء وإلى ما أمامها فى الصيف ، وتوضع الطبلية وحولها الأفواه ، وينتهى عشاء ما كاد يبدأ ويعقبه استرخاء وحديث قصير متباعد بين الزوج والزوجة فيه من النوم أضعاف ما فيه من اليقظة ، وفيه من التفاؤل أضعاف ما فيه من تشاؤم . الزوجة قلقة والزوج راسى ، المرأة خائفة والرجل يؤكد ، الزوجة تتثاءب والزوج يغمغم متعبا: بكره تتعدل .

وهو والأولاد ..

النهار لهم .. نهار كله جرى ونط واستحمام فى الترعة ، وعد « فلنكات » السكة الحديدية ، ومحاولة السير دون معاونة فوق القضيب الواحد ، وعمل « أزنده » تقدح الشرر من الزلط تشبها بالآباء ، وصيد العصافير بالنبال والحصى الصغير .. وأروع لعبة وضع مسمار على القضيب حتى إذا ما مر عليه القطار بططه ورققه وأصبح حادا كالسكين ، والتين الشوكى الكثير الذى يغطى جانبى الخط الحديدى ، وموسم التين الشوكى والمطاردات التى لا تنتهى مع التاجر الذى يشتريه من المصلحة ويخفره ..

هو والأولاد ..

كلهم مثله مرضوا بالبهارسيا والانكلستوما والحصبة والملاريا والرمد ، وخرج بعضهم بصفره ليس بعدها حمرة ، أو بطحال .

والشيخ زيدان وكتابه والمدرسة الإلزامية وعلقها ، وابتدائى بالبدلة .. أول بدله والطربوش الكالح الحقير ، والتفوق فى الإبتدائية ٨٥ ٪ مجانا فى الثانوية . أبوه فرحان وأمه تريده صنايعى وكفى . أبوه يريده مهندسا يعمل أيضا فى السكة الحديدية مثل رئيس رئيس رئيس رئيسه . أمه ترقيه من الحسد وأبوه يربه بنطلونه الذى يشبه الغربال ويقول : يا الأول يا كده .. ويكون الأول . وبعد توجيهى الويل .. الألم .. الكفاح الرهيب من أجل جنيه ،

خمسين قرش لحمزة فى غربته فى بلاد الناس فى إسكندرية . عام مضى و لم يبق إلا ثلاثة أعوام .. يا مسهل يا رب ! وفى هذا كله يبوظ .. بوكر وكنكان وروم حامض ونساء ذوات شعر أكرت وروج فاقع الحمرة كختم السلخانة فوق الذبيحة ، وكذب على أبيه ونصب على أصدقائه ، ورسوب عام وإخفاء الرسوب وإيهام أبيه إن « الأول » نجح ، وخداع ومناورات . الأب يكفر .. المطالب تخنقه . أمه تتعلم شغل المناديل بأويه . العزبة كلها تساعد حتى الريس يدفع كل شهر نص جنيه . أخوه الأصغر منه يخرجه أبوه من المدرسة ليكمل هو فهو الأكبر والأقرب إلى قبض الماهية . ٦ مارس والمظاهرات واللجان والمؤتمرات ، أخوه عامل مناورات فى السكة الحديد والقطار يلهف قدمه ذات صباح .. ستة شهور فى مستشفى المديرية . أخوه يعود إلى العمل بقدم واحدة خفير مزلقان . حمزة يتخرج ويعمل فى مصنع .. أول ماهية يطبع بها منشور النقابة ، سياسة واجتماعات ومناقشات وكفاح ومواعيد ، البوليس السياسى يتعقبه .. أول فصل القضية التى حاولوا تلفيقها ، معتقل ٤٨ .. عشرون شهرا فى الطور وهاكستب وسجن الأجانب فى إسكندرية . يوم الإفراج . كلما قدم لمصر مستر أو مارشال قبضوا عليه .. فى كل مناسبة وطنية أو عالمية الحجز فى القسم أياما قد تمتد إلى أسابيع حتى ليستطيع فى أول كل عام أن يضع قائمة بالأيام التى سيزور فيها القسم كما توضع أيام العطلات الرسمية فى أول النتائج .. بدلته الواحدة التى فصلها عقب تخرجه ، ونظارته التى عملها فى وحدة الجامعة بجنيه ، وحذاؤه الذى هو ثانى صاحب له . النقود التى يرسلها لأبيه أحيانا ، والشبشب الأسود الذى طلبته أمه و لم يستطع إرساله ، أمه لا تزال تطرز المناديل بأويه وأبوه ابيض شاربه وكبر و لم يصبح بعد « ريس » ، وأخوه لا يزال يعرج ويغلق البوابة للقطار ويفتحها حين يمر ، وأخته نبوية عانس لا زالت ، وعزبة دريسة أخرى يعيشون فيها .

تدعو له أمه بالهداية وأبوه يتحدث بأخباره إلى الرجال ويلعن الحكومة ومصلحة السكة الحديد ، والعزبة كلها تنسج حوله أقاصيص بطولة ويقول الصغار إذا ما مر القطار .. دا رايح لحمزة .

ـــ انت مش حتنام يا حمزة واللا إيه ؟! .

ـــ أيوه حنام يا بدير .

(جمهورية فرحات)

٥

وفى اليوم التالى وفى حوالى الخامسة دق الجرس ، وكان بدير قد خرج إلى عمله بعد الظهر وفتح حمزة وفوجىء بفوزية أمامه بدمها ولحمها . وابتسمت وقالت وهى تدخل :

ـــ أنا طول السكة خايفة لاغلط فى الشقة ، إنما كويس .. أصلى كنت عند واحدة صاحبتى هنا فى الدقى فقلت أفوت أعرف البيت ..

ومع أن حمزة لم يصدق حجتها فى المجىء إلا أنه لم يدر السر فى الراحة العميقة التى أحدثها مجيئها فى نفسه .

وحالت فوزية ببصرها فى الشقة وقالت :

ـــ إيه ؟ هو صاحبك دا مليونير ؟ دى شقة فخمه قوى !

وجلس على مكتب بدير وجلست هى على الفوتيل الذى أمامه ، وما لبثت أن قالت :

ـــ قول لى .. مش ممكن أشرب قهوة ؟

فقال حمزة على الفور وهو يغادر مكانه :

ـــ ممكن قوى جدا .. بس كده ؟ ..

وذهب إلى المطبخ الأنيق ذى الفريجيدير الضخم والبوتاجاز ، والطلاء الأبيض الناصع الذى يلون جدرانه وأرففه ودواليبه ويحيله إلى شىء يكاد يقترب من حجرة العمليات كثيرا ما فكر حمزة أن ينام فيه ، وسمع صوتها يأتيه من بعيد :

ـــ عاوزه كباية كبيرة .. سكر مظبوط وحياتك ..

فرد عليها بصوت مرتفع :
ـــ بس كده ؟ ..
وبحث بعينيه فى الدولاب حتى وجد كوبا يصلح ..
وبعد برهة كان ينقل أقدامه بحرص وهو يحمل صينية عليها كوب القهوة المضبوط وفنجان سكر زيادة صنعه لنفسه وماء مثلجا ، وما إن رأته حتى ضحكت وقالت :
ـــ ياه ! أشكرك جدا ! .. دا انت ولا جروبى !
وأخذت رشفة من الكوب ثم قالت :
ـــ تصور إنى إديت ست حصص النهارده ! أنا دماغى خــلاص .. والمشكلةإنى بعد ما بارجع البيت بافتح مدرسة تانية لاخواتى ..
ـــ انتى ليكى إخوات ؟
ـــ بنتين أصغر منى ..
ـــ وحلوين زيك كده ؟
قالها حمزة مدفوعا بطاقة الحديث ليس إلا ، وأنب نفسه بسرعة وفظاعة على ما قال وكأنه ارتكب إثما ..
وساد سكوت لم تكن تسمع خلاله إلا رشفات القهوة . وكان من العسير والمكتب يفصلهما وكل يتحاشى النظر فى وجه الآخر ويتلهى باحتساء القهوة ، والهدوء مخيم وجميل والظلام قد بدأ يدب إلى الخارج والجو يوحى بالصمت .. كان من العسير استئناف الحديث . ولكن حين بحث حمزة بيديه وأخرج سيجارة من درج المكتب قالت فوزية :
ـــ مش قلتلك .. حتبقى كيف !؟
فقال حمزة وهو لا يزال يبحث عن الكبريت :
ـــ أبدا ، أصل الواحد أعصابه ..

وأخيرا أشعل السيجارة وقال وهو يكح :

ــ أظن نبدأ العمل ..

ــ أيوه ..

ــ بقى شوفى يا ستى .. أنا بقيت زى الفار فى المصيدة بعدما فقدت كل اتصالاتى ، ودلوقتى انتى الصلة الوحيدة اللى باقية لى . فاهمانى إزاى ؟ أنا معرفشى استعدادك إيه ، معرفشى إذا كنت فاضية .. ممكن تشتغلى والا متشتغليش ...

وقاطعته فوزية :

ــ بقى شوف يا سيدى ! بلاش مقدمات وحياتك خش فى الموضوع ، عايز إيه ؟!

ــ عايزك تروحى لواحد وتقوليله إنك متصلة بى ، وتوضبى معاه إزاى أقدر أقابله ..

ــ اسمه إيه وساكن فين ؟ ..

ــ اسمه حسن محمد حسن ما انتى لازم تعرفيه .. مش فاكره الجدع الطويل الضخم اللى كان معايا فى الخيمة يوم ماجيتى ..

ــ أيوه ..

ــ أهو ساكن فى القبيسى فى حارة كشك نمرة ٥

ــ اكتب لى العنوان .

ــ أهه .

ــ عاوز حاجة تانية ؟

ــ أيوه ، ده عنوان الأوضة اللى كنت ساكن فيها وده مفتاحها .. تروحى هناك وتفرزى كل الورق اللى تلقيه مهم هاتيه معاكى ، وإذا كان ممكن تجيبيلى الغيارين اللى هناك . وخلى بالك البيت لازم مراقب ..

— حاجة تانية ؟

— أيوه تبعتى الإيجار لصاحب البيت فى جواب مسوجر على نفس البيت .. وآدى الفلوس ..

— بس ؟!

— بس .. كلمينى بقى عن جمعيتكم ، فيها كام مدرسة .. استعدادهم إيه ؟ ممكن يعملوا إيه ؟ ..

— شوف ..

— وأخذ حمزة ينصت إليها ويكتب فى ورقة اسمه وحضرة المحترم وفوزية وأشياء من هذا القبيل ، ويحسن فى خطه وأحيانا يرسم دوائر وزهور ، وكان ينصت ووجهه إلى الورقة . ورفع مرة بصره إليها . كان الضوء فى الحجرة يأتى من النجفة قويا باهرا ، ويتكفل الكريستال المدلى يبعث الحياة فيه وإعطائه ألوان طيف جذابة تبرق وتختلط بدخان سيجارته الذى كان قد تجمع وانعقد حول البلور وعشش بينه ، وأحال النجفة إلى خميلة ذات زهور وأكمام يلفها ضباب صبح ندى .

وكانت فوزية جالسة قبالته على طرف الفوتيل تتحدث وتنفعل لكل كلمة تقولها وتكاد تقوم وتقعد ، وقد استدارت إليه بوجهها الذى أشاع فيه التعب حمرة وأشاعت القهوة فى الحمزة حياة ، وبشفتيها الصغيرتين المكتنزتين ويديها ذواتى الأصابع النحيلة الطويلة التى تنتهى بأظافر من ورق الورد .

واكتشف حمزة من نظرته تلك أن فوزية أنثى وأنثى جميلة ، نادرة الجمال ..

وسكتت فوزية فجأة وضيقت عينيها وزمت شفتيها ، ثم قالت بلهجة تقريع :

— انت سرحت واللا إيه ؟

فأجاب بسرعة وهو يعود من جولته :

ـــ أبدا أبدا .. أصلى كنت بافكر فى حاجة كده .

ـــ طيب أقدر أكمل ؟

ـــ طبعا طبعا .. أيوه .. كنا وصلنا لفين ؟

ومضت لحظة وهى ساكتة ثم قالت فى مزيج من اللوم والعتاب :

ـــ كنت بقول إن بهية دى واحدة من أحسن العناصر اللى فى المدرسة وإنها ..

واستأنفت كلامها والعتب لم يغادر نبراتها بعد وعيناها لا تتركان عينيه ، وتقول له بمعدل مرة فى الدقيقة :

ـــ معايا ؟ ..

فيرد فى التو :

ـــ معاكى ..

إلى أن قالت : فإيه رأيك بقى ؟ ..

واعتد حمزة وبدا عليه الجد ، بل حتى كلامه خرج جادا فيه ثقة مطمئنة وإصرار زائد وكأنه قد أصبح شخصا آخر .

ـــ خليكى على اتصال دائم بيهم .. فهميهم أن المعركة لم تنته .. فهميهم أن الشعب بيستعد لانقضاض أشد وأقوى . الظروف اللى بنمر بيها ظروف طارئة .. نكسه لا أكثر ولا أقل إنما الغليان مستمر . دى حاجة .. والحاجة التانية من كلامك فهمت أن فايزه عندها مشكلة وافتكر أن أحسن حل لها ..

وأخذت فوزية تنصت باهتمام شديد إليه وتود أن تلتقط الكلمات حتى قبل أن تصنعها شفتاه كلمات ، كان فى كلامه حكمة وكان يقول لها أشياء غريبة ويحدثها عن حلول تبدو لبساطتها ساذجة ولكنها فى الوقت نفسه ممتعة تحار فوزية وتستغرب كيف لم تفكر فى حلول مثلها .. وأخيرا قال وهو يغادر

كرسيه :

ــ أنا منتظر ، وأتمنالك التوفيق .

وقامت هى الأخرى ، وتمطت متثائبة وهى تقوم .

وسمعا مفتاحا يدور فى الباب الخارجى أعقبه وقع أقدام ثقيلة وحيدة فى الصالة ، وصوت غليظ يغنى أحدث أغانى عبد الوهاب إذ ذاك :

ــ على إيه بتلومنى .. بتلومنى ليه ؟

فقال لها :

ــ دا الأستاذ بدير المحامى .

وفى أعقاب كلماته دخل بدير وهو يقول :

ــ يا ما قلبى شكا .. يا ما دمعى ..

وسكت فجأة حين وقعت عيناه على فوزية وحملق فيها كأنه يحملق إلى إنسان له أربع أيد ورأسان .

وقال حمزة :

ــ جيت بدرى يعنى ؟

وكافح بدير طويلا ليقول :

ــ أصلى .. خلصت بدرى .

قالها وهو يزال ينظر إلى فوزية ويكاد ــ لولا الحياء ــ أن يسأل عمن تكون .

وتنحنح حمزة وقال :

ــ يا أستاذ بدير .. أقدم لك الآنسة سميحة .. تلميذتى .

فقال بدير وقد عاد إليه ذهوله :

ــ تلميذتك ؟

ــ أيوه ، مش قلت لك إنى حادى دروس خصوصية .

ــ دروس خصوصية ؟

ــ أيوه .

ــ آه ! دروس خصوصية ! طيب يا أخى .. مش تقول م الصبح دروس خصوصية ؟ أهلا وسهلا .. شرفتى يا آنسة سميحة .. أهلا وسهلا !

وسلم عليها ، وفى الجو الذى ظل فترة تسوده علامات الاستفهام والتعجب قالت فوزية :

ــ الساعة كام ؟

فقال حمزة :

ــ تمانيه ..

فقالت وهى تلتقط حقيبتها :

ــ ياه أنا اتأخرت قوى .. سلام .

فوقف بدير كالمطعون قائلا :

ــ أبدا لسه بدرى .. دا احنا بدرى قوى . تمانية إيه يا راجل دى ماتجيش سبعة وشوية . اقعدى والله .. أسمعك مزيكة . عندى عربى وافرنجى ، تحبى إيه ؟

فقالت فوزية وهى تعلق الحقيبة فى كتفها :

ــ معلش والله .. سلام .

ويبدو أن اللهجة الفاترة التى نطقت بها جملتها حسمت كل شىء .

وسار الاثنان حتى الباب الخارجى يودعانها . وابتسم بدير وهو يغلق الباب وراءها ابتسامة واسعة ذات معان ، ثم لكز حمزة قائلا :

ــ بقى بتدى دروس ؟ .. فى إيه يا ترى ؟

وابتسم حمزة ابتسامة أخرى ذات معان وقد سره أن يفهم بدير المسألة على هذا الوضع ، وعاد بدير يقول :

— بقى دروس ! .. يا نمس ! ..

وعاد حمزة يبتسم وهو يقول قاصدا أن يفهم بدير من قوله أنه يحاول تغيير مجرى الحديث :

— الأخبار إيه ؟

— ألا عرفتها إزاى دى يا واد ؟

— يا جدع سيبنا من الحكاية دى .. الأخبار إيه صحيح ؟

— بيقولوا مفاوضات .. بقى دى تلميذتك يا دبور ؟

— مفاوضات ! إزاى ؟

— رئيس الوزارة طلب مقابلة السفير الإنجليزى .

— سمعت الخبر ده فين ؟

— من واحد صديقى صحفى .. بقى دروس ؟ .. دا كان لقيته مكتوب فى الزمان ..

— فين ؟

— أهه ..

وناوله الجريدة وانكب عليها حمزة من فوره ، بينما كان بدير يخلع ملابسه ويقول :

— يا خويا الجدع ده بيقول إنه مختفى وبيعرف النسوان دى ازاى ؟ .. والواحد زى الشحط وما يعرفشى يكلم مرة . قسمتنا كده ياسى بدير .. نصيبنا كده . بت حلوة عاجبها فى حمزة إيه مش عارف ؟ على إيه بتلومنى .. بتلومنى ليه .. يا ما قلبى شكا يا ما دمعى بكى .. ما رحمتنيش ليه ؟

٦

وفى الساعة السادسة والنصف صباحا استيقظ حمزة فجأة منتفضا وكأنها قد حدثت أهوال أثناء نومه ، وعرف بعد ثوان أن الذى أيقظه هو جرس الباب الخارجى الذى كان يدق دقا متواصلا .

وفى الثوانى التالية استعاد وعيه وأصبح على استعداد لمجابهة الخطر . وهز كتلة الشحم واللحم التى تكون الأستاذ بدير الراقد بجانبه محاولا إيقاظه ولكن عبثا ما كان يحاوله ، فما كان يظفر على تنبيهه لبدير أن الباب يدق إلا بغمغمات وتأوهات ، وأخيرا قال بدير وهو بين اليقظة والمنام :

ــ دا لازم .. بتاع اللبن الله يخرب بيته .. روح افتحله .

وقام حمزة وهو نصف مكذب متوقعا أن يجد بدل زجاجة اللبن فوهة مسدس ، وفتح « شراعة » الباب .. ومرة واحدة فوجىء بفوزية واقفة وفى وجهها قلق كثير . وفتح الباب فى الحال فقالت فى همس سريع خطير :

ــ اسمع .

ــ إيه ؟

ــ حسن اتقبض عليه .

ــ اتمسك ؟

ــ أيوه .

ــ إزاى ؟ مش معقول ! .. طيب ادخلى الأول .. ادخلى .. مش معقول ! .. قولى لى بالضبط إيه اللى حصل ؟

ــ رحت لقيت واقف قريب من البيت راجل باين عليه كده .. أهو

ماعجبنيش شكله والسلام . فشكيت وما رحتش على البيت .. رحت على قهوة فى الحارة كانت لسه بتفتح وسألت عليه الجرسون وقلت له إنى قريبته .. فبص ليه كده واستغرب وخاف منى شويه .. وبعدين حكيت له حكاية طويلة كده فقال لى إنهم راحو له البيت من يومين وخدوه .. فركبت تاكسى وجيت على طول .

ــ جيتى على طول ؟

ــ لأ ، نزلت من التاكسى فى الميدان وجيت ماشية لحد هنا .

وسكت حمزة و لم يتكلم فقد راح يهز رأسه بين الحين والحين وهو يردد :

ــ غريبة .. غريبة .

ثم التفت إليها قائلا :

ــ رحتى له إمتى ؟

ــ دلوقت .

ــ دلوقت ؟

ــ أيوه ، ما انا قلت أروح بدرى قوى أضمن وأحسن .

وابتسم حمزة رغم ما به وقد أعجبه منها ما قالت ثم قال :

ــ طيب حصل خير .. استنى شوية .

وغاب لحظة فى حجرة المكتب ثم عاد ومعه ورقة صغيرة وقال :

ــ أطلبى النمرة دى ، وإذا ردت قولى له إنى عايز أقابله .

ــ طيب .

ــ ضرورى النهارده .

ــ ضرورى .

وجاءهم صوت بدير من غرفة النوم :

ــ إيه يا حمزة ؟ .. مين ؟

فرد حمزة : بتاع اللبن .

ثم التفت لفوزية وقال :

ـــ إذا ماردتشى التمرة ابقى كل ما تفضى اضربيها .

ـــ حاجة تانية ؟

ـــ لأ ..

ـــ طيب أنا جايه بعد الضهر عشان الحاجات الباقية .. سلام .

ـــ سلام .

وفى حماس مضطرب سريع اختفت فوزية وأغلق حمزة الباب ، وعاد على مهله إلى حجرة النوم ويداه خلف ظهره وزوبعة فى عقله .. حسن « أبو على » كما كانوا يسمونه الذى كانت الأمور تتعقد أحيانا وتشتبك ويظل هو صامتا ، ثم يتكلم آخر الأمر .. يقول كلمة أو اثنتين .. ولا يرفع صوته ولا يجادل كثيرا ، فقد كان يعمل كثيرا لا بتهور واندفاع ولا ببطء وشك ، وإنما باتزان وتؤدة واستمرار ..

كان فى الفترة الأخيرة متعطلا وقد فقد العمل ، وكان ليل نهار فى المعسكر يحرسه ويبنيه . وكانوا دائما فى حاجة إلى كلمته الواحدة أو كلمتيه الاثنتين .. والآن !

وقال له بدير :

ـــ هو اللى جاب اللبن .. إيه ؟ واحدة ست واللا إيه ؟

ـــ أبدا .. راجل .

ـــ أمال اتهيأ لى إنى سمعت صوت نواعمى .

ـــ لازم كنت بتحلم .

ـــ يجوز .

قالها بدير وهو يرعد ويبرق ويموء ويتثاءب ويعود للنوم .

وجلس حمزة على حافة السرير يفكر فى فوزية وكيف استيقظت لا بد فى الرابعة صباحا لتأتيه فى السادسة والنصف بعد جولتها الرهيبة .

ولم يفكر فى هذا إلا هنيهة ثم دلف إلى المشكلة الكبرى « الأسمنت » .. كان هو وحسن الوحيدين الذين يعرفان مكانه ، وقد قبض على حسن وهو لا يشك أبد فى إخلاصه ولا يمكن أبدا أن يفقد الثقة فيه لحظة واحدة ، ولكن الطبيعة البشرية لها حدود والاحتمال مهما طال لا بد أن ينتهى ، ولا أحد يستطيع أن يخمن ما قد يحدث . فلا بد من نقل « الأسمنت » من مكانه اليوم ..

بل الآن ! وكيف يكون هذا ؟ تلك هى المشكلة .

واستمر حمزة يفكر حتى بعد أن استيقظ بدير وارتدى ملابسه وجلسا يتناولان الإفطار . وللمرة العاشرة أو أكثر راح بدير وهما على المائدة يتأسف ويشرح له نظريته :

ــ مش كده أحسن بزمتك ؟ خدامين إيه ؟ أولا كل الخدامين بلا استثناء حرامية .. وثانيا بيكلفوا كثير .. وثالثا تبص تلاقى الواحد منهم مشاركك فى عيشتك .. على إيه ده كله ؟ غسيل ؟ جبت غسالة بالكهربا . كنس ؟ جبت برضه مكنسة . طبيخ ؟ مالوش لزوم آكل فى المطاعم أحسن . وإن هف على الواحد حاجة يبقى يعملها بنفسه على الأقل يضمن نضافتها ويتسلى لذيذة جدا .. مشفتش انت المكنسة اللى بالكهربا ؟ أصلى كسلت اليومين اللى فاتو .. إنما دى حاجة مدهشة قوى .. شوف .

وقام بدير من على المائدة وفى فمه بقية من طعام ، وأحضر المكنسة ووضع « كبسها » فى « الفيشة » وضغط على الزر ولكنها لم تعمل ، فأصيب بالدعر وانحنى عليها يرى ما هنالك ، ولما أتعبه الإنحناء وجعله يتفصد عرقا جلس على الأرض ببدلته وأخذ يفحصها بعناية ويجرب ..

وكان حمزة قد انتهى من تفكيره إلى قرار ، فلا بد أن يذهب هو وينقذ

« الأسمنت » مهما حدث ، ولتكن مخاطرة وليقبض عليه ، ولكن لا بد من إنقاذ الأسمنت فقال لبدير :

ــ أنا رايح أجيب هدومى النهارده .

فرد بدير وهو لا يزال منهمكا :

ــ هه ؟

ــ عاوز شنطتك الكبيرة .

ــ هم .

ــ وسبلى المفتاح .

ــ إيه ؟

ــ بس يا خويا البتاع البارز ده ليه ؟ يمكن هو السبب ؟

وفجأة اشتغلت المكنسة فذعر بدير للمفاجأة ، ثم ما لبث أن ابتسم وقال :

ــ شفت مدهشة ازاى !

ولكن حمزة أجاب :

ــ هات المفتاح .

ــ مفتاح !

واضطر حمزة أن يعيد ما قال ، ويمد يده آخر الأمر ويتناول المفتاح .

وخرج بدير .

وذهب حمزة إلى غرفة النوم حيث الحقائب الغالية موضوعة على قاعدة ــ الصغيرة منها فوق الكبيرة ــ مكونة هرما مدرجا من الحقائب الأنيقة .

واختار حمزة أكبرها . وجرب طربوشا من طرابيش بدير ولكنه وجده أوسع من رأسه ، و لم يجد ما يصلح له إلا طربوشا قديما مهملا فنظفه ما أمكنه

وحشاه بورق جرائد ليستطيع ارتداءه .. وقبل أن يغادر الشقة نظر إلى شكله فى المرآة الكبيرة الموضوعة فى الصالة واطمأن إلى وضع الطربوش وإلى حبكة المنظار الأسود وإلى حواجبه التى كثفها بسواد حصل عليه من رماد قطعه ورق أحرقها .

وغادر المنزل وهو ينظر إلى الناحية البعيدة عن البواب حتى لا يلحظه ، واستوقف أول عربة قابلته . وقال للسائق : باب الخلق .

ومضت العربة .

كانت الدنيا لا تزال صبحا والشمس توزع صفرتها على الناس والأشياء بسخاء ، وتألم حمزة لمنظر الناس وكأن قد مضت شهور وهو فى سرداب تحت الأرض خرج منه يومها . كانت فيهم ملامح أهل القاهرة الذين يعرفهم ما فى ذلك من شك ، ولكنهم كانوا غير الناس الذين رآهم لشهور طويلة قبل الحريق .. كانت زحمتهم هى هى ، وإسراعهم هو هو ، ولكن كان يخيم عليهم صمت بغيض ، وكانت سرعتهم غريبة هى الأخرى فهى ليست سرعة الإنسان النشيط ولكنها سرعة المرعوب ، سرعة الذى يجرى خوفا من الكرباج . وكان الترام لا يزال يعوى ويسير والعربات الكارو تتأرجح وتجعجع وتركض أحصنتها ، والتاكسيات لا تزال تحوم حول الزبائن ، والدكاكين مفتحة الأبواب والكناسين يعملون ، وأحيانا تسمع فى سماجة الصبح ضحكات وشتائم .. ولكن كل ما كانت تقع عليه عيناه كان خاليا من الحياة ، كله خال من أية حياة . الناس شخوص ، والحركة فى الشارع تدور وكأنها تدور على شاشة باردة فى فيلم رسوم متحركة ، والحديث والضحكات تخرج لا معنى لها أقرب إلى الأصوات التى تخرج عن الأحجار إذا سقطت أو الأخشاب إذا احتكت ، منها إلى أصوات تخرج عن أفواه بشر .

وتساءل حمزة : أين الروح فى هذا كله ؟ وهل يصدق إنسان أن تلك هى

القاهرة التى كانت قبل ٢٦ يناير ، وهؤلاء هم الناس الذين قاموا بمظاهرة ١٣ نوفمبر والذين أمسكوا وزيرا ذات يوم من تلابيبه وقالوا : أين السلاح ؟

ومن العتبة مضى التاكسى فى شارع محمد على .. حتى الموسيقى التى كانت تعزفها فرقة صغيرة كحيانة تزف إعلانا عن فيلم فى سينما الحلمية .. حتى تلك الموسيقى كانت أقرب إلى نهيق حمير أو عواء أبقار منها إلى نغمات آلات .

ووصل التاكسى إلى باب الخلق .

وأوقفه حمزة وحاسبه . وركب تاكسيا آخر كان قادما من شارع الخليج وقال للسائق :

ــ حود فى شارع الدرب الأحمر واطلع على باب الوزير .

وهدأ السائق من سيره وهو يجتاز الشوارع الضيقة المتلاحمة المزدحمة ، وهدأت كذلك بقية الحياة الباقية حتى انتهت فى آخر الأمر إلى أصوات عمال الأحذية فى الحوانيت المتباعدة المتناثرة وهم يدقون المسامير فى القوالب ، وطرقات صانعى النحاس وهى تترى فى استدامة مملة على السندان .

وعند باب الوزير غادر حمزة العربة حاملا الحقيبة وهو يتلفت فى كل اتجاه ويزن كل رجل يصادفه . وصعد فى الطريق المؤدية إلى المقابر وعيناه أمامه وخلفه وعلى جانبيه ، وحين وصل إلى المرتفع سار فى اتجاه المدافن ، وما كاد يمضى بضع خطوات حتى أشرف على أولها وتوقف حينئذ ودار بعينيه باحثا .

وفى الظل الذى يجاور مقبرة وجد هناك رجلا يبدو عليه أنه يمت بصلة ما إلى المكان .

ــ سلام عليكم .

ــ عليكم السلام ورحمه الله وبركاته .

وحدق حمزة فى الرجل وفى عمامته ووجهه الأسمر وعينه الحولاء والجلباب

الصوف البنى الذى يرتديه ، واطمأن إلى أنه ما دام أحول فلا يمكن أن يكون بوليسا فقال :

ــ والله ماتعرفشى سيد فين ؟

ــ سيد مين ؟

ــ سيد اللى بيشتغل هنا .

ــ ما هو فيه لامؤاخذة فى دى الكلمة سيدين .. سيد شطا وسيد محمد إبراهيم .

ولم يكن حمزة قد فكر فى مشكلة كتلك فقال :

ــ سيد يا أخى .. الطويل قوى ده الرفيع .

ــ آه قول كده امال .. سيد محمد براهيم .. أيوه انت لازم قصدك سيد محمد براهيم .. مش كده والله أنا من غير مؤاخذة غلطان ؟

ــ لأ ، لازم هو .. هو فين ؟

ــ هو .. هو من غير مؤاخذة راح يعمل زى الناس وجاى .. زمانه جاى . اتفضل ! هو حضرتك يعنى لا مؤاخذة عايز حاجة ؟

ــ آه .. أصل أنا طالب فى كلية الطب وباجى آخذ منه عضم .. بس ده بينى وبينك ..

ــ عيب يابيه ، هو انا لامؤخذة عيل صغير والا عبيط ؟ دانا ياما أفندية وبهوات ولاد حلال زى جنابك جولى كتير .. كانوا بييجوا بعربيات فخفخة قوى ويقفوا هناك هنا هه وأروح أنا أجيب لهم العضم أشكال وألوان ، ويقولوا لى عايز كام ياعم سماعين أقول والله مايتبعنى ولا مليم .. هو انا اشتريته والا تعبت فيه ؟ من هنا لهنا يتحايلو على واللى يدينى نص جنيه واللى جنيه .. مش كله حاكم صوابعك مش زى بعضها .. ومرة واحد ادانى بريزه ، طب تصدق بإيه ؟ صعب على وادتهالو تانى .

ـــ هو حضرتك بتشتغل هنا ؟

ـــ إلا دى .. دانا مولود هنا وإن مت بإذن الله حموت هنا واندفن هنا « وأشار إلى مقبرة قريبة » . دانا جانى على باشا ابراهيم الله يرحمه ويحسن إليه ياخد منى عضم .. كان أياميها لا باشا ولا حاجة كان زى حضرتك كده لابس طربوش برضه .. أمال ! دانا هنا وأبويا كان هنا وجدى هو اللى ناشىء الملك دا كله . طب تصدق بإيه ؟ أنا مرة جبت لواحد بيه زى حضرتك كده جثة كاملة واداني يومها عشرة جنيه فى إيدى دى اللى بكره حياكلها الدود .. أنا هنا ؟ وإن ماكنتش انا هنا يبقى مين هنا ؟ بس تقف عند باب الوزير وتقول سماعين أبو دومه فين يجيبوك لغاية عندى .. أيها خدمة يابيه ؟ عايز بقى عضم مشكل والا هيكل بحاله ؟ قول بس وفى دقيقة تبص تلاقينى جايبلك اللى انت عاوزه .. عايز إيه جنابك ؟

ـــ أنا عايز سيد .

ـــ آه سيد .. زمانه جاى . أصله من غير مؤاخذة راح يعمل زى الناس .. ماهو أنا وسيد واحد مافيش فرق كلنا إخوات .

وجاء سيد ، بدا من بعيد لطوله ونحافته وكأنه شاهد قبر هبط فجأة على الأرض وأخذ يمشى ، وما إن لمحه حمزة حتى أسرع إليه تاركا أبو دومه يقول :

ـــ أى خدمة يابيه ؟ كلنا إخوات .. بس تقول فين سماعين أبو دومه ألف من يدلك .

وسلم عليه سيد بحرارة ، ولم يتبادلا كلمة واحدة حتى ابتعدا كثيرا وتاها فى كثرة المقابر ، وحينئذ قال سيد :

ـــ خير ان شاء الله ؟

ـــ اسمع يا سيد .

ـــ إيه ؟

ــ انت فاكر حسن ؟

ــ أوى ! ماله ؟ دا واد جدع قوى .

ــ اتقبض عليه .

ــ يا نهار اسود ! إزاى ؟

ــ كده .. لازم ننقل الأسمنت النهارده .

ــ وحسن اتقبض عليه ؟

ــ أيوه ماقلتلك .

ــ يا خسارة ! يافتاح ياعليم يارب ! ماتخدونى بقى يا أخى .. الواحد قرف من العيشة دى .

ــ حييجى يوم ناخدك بس كل حاجة بأوان والا إيه ؟

ــ وحنعمل إيه ؟

ــ ياللا هاته عشان نعبيه فى الشنطة دى .

ومشى سيد وقد اكفهرت ملامحه وتغضن وجهه المتغضن وازداد نحولا .

ومشى حمزة وراءه يراقب أقدامه الحافية الكبيرة وهى تترك آثارها على الرمال ، وجلبابه الذى عقد ذيله من ناحية والعقدة تتأرجح لكل خطوة ، وكانت المقابر تسبح فى هدوء يوم الشتاء ذاك .. هدوء مهيمن كبير أكبر من السماء والأرض ، وأشعة الشمس ما تكاد تصل حتى يشلها الهدوء فتكمل رحلتها إلى الأرض زاحفة عليلة . وكانت رياح باردة تهب .. رياح ذات طعم مختلف تماما عن رياح المدينة وكأنها تهب من فجوة خاصة فى أحد المدافن ، والقبور متراصة مزدحمة تكاد تحسبها قطيعا مهرولا من ركائب مسرجة ، ولا يستطيع الإنسان أن يميز شيئا بذاته فهو يرى القبور من خلال يوم الشتاء البارد ، ويحس بالريح من خلال القبور والزمهرير ، ولا يرى الشمس إلا مضيئة مدفنا أو زاحفة أشعتها فوق تراب حفرة .. وتنبه حمزة من تأملاته على

آثار أقدام سيد وهى تنقطع وتؤدى إلى باب فتحه سيد وأحدث فتحه فى الهدوء الشامل صريرا مزعجا . ودخل سيد ودخل حمزة وراءه .. كان المكان مظلما لا يتسرب إليه الضوء إلا من خلال شقوق موجودة بين ألواح نافذته . وكانت هناك رائحة لا تستحب لا لأنها كريهة ولكن لأن فيها شيئا ما ينفر .. كانت بلا ريب الرائحة التى تصاحب عملية تحول الإنسان إلى تراب .. وما أشد نفور الإنسان من رائحة تحوله إلى تراب !

وانقض سيد على بقعة فى ركن المكان وأعمل فيها أصابعه ، وظل يعمل بلا هوادة وحمزة قد مل الوقوف فوضع الحقيبة وارتكز عليها . وتكشف التراب الذى كان يزيحه سيد عن « مجاديل » مصنوعة من أحجار طويلة موضوعة بعضها إلى جوار بعض وتغطى فجوة .

وأدخل سيد أصابعه الجافة بين مجدالين وناضل بقوة حتى اقتلع واحدا . وخف حمزة ليساعده ولكن سيد رفع إليه وجهه الذى كان مغطى بتراب وبعرق كثير يلمع فى ظلام تضيئه رقائق الضوء وقال :

ــ عنك انت يا أستاذ خليك مستريح .. هيه !

قال « هيه » وهو يعتل ويقتلع حجرا آخر .

وبعد أن رفع الأحجار كلها وجفف عرقه بجلبابه حدق فى الحفرة .. وحدق حمزة كذلك ، وتبين بعد أن تعودت عيناه ظلام الحفرة أن بها درجات تؤدى إلى القاع ما لبث سيد أن هبط عليها بغطائها .

وجاءه صوته بعد فترة مخنوقا محشورا :

ــ خد يا أستاذ .

وفى وجل قليل هبط حمزة ثلاث درجات ومد يده وقبض على الشىء بيد من حديد ، وفى حرص بالغ وضع « الجربندية » التى كانت من مخلفات الجيش ، وضعها بجوار الحائط . وما كاد يفعل حتى جاءه الصوت المخنوق :

ـــ خد يا أستاذ .

وتناول « جربندية » أخرى .

وثالثة ورابعة .

وخرج سيد فى النهاية قائلا :

ـــ الحاجة تمام يا أستاذ ؟

ـــ تمام .

وأحضر حمزة الحقيبة الكبيرة وفتحها وأمر سيد أن يمسك . وفى دقة بالغة عالج « أبزيم » أول جربندية حتى رفع غطاءها وتناول أول قالب « ديناميت » وتفحصه وشمه واطمأن إلى أن الرطوبة لم تنفذ إليه ، ووضعه بحرص أيضا فى ركن الحقيبة .. ثم مد يده واستخرج قالبا آخر وأرقده فى قاع الحقيبة .

ومضت ساعة .

وتنفس حمزة بارتياح وهو يقول لسيد :

ـــ ابقى اتخلص من الجربنديات دول .. إرميهم احرقهم إتخلص منهم والسلام .

وأجاب سيد بإيماءة الفاهم من رأسه .

وحمل سيد الحقيبة وهو النحيف رغم إلحاح حمزة ، وعادا من نفس الطريق . وما أن وصلا إلى أول المقابر حتى وجدا هناك أبو دومه ومعه آخر . وطلب حمزة من سيد أن يحضر له عربة ، ومن بعيد كانت تأتيه الكلمات التى يتبادلها أبو دومه وصاحبه :

ـــ وبياخدوا العضم ده يعملوا به إيه يابو دومه ؟

ـــ أنا عارف يا خويا بيدرسوا عليه .. بيركبوه ويعملوه بنى آدم تانى .. حد عارف ؟

ـــ إلا انا سمعت يابو دومه إنهم بياخدوا العضم ده يسحروا بيه ويعملوا بيه

عمولات ، وإنهم لاهم دكاتره ولا حاجة .

ــ يمكن .. مش بعيده . أنا مرة جانى واحد وقال عايز عضمة صباع رجل يمين بتاع واحد كان أعور شمال !

وجاء التاكسى .

وحمل حمزة الحقيبة برفق شديد ووضعها إلى جواره وقال لسيد :

ــ شد حيلك .

فقال سيد :

ــ شدوا حيلكوا انتوا .

وقبل أن تنطلق العربة وقف أبو دومه وأشار لحمزة مودعا :

ــ مع السلامه يابيه .. أيها خدمة .. بس عند باب الوزير تقول عمى سماعين أبو دومه فين ألف من يدلك .. مع السلامة .. كل اسمنت وانت طيب !!

ولم يسمع حمزة الجملة الأخيرة ..

٧

حين استقر مرة أخرى فى شقة بدير جلس على الفوتيل ووضع الحقيبة بجواره على السجادة ، وراح يفكر فى تفاصيل ما حدث منذ أن غادر ترب باب الوزير قاصدا العباسية حيث يقطن صديقه السيد محمد رشدى . كان وهو يصعد بالحقيبة إليه ليطلب منه أن يبقيها عنده يكاد يجزم بما حدث ويكاد يخمن الارتباك العظيم الذى انتاب رشدى وخروجه ودخوله أودة الجلوس عدة مرات ، وصوت امرأته حين علا ، والابتسامة الحزينة الخجلة التى ظلت طول الوقت لا تغادر وجهه والكلمات ترتج عليه محاولا أن يعتذر بالأولاد

والحالة الصعبة ، قائلا آخر الأمر إنه لا يستطيع أن يخفى أى شىء ..

كان حمزة حائرا .. هل يحقد على رشدى أم يرثى له ؟

ويكاد يكون لدى البعض رغبات خفية تراودهم أحيانا أن يضبطوا غيرهم متلبسا بلحظة ضعف ، ليروى الواحد منهم نفسه بالتشفى به وإذلاله وإثبات قوته هو وجبروته وصلابته .. غير أن رغبات مثل تلك لا تراود إلا الضعفاء .. وكان حمزة أبعد عن أن يفكر فى التشفى أو تحقير صديقه لموقفه ذاك ، فقد كان يعلم أن لكل إنسان قدرة محدودة على المضى فى الطريق ، وإن على الذين فى استطاعتهم مواصلة المسير أن يرثوا للمتخلفين وألا يفقدوا فيهم الأمل .

ولكن مشكلة الحقيبة كانت لا تزال قائمة وبدير لن يسمح أبدا أن تمكث فى شقته ثانية،بل لو علم لما أبقاه هو . وعليه أن يودعها فى مكان أمين ، وأين المكان الأمين فى ظروف كتلك ؟

ودار المفتاح فى قفل الباب .

ودخل بدير وما أن رأى الحقيبة حتى قال :

— جبت الهدوم ؟

— آه .

— وخدت الشنطة الكبيرة ليه ؟ إياك عندك هدوم كتير ؟

— آه .

وكان بدير يتكلم وهو يروح ويجىء مبتهجا ويدور فى الحجرة وينظر أحيانا إلى الحقيبة . ولا أحد يدرى مصدر النزوة الغريبة التى راودته والتى تراود الناس كلما رأوا حقيبة كبيرة أن يجلسوا عليها ، وقال بدير وهو يكف عن مشيه ويهبط بجسده الضخم فوق الحقيبة :

— هه .. وازيك ؟ مالك مبوز كده ؟

ــ واندفع حمزة يصرخ :
ــ أوعه .. أوعه .. قوم .
وانتفض بدير واقفا فى ذهول لا يدرى سببا لهذا الصراخ المفاجئ .
وقال حمزة فى نبرات متقطعة محاولا إصلاح الأمر :
ــ أصل .. الهدوم تكسر .. الشنطة ماتستحملش .
ــ يا خويا خوفتني .. هى هدومك قزاز والا إيه ؟
ــ أبدا .. هه .. أما اشيلها أحسن .
ورفع حمزة الحقيبة وتكلف جهودا شاقة ليستطيع أن يبدو أمام بدير وهو يحملها فى خفة وكأنها تحتوى ملابسه فقط . وعاد إلى الحجرة وجلس صامتا ناظرا فى ساعته . كانت الساعة الرابعة وما تبينها حتى أحس بجفاف فى حلقه وبشىء من الرهبة ودق القلب .. أحس بهذا كله دون أن يدرى له سببا . كل ما فى الأمر أنه تذكر أن ما بعد الظهر قد حان ، وما بعد الظهر ميعاد فوزية .
ودار حديث مابينه وبين بدير ، ولكن الحديث الحقيقى كان يدور بين حمزة ونفسه . وكان الحديث يدور حول فوزية .
ــ ماذا حدث ؟
لقد تم أول لقاء بينهما وكل شىء هادئ وعادى .
فلماذا أدمن بعد ذلك التفكير فيها ؟
ولهفته على لقائها فى مصر الجديدة لم تكن أبدا لهفة لقاء عادى .
وما الذى فعلته فيه أصابعها الطويلة النحيلة وهى تلتف على يده بقوة تصافحه ؟
وما تلك الإشعاعات الظاهرة التى تنبعث من عينيها كلما نظر فى عينيها فتسلبه إدراكه ؟
وما مصدر تلك القوة الغامضة التى تدفعه إليها دون وعى أو تفكير كما

يندفع الحديد إلى المغناطيس ؟

أبدا .. لم يحس بشيء كهذا فى حياته . كان يستلطف بنات وأحيانا يهذر مع بنات ويقبل بنات ويصادق بنات ولكنه لم يشعر أبدا بإحساس خفى مثل ذاك الذى يجذبه بقوة لا يستطيع مقاومتها إلى فوزية ؟

هناك شيء ما محير يحيط بتلك الفتاة .. لا بد أن فى الأمر سرا لا يدريه . إنه لا يحبها إذ الحب فى نظره علاقة لا تنمو هكذا بمجرد نظرات وكلمات ولقاءات . الحب الحقيقى علاقة مادية يقتضى وجودها زمنا وعشرة وتجربة يمر بها الرجل والمرأة فتصهرهما فى بوتقتها .. فإذا لم يكن يحبها فماذا يدفعه إليها ؟ ولماذا أصبح حلقه يجف وقلبه يخفق كلما مرت بخياله أو سمع اسمها أو خيل إليه أنه يسمع اسمها ، أو حتى إذا جاء فى حديثه مع بدير ذكر لأى كلمة فيها الفاء والواو والزاى .. أو حتى الزاى وحدها ؟ ولماذا راح دون وعى منه يستعرض كل النساء اللائى رآهن خلال رحلته إلى باب الوزير ويقارن أيضا دون وعى بينهن وبينها وتكون هى الرابحة دائما .. بل كل النساء إلى جوارها رجال أو هن أقرب ؟

لماذا هذا كله ؟ ولماذا دأب فى الأيام الأخيرة على حلق ذقنه كل يوم والوقوف أمام المرآة طويلا ؟ ولماذا يغالط نفسه ويدعى أنه يرى فى المرآة أمامه إنسانا وسيما ؟

ولماذا راح يفتش عن لمحات جمال فى نفسه . واكتشف الآن فقط أن أنفه جميل وأسنانه ناصعة البياض وذقنه الغزير كلما جار عليه بالموسى وهو يحلقه أصبح له لون رمادى باهت يتلاءم تماما مع لون بشرته ؟

إنه شخص علمى يؤمن بالعقل والعلم ولا بد من تفسير لتلك الظاهرة .. لابد من وجود سبب ، ولا بد أن يدرس انفعالاته حين تأتى ويراقب نفسه ويحصى عليها حركاتها وسكناتها ، ويتفحص فوزية بدقة إذ لا بد له من العثور

على تفسير .

ومع أنه كان جالسا فى حجرة المكتب بعيدا عن باب الشقة إلا أنه سمع حفيف الأقدام التى تصعد السلم وجف حلقه للخفيف وازداد جفافا حين توقف الصوت لدى الباب ، و لم ينتظر دق الجرس بل انطلق من فوره وفتح الباب ليجد فوزية واقفة على عتبته تحمل حقيبة من القماش بيد ويدها الأخرى على الزر ، وحين ابتسمت له عبقت الدنيا برائحة بسمتها واستحال شخصا آخر .. لا نقاش ولا جدال ولا علم ولا عقل .. قلب يخفق ، وريق ينضب ، وعرق خفيف ينبت ، وطاحونة دائرة فى رأسه ، وقوة خارقة تدفعه مغمض العينين إليها .. وجاءه صوتها ساحرا فى لطفه رقيقا عذبا يقول :

ــ إيه ؟ .. مش عايزنى أدخل ؟

وتعثرت بسماته وتعثر اضطرابه وهو يقول :

ــ أبدا .. أبدا .. اتفضلى .

ــ ياه .. انت مؤدب قوى النهارده .

ودخلت فوزية وسبقته إلى حجرة المكتب .

وأحس باطمئنان أبدى حين احتوتها الشقة ، وهبط الخوف الذى كان يملأ صدره ولا يدعه يستريح .. الخوف من أنها لا تجىء ، أو إذا جاءت يحدث حادث مثلا ولا تدخل الشقة ، أو يكون وراءها عمل آخر فتأتى لتعتذر ، أو يقبض عليه قبل حضورها .

وقام الاستاذ بدير يرحب بها فى ضجة ، ومع أنها كانت قد اختارت أن تجلس على كرسى إلا أنه ألح عليها بإمعان أن تجلس على الفوتيل و لم يتركها إلا بعد أن نفذت إلحاحه .. وانطلق إلى المطبخ وعاد بعد ثانية بزجاجة عصير فواكه مثلجة وقدمها وهو يعتذر بأن الزجاجة مش قد المقام .

وبعد ما انتهت ضجة الترحيب سكت الثلاثة .. سكت حمزة لأنه كان

يتأمل فوزية ولا يحس بأدنى رغبة فى الكلام ، وسكتت فوزية لأن كلامها كان يحتم انفرادها بحمزة وكان يبدو على بدير أنه أضيق الثلاثة بالصمت وأنه يود فتح أى باب للحديث ويود إطالة الجلوس .

غير أن الباب ظل مغلقا لا يكاد يجسر أحد على فتحه ، و لم يجد بدير فائدة فخبط على فخذيه وهو يقول :

— طيب .. هه .. أسيبكو بقى للدروس وأقوم انا .

ومع هذا لم يقم وكأنه ينتظر أن يشفق عليه أحدهما ويستبقيه ، غير أن واحدا منهما لم يقل حرفا .

واعتدل بدير فى تراخ وترك الحجرة ، وظل يروح ويغدو فى الشقة ويغنى أحيانا ويدخل عليهما الحجرة ويبحث فى أدراج المكتب عن أشياء ولا يجد هذه الأشياء ، وهذا كله يحدث وحمزة وفوزية لا ينطقان بحرف ، حتى إذا ما قال بدير أخيرا وقد فتح الباب الخارجى وأمسكه بيده :

— هه .. أوروفوار بقى .

قال الاثنان : أوريفوار .

واستعادت فوزية نشاطها المتيقظ ولمعة عينيها والتفتت إلى حمزة قائلة :

— الهدوم أهه .. وآدى الورق والباقى مكنشى فيه حاجة مهمة ، وآدى وصل الجواب المسوجر .. والنمرة مردتش .

— نمرة إيه ؟

— الله ! انت نسيت !

— لا أنسى إزاى .. مردتش ؟ انتى عارفه معنى كده إيه ؟

— إيه ؟

— إنى خلاص فقدت آخر صلة لى باللجنة .. والله كل ما تلقى نفسك فاضية اضربيها يمكن ترد .. يمكن يرجع .

— فيه حاجة تانيه ؟

— لأ .

ووجد شيئا يدفعه إلى أن يضيف :

— أهو دلوقتى إتعزلنا احنا الاتنين .. يعنى كأننى « فى جزيرة معك » .

وسرح خياله مع التعبير .. فى جزيرة معها هى والطبيعة واللامسئوليات .. كم يبدو هذا رائعا ! وهل ستسير حياته كلها هكذا معارك وكفاح وتربص وحذر ؟ كم تبدو الراحة والمتع الصغيرة التى لا يزاولها حلوة .. كم يبدو بيت هادئ وزوجة وأولاد جميلا ! أحيانا يهفو إلى قضاء يوم على شاطىء البحر فى مصيف ، أحيانا يود الذهاب إلى الأوبرا ، أحيانا يريد أن يرى أوروبا .

وعاد يريد أن يحدق فيها و لم يجد لديه جرأة كافية ، بل لم يعد فى استطاعته أن تلتقى أبصارهما ولا عاد يرى فيها الإنسانة التى من لحم ودم والتى تعود أن يراها ، بل أصبح ينظر إليها وكأنها استحالت إلى شىء معنوى له قدسية وخشوع ، أصبح يراها كما يتأمل العاشق القمر فلا يجد فيه كوكبا آخر يضئ بأشعة الشمس المنعكسة ، وإنما يرى فيه وجه الحبيبة وأسعد ما عاش من ساعات ، والهمسات الدافئة وكل الذكريات .

وكان الصمت قد طال حتى بدا وهو فى أشباه أحلامه يحس به ، ويحس أن لا بد له من نهاية فقال لها :

— تعرفى إن كل معلوماتى عنك لا تتعدى إنك مدرسة وسكرتيرة اللجنة وبس ..

— وعاوز تعرف إيه ؟

— كل حاجة .

— ياه .. دا انت الظاهر فاضى .

— وورانا إيه ؟

وبدأت تتكلم بعد تردد وحمزة يستمتع بكلامها وبحالة السلبية التى تملكته والتى كان سعيدا بها . هى الابنة الكبرى لمدرس أيضا ولها أختان وولد ، أبوها تعلم فى المعاهد وتخرج من دار العلوم ويدرس العربى وله فى كل مشكلة رأى ويعتبر نفسه عصريا بكل ما تحمل تلك الكلمة من معان . وبينه وبين أقربائه الذين يكونون جيشا عرمرما من موظفى الدرجة السابعة فما تحت ما صنع الحداد حين قالوا له : عيب تشتغل بنتك . مط لهم شفتيه وقال : ما عيب إلا العيب ، والذين يعملون أشرف من الذين لا يعملون . وحين نقلت إلى طنطا وكان لابد أن تسكن هناك بمفردها وأشفقوا عليها من المصير قال لهم : اللى ما يقدر يحافظ على نفسه حيحافظ عليه غيره ؟ وحين رآها بعض ذوى قرباها محمولة على الأعناق فى عابدين فى مظاهرة ١٣ نوفمبر وهى تهتف وذهبوا إليه يستنكرون ويتبرون قال : كلموها هى .. أنا أبوها مش سيدها .

ليس هذا فقط بل إنه يحفظ رباعيات الخيام ، ويرى أن نصف مشاكل العالم تحل بعد حمام دافئ . وأن الوسيلة المثلى لإخراج الإنجليز من مصر هى ما اتبعه غاندى ، وأن المعيز والمغازل أقوى مليون مرة من المدافع والدبابات ، وإن كان يستدرك بعد هذا ويقول : بس ده رأيى الخاص .. وأنا أحترم رأيك جدا مهما كان .. أنا كما يقول فولتير : أنا وإن كنت لا أرى رأيك إلا أننى مستعد أن أفقد حياتى دفاعا عن حقك فى إبداء رأيك .

وقطعت فوزية حديثها فجأة قائلة :

— قوللى ؟

— أيوه .

— انت لابس البدله ليه ؟

وتذكر حمزة كل مادار فى يومه الطويل وقال :

— أصلى خرجت ..

ــ خرجت ؟ إزاى ؟ إزاى تخرج ؟

ــ كان لازم .

ــ ليه ؟

وتردد حمزة مرة أخرى ولكنه آثر أن يفضى إليها وقال :

ــ حسن كان يعرف مكان ديناميت مخبيينه ، فكان لازم أروح بنفسى وأجيبه .

ــ ديناميت ؟

ــ أيوه ديناميت .

ــ وجبته ؟

ــ جبته .

ــ فين ؟

ــ جوه .

ــ هنا ؟

ــ أيوه هنا .

ــ إزاى مخليه هنا ؟ مش خطر ؟

ــ خطر .

ــ وهنا مش كويس !

ــ مش كويس أبدا .

ــ لازم ينشال .

ــ لازم .

ــ وحتعمل إيه ؟

ــ حنقله .

ــ فين ؟

ـــ ما اعرفشى .

ـــ وده كلام ؟

ـــ معلش .. لازم أوجد حل .

وسكت وسكتت وهى تهز ساقها الموضوعة فوق الأخرى فى عصبية ، وأخيرا قالت :

ـــ تشرب قهوة ؟ أنا عايزه قهوة .

ـــ تعرفى تعملى ؟

ـــ طبعا أعرف ! انت فاكرنى مثقفة متعفنة ! دانا اللى شايله بيتنا كله وشغله .. دلوقتى حتشوف القهوة !

ـــ ورينا شطارتك .

وبعد قليل رجعت وقدماها تزحفان ببطء وعلى الصينية كوب لها و كوب آخر له ، وبخار القهوة يتصاعد ويملأ الغرفة برائحتها التى يتفتح لها الشم والبصر .

وأخذت فوزية تحتسى قهوتها فى رشفات سريعة حتى أتت عليها وحمزة ما يكاد يتذوق كوبه ، وسألته فوزية ونشوة بهيجة تطل من عينيها :

ـــ إلا قوللى .

ـــ أقولك إيه ؟

ـــ انت بتشتغل إيه ؟

وضحك حمزة ضحكة طويلة مغتصبة وقال :

ـــ اننى لسه لدلوقتى ما تعرفيش .. خمنى باشتغل إيه ؟

ـــ مدرس ؟

وضحك حمزة مرة أخرى وقال :

ـــ اشمعنى يعنى ؟! .. لا .

ــ طالب ؟

ــ لأ .

ــ محامى ! أمال إيه صحيح ؟

ــ تسمعى عن الناس اللى بيسبغوا الهدوم أهو أنا منهم .

ــ كنت بتشتغل فى مصبغة يعنى ؟

وضحك حمزة وأجاب :

ــ لأ كنت باشتغل كيماوى فى مصنع شركة الحرير .

ــ أمال إيه اللى خلانى أفتكرك مدرس .. انت لازم سبت الشغل بقى ؟

ــ ياما سبت شغل .

ونظرت إليه فوزية ، أكانت علامة إعجاب نظرتها ؟ لا يدرى فقط جعلته تلك النظرة يخجل ويسقط عينيه إلى الأرض .

وقالت فوزية فى عصبية مفاجئة :

ــ تعرف أنا النهاردة كنت حاضرب الناظرة ! إيه ده ؟ الناس بقى دمهم تقيل قوى .. ناظرة آخر رجعية وسخافة فى العالم . تصور هى بنفسها اللى بتفتح كل الجوابات الواردة للمدرسة وتقرأها .. امبارح فتحت جواب لى .. الله ماتشرب القهوة .. انت سارح فى إيه ؟ بتبصلى كده ليه ؟

وكان حمزة تائها فعلا فى وجهها لا يكاد يعى ، وعيناه مثبتتان على بشرتها يرى كلماتها ولا يسمعها ، ويراقب ذرات النور وهى تتساقط على ملامحها الدائمة الانفعال ، ويفكر فى أشياء كثيرة لا يعرف ما هى .. وانتبه فجأة على سؤالها فقال :

ــ أبدا .. آه .. أصل أنا ساعات باسرح كده .

ــ الظاهر إنك تعبان .

ــ أبدا .. أبدا .

ــ أمال عينيك شكلهم غريب ، وبتبص كده .. كده .. كده فيه حاجة ؟

ــ أبدا .. أبدا .

ــ طيب أنا لازم أمشى .. ياه ! أنا اتأخرت قوى .

ــ تمشى ازاى ؟ لسه بدرى .. لا يمكن حتمشى دلوقت .

ــ لا ، لازم أمشى .

ــ لسه بدرى جدا .. مش ممكن ..

ــ طيب أقعد خمس دقايق ، لغاية لما تبقى تمانية .

وأحب حمزة أن يشارك فى حديث يجعلها تبقى فسألها :

ــ هيه .. عاملة إيه ؟

فقالت وهى تقف فى ضيق عصبى مفاجئ :

ــ تعرف أنا النهارده كنت حنفجر .. الناس خلاص استسلموا .. عاملين زى التمساح الميت مهما تنغز فيه مايحسش .. إيه ده ؟ ده لو كانوا عشرين مليون دوده ما كانوش استموتوا بالشكل ده .

وكان حمزة مستمتعا بحالة الاسترخاء السلبى الذى كان يستقبل بها حديثها وملامحها ولكنه لم يعجبه كلامها الأخير ، وتردد برهة بين أن يسكت ويواصل الاسترخاء وبين أن يرد فينشب جدل يعكر الجو الحالم الذى ساد الغرفة . ولكنه وجد نفسه يقول :

ــ بس انت غلطانه إذا كنتى فاكره إن الشعب مستسلم .

ــ غلطانه ازاى والناس ميتانه خالص ؟ دا ولا كأن البلد بلدهم وملك حقير عمال بيخون ويلعب بقضية البلد زى ما هو عايز ..

ــ انتى شايفه الظاهر بس .. وعمر المظاهر ما تصلح أساس للحكم فاهمانى إزاى ؟

— يا شيخ مظاهر إيه ؟ احنا أصلنا شعب مسالم استعمر آلاف السنين وخد على الذل .. حتى الحرب الأخيرة ماحركتشى فيه ساكن .. أصل طبيعتنا الزراعية وأرضنا السهلة وجونا اللى مفهشى تغيرات كبيرة مش ممكن يخلق شعب مقاوم زى الشعب اليونانى مثلا .. احنا ناس عاديين ومش ميالين للعنف .

— برضه أنا مصر أن دى نظرة سطحية محضة .. شعبنا ده فيه قوة مقاومة لا يمكن تصورها .. قوة مريعة مستخبية ورا السبح والصهينة وضرب الدنيا صرمه .

— بس الزمن عمل عمله فى الناس يا حمزة والظلم اللى استمر آلاف السنين ترك أثره .. انت مش متصور ..

— أنا متصور كل حاجة .. والظلم اللى بتقولى عليه ده مش أضعف المقاومة دا زودها .. فاهمانى ازاى ؟ انتى لو كنتى فى إسكندرية يوم ٦ مارس وشفتى العيال وهم فاتحين صدورهم وداخلين على المترليوزات ماكنتيش تقولى كده .

— دا كلام بينى وبينك بنقوله احنا بس .. إنما الحقيقة ..

— أبدا الحقيقة إن ده حصل فعلا وشفته انا بعينى ..

— حصل إزاى ؟ مش معقول .. هو ده معقول حد يدخل على الرصاص بصدره ؟

— بس ده فعلا حصل .. كان الانجليز الاربعة فاتحين المدافع والرصاص زى المطر ، والعيال كانوا واقفين فى الميدان فعلا ونازلين فيهم ضرب بالطوب والحجارة .

— انت حتجننى ! اسمع يا حمزة .. أنا مش ناقصة حماس .. مفيش داعى تبالغ .

ـــ بشرفى ما بيالغ .. أنا كنت فى المظاهرة يومها .. ومش أنا بس اللى شفت .. على الأقل ٥٠٠٠ واحد شافوها يوم ٦ مارس .

ـــ كان فى اسكندرية الكلام ده ؟

ـــ آه.. يوم ٦ مارس بالذات ده كان يوم تاريخى بالنسبة لى شخصيا .. كنا أيامها بنمر بفترة رهيبة من تاريخنا .. كنت طالب فى كلية العلوم فى اسكندرية وكل يوم والتانى مظاهرة ومؤتمر ، وكان لى صديق اسمه أمين كان طالب فى كلية الحقوق .. دلوقتى بقى وكيل نيابة .. قابلته فى الصيف اللى فات . كنت أنا وهو ما نكاد نسمع عن مظاهرة أو إضراب إلا ونطير على هناك ، وكان لأمين بالطو مربعات مشهور جدا فى المظاهرات كان أصله بالطو جبردين وقلبه ، والجبردين قماشه من جوه مربعات .. كنا لما نعرف إن فيه مظاهرة يلبس هو البالطو ويجرى على هناك .. وكانت مصر بتتوالى عليها حكومات صدقى والنقراشى والبلد كلها ثائرة وواقفة ضد أى تسليم فى حقوقها . وكنت أنا مجرد طالب عادى من اللى بتشفيهم يملوا الشوارع فى المظاهرات .. خرجت من بيتنا الصبح ، واسكندرية يومها كان مفروض إنها فى حالة حداد على الشهداء اللى ماتوا فى ٢١ فبراير فى القاهرة .. وليلتها بالليل كان فى البلد رأيين : رأى ينادى بوجوب أن يمر اليوم هادئا وهذا كان رأى الإخوان ، والرأى الثانى كان بيصر على أن تقوم مظاهرات واسعة النطاق لتخلد اليوم ويصبح جديرا بذكرى الشهداء . وانتصر الرأى الثانى والصبح كانت البلد كلها تعج بالمظاهرات . خرجت من البيت وفت على أمين وذهبنا للبحث عن مظاهرة نشترك فيها .

وعند محطة الرمل وجدنا مظاهرة كبيرة ممتدة من المحطة إلى شارع سعد زغلول ، ولأول مرة كنت باشوف مظاهرات مش فيها طلبه وبس ، إنما فيها طلبة وناس كبار وناس بجلاليب وتجار وكمسارية ترماى وعمال وأولاد من

اللى بيلموا سبارس ويمسحوا جزم وصبيان ورش .. الأولاد اللى بيقولوا عنهم الغوغاء . ومرت المظاهرة بكشك استعلامات إنجليزى كان مبنى بالأسمنت المسلح وأصبح مكانه الآن منتزه ، مرت من أمام الكشك وكانت له شبابيك بتطل على محطة الرمل وعليها يفط مكتوبة بالإنجليزى تحمل تعليمات إلى العساكر . بعض الأولاد اللى بيمشوا دائما على حواف المظاهرات حاولوا خلع يافطة فمنعهم الرجالة الكبار ، إنما كما يحدث فى مثل هذه الأحوال الناس وقفت والتفت حول الكشك .. وانتبه الناس له وكأنهم لم يروه من قبل . وكانت نتيجة توقف المظاهرات أنها تفرقت حول الكشك فحاصرته . أنا كنت فى الناحية البعيدة من شارع سعد زغلول فسمعت من الناس إن الكشك فيه سلاح وإن الواحد ممكن يدخل ويشيل زى ماهو عايز . وحكاية السلاح دى عندى حساسة جدا .. فمثلا أنا مرت على فترة أيام أن كنت فى توجيهى وأولى جامعة كنت عاوز مسدس وبس .. كانت كل حياتى متبلورة فى حصولى على مسدس .. مش المهم استعمله فى إيه المهم كنت عايز مسدس وبس .. وسمعت مرة أنا وأمين إن مصر الفتاة بتصرف مسدسات لأعضاءها ، فاتفقنا أن يدخل هو فيها فإذا أعطوه مسدس أدخل أنا أيضا . وتستطيعى أن تتصورى مبلغ شوقى ورغبتى فى دخول الكشك فى تلك الساعة عشان أقدر أحصل على مسدس .. الميدان كان ساعتها مليان ناس ، عدد كبير جدا من الناس ، وما شعرت بنفسى إلا وأنا بابحث عن باب الكشك .. لقيته ولقيت ناس داخلين فيه .. دخلت ، دخلت كده من غير أى تفكير ولا عقل .. كان فيه إحساس غريب كبير بيحركنى .. الكشك من جوه كان مظلم وكان الواحد أول ما يدخل يلاقى أوضه كبيرة واسعة من غير شبابيك وفيه باب بيؤدى إلى أوضة ثانية جوانية .. ويدوبك أصبحت فى وسط الأودة البرانية ومعايا ناس إلا وسمعنا أصوات غامضة .. تك .. تك ..

تك .. سريعة وورا بعضها . أنا عمرى ما سمعت متراليوز بيضرب ، وماكنتش أتصور أن صوته لما يضرب بيكون واطى كده .. شعرت برهبة شديدة :. وجدت الناس خارجين من الأوضة الجوانية جرى ، وبعضهم بيقع على الأرض وينام ، وبعضهم بيصرخ و كل اللى قادر يجرى بيجرى .. فجريت خرجت بره وفضلت أجرى بعيد عن الميدان والحتة كلها لغاية ما طلعت على الكورنيش وأنا مذهول ومش فاهم حاجة ومش عارف حاجة . اعتقدت إنى لازم أصبت ولسه لم أشعر .. وأنا كنت سمعت إن الواحد لما بيضرب بالرصاص لا يشعر بإصابته فى الأول . فتشت جسمى كله لقيتنى سليم ، ومن غير ما أدرى لقيت نفسى راجع للميدان .. ولقيته ساعتها منظره رهيب جدا . الكشك ولو إنه كان كشك استعلامات كل ما فيه أشغال مدنية ، إلا أنه كان فيه أربع عساكر إنجليز ومعاهم أربع متراليوزات وقاعدين مستعدين فى الأوضة الجوانية من الصبح ، ومنتظرين الناس لما يدخلوا عليهم فيروحوا فاتحين عليهم المدافع .

فلما الناس جريت ومات اللى مات واتعور اللى اتعور ، العساكر خافت وراح كل واحد منهم مصوب مدفعه من شباك ونازل ضرب فى الناس اللى فى الميدان علشان يبعدهم عن الكشك .. وفى دقيقة كان الميدان اللى كان بيموج بالناس فضى خالص . كل أصحاب البدل اختفوا لما أصبحت الحكاية جد .. و كل أصحاب الجلاليب استخبوا فى مداخل العمارات اللى بتطل على الميدان ، وتعرفى مين اللى فضل واقف لواحده فى الميدان والضرب شغال من كل ناحية ؟ تعرفى مين ؟ الأولاد اللى الإنسان لا يعرف لهم أهل ولا يعرف لهم لبس ولا صنعة . عيال صغيرين أكبر ما فيهم لا يزيد عن ١٥ سنة .. سمر ومعفرين وشعرهم منكوش وهدومهم خرق .. يعنى اللى فضل هم اللى بيسموهم الغوغاء .

وقفت أنا فى مدخل عمارة قريبة ، وكان ممكن أضرب وكان ممكن أموت ، وكان عقلى بيراودنى أن أرجع إنما كانت قوة خفية بتمنعنى منع عن الحركة . وقفت أتفرج ، المدافع نازلة ضرب والأولاد غير مكترثين إطلاقا ونازلين ضرب بالطوب والحجارة .. تصورى ! بيضربوا طـوب قصاد متراليوزات .. والحاجة المذهلة إن الواحد منهم كان يصاب زميله اللى بيضرب جنبه ويقع ويموت وهو واقف ونازل ضرب بالطوب ..

وبعد شوية لقيوا إن الطوب أصبح لا يجدى .. فبصيت لقيت واحد منهم راح قالع جلابيته الخرق وبلها بنزين من عربية واقفة ووطى وفضل يجرى لغاية ما قرب من الكشك وراح رامى الجلابية المولعة من الشباك جوه الكشك ، وكان ده بداية تحول فى المعركة .. بقى الأولاد يجروا ويجيبوا أى حاجة .. ورق .. خرق .. خشب ، ويبلوها بنزين من العربيات ويجروا والرصاص حواليهم وفوق دماغهم كأنه ناموس بالضبط ، ويفضلوا يجروا ومش يحدفوها من بعيد وخلاص ، لأ يصروا على أنهم يوطوا خالص لما يقربوا جدا من الكشك ويروحوا حدفينها من نفس الشبابيك اللى بتضرب منها المتراليوزات .

لما اشتدت المعركة بقوا يدخلوا محل الحلوانى المطل على الميدان . ويجيبوا كراسيه ويولعوا النار فيها ويطلعوا وهم بيصرخوا صرخات الحرب ويجروا ويرموها على الكشك .

وبدأت النار وامتلأ الميدان دخان .. دخان كثيف جدا . وأصبحت المنطقة كلها مليانة دخان ورصاص ونار وصراخ وتكتكة متراليوزات .. وفى وسط الدخان ، وفى وسط الهول دا كله تبصى تلاقى العيل من دول أسمر لونه زى التراب وعريان وجسمه مهبب وبيزحف على بطنه وشايل كرسى مولع والرصاص حواليه وهو ماشى بالكرسى فى ثقة واعتداد ومصر على توصيله لحد الكشك .

وفى مدخل العمارة اللى كنت واقف فيه مع الناس كنا عمالين نبص ونستعجب ونخبط كف على كف . كنا زى ما نكون بنتفرج على أبطال قصص خرافية عمالين يقوموا بأعمال خارقة قدام عينينا . كان شيء عجيب يذهل . كانت لحظة من اللحظات اللى تشوف فيها شعبنا .. الشعب اللى بيقولوا عليه طيب ومستسلم .. اللى بيقولوا عليه ساذج ومتسامح .. تشوفيه فيها عملاق .. تشوفيه فيها مارد لا يمكن لأى قوة أن تقتله .. تشوفيه فى العيال اللى كان أكترهم يمكن يومها مافطرش واللى كان الرصاص بيدبحهم دبح ، وعمالين يقاوموا ويحاربوا وعارفين إنهم بيحاربوا الإنجليز ، وعارفين إن الإنجليز معاهم مدافع وإنهم هم مماهمش حاجة ، ومع هذا مصرين على حرق الإنجليز الأربعة اللى قتلوا الناس مهما مات منهم . كنت واقف وجسمى فيه حمى ، وعينى بتشوف حلم غريب تكشف لى فيه شعبنا على حقيقته .. كتير جدا شفناه فى أوقات ضعفه وكتير كنا بنلعنه ونستهين به ، إنما كنت عايز كل اللى بيمطوا شفايفهم لما تيجى سيرة الشعب .. كنت عايزهم يكونوا هناك ويشوفوا الميدان مليان جثث .. شبان وطلبة وعمال مفروشه جثثهم على الأرض والإسعاف عمالة تحول .. كانت بتيجى عربية الإسعاف مش تشيل واحد وتمشى ؟ لأ .. كانت بتنتظر لما تتملى جثث وتطلع وييجى غيرها يتملى ويمشى .. والناس مش عايزة تتحرك من مكانها .. والغوغاء اللى بيقولوا عليهم عمالين يتقتلوا ومابينتهوش كان بيتهيأ لى إنهم بيزيدوا .. كان بيتهيأ لى إنهم عمالين ينضم لهم أولاد من تحت الأرض فعلا . كل العيال اللى فى إسكندرية كل ما كانوا يسمعوا وهم بعيد عن المعركة كانوا بييجوا جرى عشان ما تفوتهمش . والعجيبة إن فى وسط دا كله ، فى وسط الموت والدم والدخان والرصاص فجأة تحولت أنظار الأولاد إلى طيارة ركاب كانت فايته واطيه جدا وقعدوا يبصوا عليها ويشاوروا ويهللوا ، فى نفس الوقت اللى

يضربوا فيه بالطوب ويبرموا الخرق المولعة . وكان البوليس المصرى جه ووقف فى أول شارع سعد .. ما كانش بيعمل حاجة أبدا ، وكان العساكر والضباط شايفين الأولاد الأبطال عمالين بيقعوا واحد ورا التانى وهمه حينفجروا من الغيظ .

وحاولنا أن نقنع ضابط إنه يتدخل ويأمر العساكر المسلحين بضرب الإنجليز ، فبقى يكاد يبكى وهو بيقول إنه لا يستطيع ، وإنه ليس لديه أوامر .. بل بكى فعلا .

ونجح الأولاد أخيرا .. الكشك ولع كله وبقى كتلة نار . ونط اتنين من العساكر اللى كانوا جواه رافعين أيديهم وسلموا نفسهم للبوليس فأحاطهم بقوات كبيرة علشان يقدر يحافظ عليهم .. وبقت بنادق العساكر المصريين هى المرة دى اللى بتضرب عشان تحمى الإنجليز .. والعسكرى التالت ما طلعشى أبدا وقالوا بعد كده إنه اتحرق .

أما العسكرى الرابع فنط من الشباك اللى كان قريب من العمارة اللى كنت واقف فى بابها وطلع جرى . فواحد ابن بلد اسكندرانى كان واقف جنبى فى مدخل العمارة طلع جرى وراه وراح مشنكله فوقع فى الشارع ، فراح بارك فوقه وحط رجله على صدره وطلع من جيبه مطوه لها سلاح طويل وسنها شوية على حجر الرصيف ، وبعدين راح دابحه من الودان للودان . ومسح المطوة وحطها فى جيبه ، وتف على العسكرى ومشى .

بعد كده شفت العسكرى ده فى المستشفى الأميرى كان راقد فى أودة كبيرة قوى ومليانه جثث الشبان والأولاد اللى ماتوا .. كان ضخم زى العجل وراسه كبيرة وشعره أحمر وزوره مقطوع لغاية العضم .

تانى يوم رحت الكلية لقيت الطلبة عاملين مؤتمر . ومؤتمرات زمان كانت أكاديمية قوى فكان العميد والأساتذة بيحضروها . قعدت أسمع .. وكان فيه

أستاذ بيخطب .. كان لابس بدلة نظيفة قوى وقميصه بيلمع ووشه محلوق ناعم وعمال يتكلم بصوت واطى وبرزانة مصطنعة عن أن القوة مش ممكن تخرج الإنجليز .. وإننا لو حسنا أخلاقنا ومعنوياتنا وروحانياتنا فلن يستطيع الإنجليز البقاء فى بلادنا .

فقمت واقف وقلت : ده كلام فارغ . فبان على وجهه الغضب الشديد مش لأنى باسخف كلامه إنما لأنى قاطعته وخرقت النظام .. فراح قايل : اللى عايز يتكلم يبقى ييجى هنا ويتكلم .. يجب أن نتعلم النظام لأن النظام هو الذى سيخرج الإنجليز . إحنا علشان شعب فوضى ظللنا مستعمرين .. مين عايز يتكلم ؟ انت ؟ تعالى .

وشاور على فرحت قايم فى عاصفة من تصفيق الطلبة لأنهم كانوا الظاهر متضايقين جدا من كلام الراجل .

وصلت إلى المنصة وأنا كنت يومها عمرى ما خطبت ولا أعرف أخطب ازاى . ولكن اللى حصل إنى انفجرت ، وكل ما قلته كان هو اللى شفته فى محطة الرمل . كنت باتكلم بحماس فقط . كنت بقول اللى حسيته واللى آمنت به . ومش فاكر أنا قلت إيه إنما فاكر إنى أنهيت الخطبة بحاجة زى كده : لن يخرج المحتل إلا بالقوة وبالقوة فقط سيتحرر الشعب .

واستقبل الطلبة كلامى بتصفيق وهتاف كالرعد وفضلت الهتافات أكثر من ربع ساعة . والظاهر إن الأستاذ لم يعجبه أن يهزم أمامى فبعدما هدأت الهتافات طلع على التختة بطريقته اللبقة المهذبة علشان يرد على الخطبة الطويلة بتاعتى .. فمسك طباشيرة وكتب ردا على كلامى من أن القوة وحدها هى طريق التحرر ، كتب : العلم = قوة ..

وراح قاعد تانى ..

وهلل الطلبة وأعجب بعضهم بالرد واعتبروه بليغ .

وتملكنى ضيق شديد وحماس ، فرحت طالع وماسك الطباشيرة وأضفت الكلمة دى :

العلم « فى بلد مستقل » = قوة

وهاج المدرج وماج .

وكان سيعقب المؤتمر انتخاب مندوبين عن الكلية فى اللجنة التنفيذية للجامعة كلها وانتخبت .

وكان ده أول الطريق ..

٨

كان حمزة يتحدث وينساب التاريخ القريب من بين شفتيه ويغرق فوزية فى فيض من الأحداث والمواقف والذكريات ، وتتشنج أصابعه وهى تحدد وتجسد ، وتتحرك أيديه ملوحة ، ويتقارب حاجباه ويتعدان ، ويهتز منظاره ، وترتجف نبرات صوته وترتعش وكأنها لا تنطق الكلمات فقط ، ولكنها تعزف أيضا لحنا عارما يصاحب ما كان ويخلد المواقف .

وكان حديثه يملأ الحجرة بالأحداث ، ويحيل الأثاث إلى مواقع ، والجماد إلى كائنات حية تقاوم وتصرخ وتموت . ولهذا مضى وقت طويل قبل أن تكف فوزية عن تحديقها فى لا شىء وتسترد نفسها وتعود إلى الحجرة ، وإلى الليلة ، وإلى الدق ، وتنظر إلى حمزة الجالس أمامها لا يتحدث ولا يتحرك ولا تطرف عيناه .

وقالت :

— ياه !.. دا فعلا لينا تاريخ .

فرد حمزة فى بطء :

ـــ تاريخ وبس ؟

وسبح كل فى واد ، ثم عادا حين قالت فوزية :

ـــ أنا قلت لغاية الساعة تمانية ودلوقتى قربت على عشرة .

وأضافت بلا حماس :

ـــ لازم أروح .

وفى خطوات تعبة تكاد تتخاذل أخذت طريقها إلى باب الحجرة الذى كان مغلقا .

وفتح لها حمزة الباب وخرج الضوء من الحجرة ينير جزءا كبيرا من الصالة ، وسقط النور على كرسى فيها وعلى إنسان ضخم جالس فوقه .. كان بدير .

ـــ الله .. انت هنا ؟

ـــ آه مارضتشى أزعجكو .. قلت أقعد هنا أما تخلصوا .

ولم يكن هناك وقت .. سلمت فوزية وأسرعت خارجة وظل بدير جالسا فى مكانه .

وما كاد الباب يغلق حتى دق الجرس وفتح حمزة .. كانت فوزية .

ـــ أنا نسيت حاجة .. نسيت آخد الشنطة .

ـــ تخديها إزاى ؟ مش ممكن .

ـــ والله مش عايزة نقاش كتير .. حاخدها يعنى حاخدها .

ـــ توديها فين ؟

ـــ عندنا .

ـــ عندكم . بس ؟

ـــ عندنا كويس جدا .

ورأى حمزة من تصميمها ومن نظراتها أنها لن تتزحزح عن قرارها .

فمضى إلى حجرة النوم وعاد حاملا الحقيبة الكبيرة . وكان بدير ينظر ولا يتدخل ولكنه قال :

ــ الله .. إيه الحكاية ؟

فقال حمزة :

ــ أصل سميحة حتاخد هدومى عندها .

ــ وليه ؟ وده يصح ماهو ده بيتك يا أخى ..

ــ لا أصل الهدوم عايزه غسيل .. و ...

ــ ما الغسالة اللى بالكهرباء هنا .. أهه .. أغسلهملك دلوقتى .

ــ لا .. لا .. معلش .. كده أحسن .

وردت فوزية :

ــ معلش يا أستاذ بدير علشان خاطرى .

فقال بدير :

ــ يا ستى الغسالة هنا والله .. فى نص ساعة تغسل ياما ..

ــ معلهش .. المرة الجاية .

ــ آه .. الظاهر دى بقى والله حاجات خاصة ما اعرفهاش إنتوا أحرار .

وشدت فوزية على يد بدير ، ولمعت عيناه كثيرا وقبضتها القوية تغوص فى أصابعه المنتفخة بالسمنة .

وعاد حمزة بعد أن أوصل فوزية وأركبها عربة .. وما كاد يغلق الباب وراءه حتى ابتسم بدير ابتسامة حملها كل ما يملكه جسده الضخم من مكر ، وقام واقفا وأمسك بكتف حمزة قائلا :

ــ قوللى بقى يا شاطر .. كنتوا بتعملوا إيه ؟ أظن حتقوللى درس ؟

وابتسم حمزة فى رثاء ولم يجب ، فاستأنف بدير جادا هذه المرة :

ــ صحيح قول لى يا حمزة .. وصلت معاها لفين ؟

ـــ هى مين ؟

ـــ احنا حنلف على بعض ؟ وصلت والا ما وصلتش ؟

ـــ يا جدع بلاش هزار فى الحاجات دى .

ـــ بستها ؟ أنا ميهمنيش حتى إذا كنت وصلت إلى ما بعد البوسة .

ـــ يا بدير بطل كلام فارغ .

ـــ وحياة أبوك لانت قايل .. عملت معاها إيه ؟

و لم يأبه حمزة بالرد عليه ونفض يده منه . وتجسدت له الحكاية مرة أخرى وبصورة جذابة جديدة . وراح عقله يدور حول نفسه ونغمات حزينة تتصاعد من وجدانه وأنات وعذابات وقهر .. تلك الشابة الممتلئة بالحيوية والحركة ذات الجسد الدقيق والملامح الدائمة الانفعال الدائمة الابتسام .. تلك الشابة الصغيرة قد أصبحت عزيزة جدا عنده .. حتى بعد جلسته الطويلة تلك معها لا يزال يهفو إليها كما يهفو مدمن التدخين إلى سيجارة الصباح ويحن إلى وجودها كما يحن عباد الشمس إلى الشمس والنبات إلى الماء ، وكما يحن الغريب إلى أرض الوطن .

لماذا كلما تذكرها يدوخ تفكيره ويكاد يهوى ؟ لماذا إذا خطرت بعقله تخطر خلسة وخلف ستار وكأنها جريمة ؟

وقال بدير وهو يدخل فى بنطلون بيجامته :

ـــ قوللى يا حمزة ؟

وقال حمزة دون انتباه :

ـــ إيه ؟

ـــ إلا بشرفك وشرف والدك ما عملت فى البنت دى حاجة ؟

ورد حمزة فى غضب لا يستدعيه الموقف وبلهجة حادة :

ـــ بطل تخاريف يا بدير .. وبلاش سخافة فاهمنى ازاى ؟

— يعنى مؤدبة ؟

— دى من أحسن البنات اللى قابلتهم فى حياتى .. وانا أمنعك إنك تتكلم عنها بالشكل ده ، فاهمنى ازاى ؟

— أمال بتسلم على الواحد كده ليه ؟ مؤدبة يعنى ؟ انت وذمتك بقى .

وأخيرا رقدا جنبا إلى جنب فى الفراش وكان السرير يحتل منتصف الحجرة ، والغرفة وثيرة فيها أشياء كثيرة أنيقة ولكن لا روح فيها ولا انسجام .

وكان بدير يقلب صفحات « المصور » كعادته حين يستعد للنوم ولكنه لم يكن يقرأ ، وفجأة ألقى المجلة فوق « الكومودينو » واستدار إلى حمزة ، واستجار السرير وهو يستدير :

— قوللى يا حمزة .. هو فيه قاعدة إنه إذا كان الواحد بيحب واحدة يبقى لازم تكون بتحبه ؟

— لأ .

— طب يعنى مثلا افرض مثلا ، مثلا يعنى إنك بتحب واحدة وعايز تعرف إذا كانت بتحبك والا لأ تعمل إيه ؟

— أنام .

— لا .. أنا بتكلم جد .

— وانا بتكلم جد .

— أمال أنام إيه يعنى ؟

— تنام شوية فتصبح الصبح أعصابك أهدأ وتقدر تفكر .

— وإن ماجنيش نوم ؟

— تاخد منوم .

— بيعمل صداع .

— تاخد سم .

ــ طبعا .. ما هو المسألة يايكون فيها وطنية وكفاح يا بلاش .. يا كلام فى السياسة يا مافيش كلام .. يا أخى ما تفضونا بقى وتخلوا الناس يكلوا عيش .

ــ متخلى انت الناس تنام .

وكان حمزة فى الحقيقة لا يريد أن ينام ولكنه يريد أن يهدأ كل شيء ويبقى عقله يعمل ، يريد أن يستعيد الغيبوبة اللذيذة التى يدللف إليها كلما اتخذ فوزية مادة لتفكيره . كانت أحاسيس متناقضة تحاصره ، كان يريد أن يسبح إلى كل ما يستطيع أن يصل إليه خياله من مدى ، وكان شيء ما فى نفسه يكبحه ويوقفه ويبعث فى نفسه رهبة وخوفا . كان يحس أنه شيئا فشيئا لم ينظر إلى فوزية كزميلة فى الصف ، كان يحس أنه شيئا فشيئا تبدو له المرأة التى فى الزميلة ، وكلما بدت حاول طردها ، ويهرب منها إن فشلت محاولته . ولكنه مهما يفعل فإنه يغوص دائما إلى التفكير فيها .. فى الزميلة المرأة المكافحة الجميلة المتجددة الحيوية الدائمة الانفعال .. وانتبه على قول بدير :

ــ بس والله يا حمزة انت ما تعرفش أنا باقدرك قد إيه ؟ أنا بيعجبنى تفكيرك جدا .. وبيعجبنى الذكاء اللى بتعالج بيه المشاكل .. ففيه مشكلة أهيه .. إن كنت جدع حلها .

ــ مشكلة إيه يا بدير بس ؟ الساعة تيجى واحدة .. خلينا ننام .

ــ يأأخى ما طول عمرنا بننام جد علينا إيه ؟ اسمع .. والنبى لانت سامع .

ــ إيه ؟

ــ فيه واحد صاحبى واقع فى مشكلة .

ــ يا أخى وده وقته ؟ ما صاحبك ده يستنى للصبح حيموت يعنى ؟

ــ أصلها بجد مشكلة حياة أو موت .

وهنا جلس حمزة فى الفراش ومد يده وظل يبحث عن زر النور المغلق فى السرير حتى وجده ، وأشعل النور وقال :

ـــ خلاص بلاش نوم .. نحل المشاكل .. آدى النضارة ونـدور على السيجارة الباقية .

وأشعل السيجارة وراح ينظر إلى بدير الذى كان يرقد بجسده المرتفع كجسد الدرفيل ، والذى لم يعتدل و لم يحرك رأسه من فوق المخدة ، وإنما قال وعيناه تائهتان فى السقف مفتوحتان كالفنجان :

ـــ اسمع .

ـــ إيه ؟

ـــ افرض إنك بتحب واحدة جدا .

ـــ طيب فرضت .

ـــ وما تعرفش إذا كانت بتحبك والا لأ .. تعمل إيه ؟

ـــ أولا ـــ أنا مش سفسطانى علشان أقعد أفرض حاجات فى الهواء .. لازم أعرف إيه هي المشكلة ؟ ومين صاحبها ؟

ـــ ثانيا ـــ ماتحاولش التنكر لأن عيبك إنك كداب فاشل ومش معقول ، يعنى إنسانيتك تحبك دلوقتى وتهتم بواحد صاحبك ومشكلته الساعة اتنين . فقوللى بتحب مين بقى سعادتك ؟

ـــ والنبى بلاش الحداقة دى ياخى .. والا إيه يعنى ؟ افرض حتـى الشخص ده هو أنا .. افرض إن أنا بحب واحدة وعايز أعرف إن كانت بتحبنى والا لأ .. افرض ..

ـــ ما افرضش .. بتحب واحدة فعلا والا لأ ؟

فسكت بدير طويلا وأطبق أجفانه على عينيه ثم حملق فى السقف وقال :

ـــ اظن كده .

ـــ بتحب مين ؟

ـــ واحدة .. حلوة .. قوى قوى .. بحبها .. جدا .

ونام .

ولم يكتشف حمزة أن بدير كان نائما وهو يحدثه إلا بعد فترة . فأطفأ النور وظل جالسا يحلم وأحيانا يضحك وأحيانا أخرى يفكر جادا فى إيقاظ بدير وقضاء بقية الليلة فى الحديث .

٩

وفى السابعة من صباح اليوم التالى كان بدير لا يزال نائما أيضا ، وكان حمزة يقوم باحتياطاته اليومية ففتح نافذة حجرة المكتب قليلا وتمم على البوابين الموجودين فى العمارة المقابلة واطمأن إلى أن عددهم لم يزد مخبرا . ثم فتح النافذة كلها بحيطة وأطل برأسه وراقب أبواب البيوت الممتدة أمامه كلها والمكوجى والبقال ، ثم أخرج رأسه كثيرا ليتمكن من رؤية صف المنازل الذى توجد فيه العمارة واطمأن أخيرا إلى أنه لا جديد هناك وأنه لا تزال أمامه بحبوحة من أمان .. وراح يتجول فى الشقة .

لم تكن به حاجة إلى التجول فالصباح كان له برودة الثلج ، والشقة كانت مظلمة ونوافذها مغلقة والبرد يفرخ فى ظلامها ويتكاثر ، وهو قد اكتفى « بالبلوفر » الذى ارتداه فوق البيجامة وكان يأبى أن يرتدى أحد أرواب بدير الصوف ذات الدفء الفاخر المعلقة فوق الشماعة ، فقد سمعه يقول مرة إنه لا يحب أن يستعمل أحد أشياءه .. ولهذا فمن لحظة أن وضع قدمه فى الشقة لم يتطفل على شىء من أشيائه حتى الفوطة ، لم يكن لديه فوطة وجه فكان يجفف رأسه ووجهه فى « جاكتة بيجامته » النظيفة ثم يغسلها ويعلقها حتى تجف .

ورغم البرودة فلم يكف عن تجواله .. كان هناك شىء يؤرقه فلا يستطيع

معه أن يستقر على قرار أو مكان . فتح حجرة المكتب .. كان مزيج من النور والظلام يغطى المكتب ذا السطح الزجاجى اللامع والفوتيل الذى أمام المكتب .. هناك جلست مرارا . ثم حجرة النوم ، بدير لا يزال يغط فى نومه وقد اختلى بالسرير ومد أطرافه كلها إلى آخرها ليستمتع بالفراش .. هرم الحقائب موجود تنقصه الحقيبة الكبيرة .. ترى أين ذهبت بها ؟

وغادر حجرة النوم واتجه إلى المطبخ .. المنضدة الرخامية البيضاء والفريجيدير .. والبوتاجاز لا يزال يحمل سطحه آثار القهوة التى كان يصنعها بالأمس .. القهوة .. ما أجملها حين تشرب القهوة ويحمر وجهها .. وتبتسم وتتسع عيناها الضاحكتان بالتساؤل وبالدهشة . ودق جرس الباب وفتحه وهو نصف ذاهل .. وتسلم اللبن وأخذ الجرائد التى دسها البائع منذ الصباح الباكر أسفل الباب وراح يعد الإفطار .. فقد كان من العبث أن ينتظر حتى يصحو بدير ، وغلى اللبن وأعد الشاى وحفلت المائدة الراقدة فى ركن من الصالة بأدواته ، وأيقظ بدير وجلسا أخيرا يتناولان الطعام ويتبادلان الجرائد .

وقال له بدير وهو يغادره إلى المكتب إن الخادمة العجوز ستأتى وأعطاه نقودا لكى تعد لهما « صينية » فى الفرن .

وانكب حمزة على الجرائد حين أصبح وحده .. وكان له غرام غريب بقراءة الجرائد ، كان يقرأ الصفحة حرفا حرفا ولا يدع شيئاً إلا وفكر فيه وحلله ، ولا يدع خبرين إلا استنتج منهما ثالثاً .. وكان ولعه بالأخبار جزءاً صغيراً من حب استطلاعه الكبير .. كان به شغف دائم إلى معرفة الحادث حتى قبل وقوعه وإلى الاستماع للخبر من أكثر من مصدر حتى يصل إلى حقيقة أمره .

غير أن انكبابه لم يطل .. فقد وضع الجرائد جانبا وخلع منظاره وفرك

عينيه و لم يرفع أصابعه عن عينيه ، بل ظل واضعهما فوق مقلتيه وقد أسند رأسه إلى ظهر الفوتيل وقتا غير قليل . كان يؤنب نفسه كثيرا .. كيف سولت له تلك النفس أن يحس بإحساسات أخرى غير رباط الكفاح بينه وبين فوزية ؟

كيف ؟

وضايقه الجلوس .. فقام وظل يدور فى الشقة .

ودق الجرس .

وفتح .

ودخلت المرأة .

وعاد إلى جلسته على نفس الفوتيل فى مكان فوزية المختار . وأحيانا تبدو حلول أعقد المسائل فى ومضة .. وكان هو قد استقر على حل .

إنه رجل يؤمن بالعلم ويؤمن بالحب ويؤمن أن الناس وجدوا ليحيوا ويحبوا ويسعدوا ، فليس عيبا أن يحب فوزية إذن . ولكن هل هو يحبها فعلا ؟ وهل ممكن أن يقع إنسان مثله فى الحب بمجرد أن يقابل فتاة مثلها بضع مرات ؟ أليس الحب عشرة وتجربة هائلة تذيب الإنسان فى الإنسان ؟ وأين هذا مما بينه وبين فوزية ؟

وأتاح له الصباح أن يجعل عقله أكثر سيطرة على نفسه ، خاصة وأن الصباح كان باردا برودة ترد الصواب ، برودة تجعل الإنسان يرى الأشياء فى وضوح ، بل وتفقد أشياء كثيرة ما يحيطها من بريق وتبدو على صورة أقرب ما تكون إلى الواقع الذى مسح عنه الخيال .

ليس هكذا تخيل الحب ، ولكن ما يحس به ناحية فوزية ليس عبث أطفال أيضا ولا هو وهم .. إنها أحاسيس حقيقية تجرفه وتغرقه وتأخذ عليه كل مسالك تفكيره فلا يملك أمامها إرادة ولا روية ولا عقل . هذه حقيقة علمية

أخرى .. وهو رجل يؤمن بالعلم .

ولكنها حقيقة ناقصة إذ أنها لا يمكن أن تكمل أبدا .. ولا يمكن لهذه الأحاسيس أن تتجسد وتصبح حقا إلا إذا كانت هناك أحاسيس أخرى تقابلها عند فوزية .

فهل هناك أحاسيس مثل تلك ؟

وهل تحس فوزية ناحيته مثلما أو نصفما أو ربعما يحس به ناحيتها ؟

هل ؟

كان السؤال بسيطا ، حتى حرف الاستفهام فيه صغير وساذج ، ولكن الإجابة عليه تحتاج من حمزة ربما إلى مجلدات فكرية ومراجع ذهنية ضخمة إذ لم يكن هناك جواب واحد شاف . لم تكن هناك علامة واحدة أكيدة تنفى أو تؤيد . كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يراجع لحظة فلحظة وحركة فحركة ومرة فمرة كل ما دار بينهما وكل ما بدر من فوزية ناحيته ، نظراتها .. دائما فيها بريق ، ودائما عيناها لا تطرفان ولا يتطرق إليهما خجل .. نظرات دوغرى .. لا تخفى شيئا ولا تعنى غير ما ظهر منها .

كلامها .. واضح وصريح .. فيه الحماس البالغ .. فيه الثقة ، وليس فيه أى شيء آخر .

سلامها .. دائما له نفس قوته ، ودائما أصابعها تضغط نفس الضغطة وبنفس القوة . لم تمكث يدها فى يده أكثر من اللازم مرة ، ولم تتراخ قبضتها أو تلين مرة ، ولم يتدلل لها بنصر ولم يتشنج خنصر ..

أو .. أمن المعقول أنها كانت تعنى شيئا آخر حين سألته عن عمله ؟ ولماذا اهتمت بسؤاله ؟ أكانت بهذا معجبة به ؟ أممكن أن يحتمل السؤال واحدا على ألف من أى احتمال آخر ؟ وحين نظرت إليه وخجل من نظرتها ، ربما كان فيها شيء تلك النظرة .. ولكن أى شيء هو ؟ إعجاب ؟ احترام ؟ حب ؟

استنكار ؟

أممكن أن تكون البهجة التى تقابله بها ؟ ولكنها منذ أن عرفها تقابله مبتهجة ، وفى كل مرة نفس كمية البهجة لا تنقص ولا تزيد .

وحين جاءت أول مرة إلى الشقة ، لقد اتفقا فى مصر الجديدة أن تأتيه يوم الجمعة فجاءت الخميس قائلة إنها كانت فى زيارة صديقة ، أممكن أن يكون هذا صحيحا ؟ أم أنها حجة ؟ وإذا كانت حجة .. أممكن أن يكون الدافع إليها سببا يمت إلى العاطفة ؟

أممكن أن يكون إصرارها على الحضور إليه وفى المواعيد بالدقة يحمل هدفا آخر غير ارتباطهما فى معركة ؟ خاصة وإن هذا الارتباط قد ضعف بضعف اتصالاته ؟

أممكن أن يكون تنفيذها الدقيق الرائع لكل ما يكلفها به يحمل طاعة غير الطاعة التى تفرضها علاقة الجندى نحو زميله وقائده ؟

أممكن كل هذا ؟

كان حمزة قد وصل فى تفكيره إلى آفاق مثل تلك وأبعد ، ولكنه كان كعادته يوغل فى الخيال والافتراض ثم يعود به برد الصباح إلى طبيعته التى تأبى أن يتحكم فيها شىء غير العلم . والعلم يقول إن أقصر ما يوصل بين نقطتين هو الخط المستقيم . قد يكون أصعب الطرق ولكنه دائما احسنها . فليجرب إذن الخط المستقيم .

وحين انتهى إلى هذا استراح وانطلق بلا وعى يصفر وغادر مكانه وذهب يبحث عن الصعيدية العجوز وقد شعر برغبة فى الحديث وفى الضحك بل وفى الغناء .

ولم يجد المرأة إنما وجد « السلطة » معدة والشقة أرضها تلمع بالغسيل والمسح .

وفى هدوء سمع المفتاح يدور فى الباب . ودخل بدير يحمل كيسا من البريقال « أبو صره » الضخم الحجم .

ــ الله .. حمدالله على السلامة ! يعنى جيت بدرى النهارده .. الساعة بدوبك اتناشر .

ــ والله بصيت لقيت نفسى زهقان يا حمزة .. الواحد الأيام دى ملوش نفس للشغل مش عارف ليه .

ــ ليه ؟

ــ لازم ليلى التى فى الدق مريضة !

ــ ليلى مين يا شيخ ؟ انت عارف أنا باتأثر من الحاجات دى .. ما يغركشى دا محسوبك واد تقبل يعجبك .

ــ إزاى !

ــ أنا مش امبارح كنت باسألك عن حكاية .

ــ آه .

ــ النهارده لقيت الحل .

ــ بالذمة ؟إيه ؟

ــ الحل بسيط جدا .. مفيش داعى الواحد يتعب نفسه ويحاول يعرف .. يستنى ويتقل لما هى من نفسها تقع بعضمة لسانها وتتكلم .

ــ يعنى لما تعترفلك هى بحبها ؟

ــ لأ مش للدرجة دى .. لما بيان عليها قوى .. حاكم الحاجات دى عايزة تقل .

ــ معقول .. معقول جدا .

ودخل بدير حجرة النوم وعاد وقد ارتدى الروب وهو منهمك فى تقشير برتقالة ضخمة ، وقال وفمه ممتلىء بنصفها :

ـــ هى الولية فين ؟

ـــ خالتك أم عبده . لازم راحت تجيب الصينية .. مافيش أخبار خاصة ؟

ـــ مافيش .. بس فيه إشاعة كده أن الوزارة حتستقيل .

ـــ ماهى أدت دورها .. خلصت على المعركة وأعلنت الأحكام العرفية .

ـــ والله الحكاية بقت نيله قوى .. تفتكر يعنى حنفضل كده على طول ؟

ـــ طبعا لأ .. بس لا يمكن حايحصل أى تغيير إلا إذا استؤنفت معركة القنال .

ـــ يا جدع بطل بقى .. ماراحت الهوجة بتاعة زمان دلوقتى والناس خلاص سكتت ، وكل واحد بيقول ابعد عن الشر وغنى له .

ـــ أبدا .

ـــ أبدا ازاى ؟ كل الناس كده .. ما انت أهو مثلا .. كنت عامل زى النحلة زمان وادى انت مستخبى وساكت دلوقتى .

وضحك حمزة وسأله :

ـــ إنت فاكر ان أنا مستخبى خايف من الحكومة ؟

ـــ أمال يعنى أنا اللى خايف ؟

ـــ انت لسه برضه مش فاهم يا بدير .. أنا مختفى وباتفادى القبض على مش علشان خايف من السجن أو الاعتقال .. أبدا .. أنا شايف بس إن الشعب محتاجنى ومحتاج لغيرى عشان ننظمه وندخل بيه معركته الفاصلة ، ولذلك أنا باعتبر نفسى أمانة من أمانات الشعب لدى نفسى لازم أحافظ عليها ولازم أحميها عشان تقوم بدورها .

ـــ انت يا أخى عايز تمخولنى والا تاكل بعقلى حلاوة ؟ بقى عايز تقول ان نفسك يعنى أمانة لدى نفسك .. إيه يا خويا الكلام ده ؟

ـــ بعدين نبقى نتناقش فى المسألة دى .. بس المهم دلوقتى إنك توافقنى

على إننا لا يمكن أن نتخلص من الوزارات الخاينة دى إلا باستئناف الكفاح المسلح ضد الإنجليز ، لأن هم العدو الأساسى .

ـــ والله ما اعتقدش .

ـــ ليه ؟

ـــ ما اعتقدش .

ـــ ليه بس ؟

ـــ مزاجى كده ! الله ! أنا حر يا أخى فى مزاجى .

ـــ طيب أمال تعتقد إيه ؟

ـــ أصل شوف .. على ماهر ده راجل ناصح قوى .. دا أنا أعرفه معرفة عائلية واحنا حتى نسايب .. رجل ناصح قوى لازم تلقاه موضب مقلب محترم .. مش ده المهم .. الواحد جعان قوى .. الله يخرب بيتك يا ام عبده .. يكونشى الولية غلطت وبدل ما تروح الفرن راحت جهنم .

وجلسا إلى المائدة فى انتظار هلال « الصينية » . وكان حمزة ساخطا على ذلك التأخير فقد كان يريد أن ينتهى الغداء بسرعة حتى يغادر بدير الشقة مبكرا بعد الظهر ليكون أمامه متسع من الزمان والمكان لما قرر أن يقوم به .

ولكن بدير لم يزعجه التأخير بل بدا مستريحا إليه ، ولا يهمه إن لم تأت أم عبده أبدا .. وكان هذا غريبا .

وزالت الغرابة حين جاءت الصينية وتناولا الغداء واقتربت الساعة من الرابعة و لم يبد على بدير أية علامة تشير إلى أنه يود التحرك من مكانه ، وحين سأله حمزة مذكرا إياه بميعاد المكتب قال وكأنه يفضى بشىء مفروغ منه :

ـــ والله مكسل النهارده .. مش رايح .. مليش نفس .. إيه اللى الواحد نخده يعنى ؟ الصبح فى المحاكم وبعد الظهر فى المكتب .. نفسى فى يوم كده ما أروحش .. نفسى كده .. حيجرى إيه ؟ حتخرب الدنيا ؟ أقله الزباين

تعرف قيمة الواحد .. مش رايح .

وكان عناده هذا الذى يشبه عناد الأطفال مثار ضيق شديد لحمزة . فمع أنه لم يكن بينه وبين فوزية أى ميعاد إلا أنه كان يعتقد تماما أنها لا بد قادمة فى الخامسة من ذلك اليوم .. ليس هذا فقط بل أن ما سوف يدور فى تلك المقابلة خطير خطير ، وإذا بالاستاذ بدير هكذا وبدون مناسبة يحرن .

وحاول حمزة بشتى الطرق أن يثنيه عن عزمه هذا وأن يجمل له الخروج ويبتكر له محاسن لا يتصورها فى عمل ما بعد الظهر ، ولكن بلا فائدة ..

وانتهت المحاولات بخفيف الأقدام الذى دق له قلبه بشدة هذه المرة ، وبالشبح الحبيب يبدو على زجاج الباب .. وكالعادة وقبل أن تدق الجرس كان حمزة يفتح وكانت فوزية أمامه متعبة مبتسمة ، وفى ابتسامتها الحياة وحتى فى تعبها نشاط ما بعده نشاط .. ولاحظ حمزة بريقا غريبا جديدا فى عينيها .

ودخلت ، وارتبك بدير ولم يستقر فى مكان واحد ، غادر الحجرة وما كاد حمزة ينفرد بها لحظات حتى كان قد عاد وعلى فمه ابتسامة وجلس دون أن ينطق حرفا ، ثم قام وعاد بعد قليل بزجاجة عصير الفواكـة المثلجـة والاعتذرات المرافقة لها وجلس ، وقبل أن يحدث شىء آخر قام حمزة وغاب وترك بدير صامتا مع فوزية الصامتة هى الأخرى ، وعاد يحمل الصينية وينقل قدميه باحتراس والقهوة يتصاعد بخارها من الكوبين والفنجان الصغير الذى كان قد صنعه لبدير :

وما كاد يضع الصينية حتى قال بدير من فوره :

ـــ تسمعى فريد الأطرش .. عندى كل اسطواناته ؟

فأجابت فوزية فى شىء قليل من الامتعاض :

ـــ لا .. إذا كانت عندك حاجة كلاسيك يبقى أحسن .. ولو إنى ..

وأرادت أن تقول شيئا ولكنها سكتت ..

وكان حمزة لا يتاح له أن يستمع إلى كثير من الموسيقى ومع هذا كان يختلس لحظات استماعه اختلاسا عند بعض أصدقائه ، وأحيانا كثيرة كان يذهب إلى متحف الفن الحديث حيث يستمع مع شلة المغرمين الدائمى الجلوس هناك .. يستمع معهم إلى بيتهوفن وموزار وبرودين ، ولكنه كان دائما يفضل تشايكوفسكى ويرى فى موسيقاه عواطف يعبر عنها بأقصى ما قد يستطيع فنان .

ولم يطمئن حمزة لبحث بدير فقام هو بنفسه ينقب معه فى درج الأسطوانات الملحق بجهاز « البيك آب » الأنيق ، ولم يجد من كل الموسيقى الكلاسيكية إلا « مارش العبيد » لتشايكوفسكى ، وكان لهذه الأسطوانة بالذات مكانة خاصة فى نفس حمزة فقد كان يرى فى نغماتها أنين البشرية كلها تحت لسعات العسف ، وبحثها المرهف عن المصير .

ودارت الأسطوانة .

وما بدأت تدور حتى أغلق بدير « شيش » النافذة ، وبقيت الحجرة فى شبه ظلام وجلس يستمع فى أدب ، ورغبته فى التأدب أكثر من رغبته فى الاستماع .

وبدأت الظلمات تتراقص وكل شىء يموج والحجرة تخفق بأنات تحوم كالأشباح ، وآلام سوداء تمور ثم تصهر ثم ترق وتشف حتى تبدو من خلالها أضواء الأمل . وفوزية جالسة تسترق يدها الطريق إلى كوب القهوة وتختلس منه الرشفة فى سكون وامتنان ، ثم تسند رأسها إلى ظهر الفوتيل المواجه للمكتب وتسرح بعينيها تهيم بهما فى الحجرة ، وأحيانا تلتقيان بعينى حمزة فتبرق عيناه ويبتسم وتعود هى إلى سرحانها ورشفاتها المختلسة .

والشىء الوحيد الذى لم يرتح له حمزة هو القلق الذى لا يهدأ والذى كان يبدو فى نظراتها حتى وهى تسرح بعينيها .

والظاهر أن بدير أحس فجأة بشيء ما ، شيء مثل ألا مكان له فى كل ذلك ولا مكان لأدبه أو ضخامة جسده ، فقد انتصب فجأة واقفا ثم غادر الغرفة .

وقال له حمزة :

ـ على فين ؟ خير .

ـ رايح .. بقى .

ـ فين ؟

ـ المكتب .

ـ الله ! ما انت قلت ...

و لم تتح له الفرصة ليكمل كلامه فقد كان بدير يجيبه وصوته يبتعد ، وقبل أن تتم المحادثة كان بدير قد غادر الشقة وصفق الباب خلفه .

وسألت فوزية :

ـ الله .. ماله ؟

ـ مش عارف .. غريبه .. دا ما كانشى عايز يروح المكتب .

وانتهى « مارش العبيد » .

وبحث حمزة عن شيء آخر يسمعانه فلم يجد .

وعاد إلى مكانه ، وبدلا من أن يفتح الشيش أوقد لمبة المكتب فأضاءت سطحه الزجاجى اللامع ، وأضاء النور المنعكس من السطح وجه فوزية فأضيفت إليه روعة جديدة .

والحقيقة أن أحاسيس جامحة تملكت حمزة وهو يلتهم وجهها الدقيق المسمسم التهاما . كان لو أطاع براكين ثائرة تدور فى أعماقه لقام واختطفها ووضعها تحت إبطه وحارب من أجلها الدنيا ، أو لاحتواها بين ذراعيه وأخذ يضغط عليها حتى تستحيل إلى شيء دقيق صغير يغلق عليه ضلوعه ولا يتركه أبدا .

كان يتساءل فى ضيق عما أبقاه بعيدا عنها كل تلك المدة ، إنه يعرف من لحظة أن رآها أن ما يحسه الآن سيكون النهاية حتما .

ساعة أن رآها لم يفكر لحظة واحدة أنه يمكن إلا أن يراها .

وبلا مناسبة برقت فى خاطره صورة فوزية حين رآها أول مرة .. حين دخلت الخيمة منحنية .. صغيرة .. نحيفة .. ترتجف من البرد ، وذهبت الصورة خاطفة كما جاءت فوجد نفسه فى التو يتساءل : مالها فوزية ؟ وعلى ماذا أحبها هذا الحب كله ؟ ولماذا يجعل منها إلهة ؟ أليس ما يعنيه الآن وما يدور فى خاطره انفعالات الحالمين والمنحلين والمتعفنين ؟ أليست هى نفس الخواطر التى يضحك بها الكتاب الناعمون على الناس ؟ مالها فوزية ؟ إنها جالسة أمامه لا ضخامة فيها ولا ألوهية .. صغيرة كالتلميذة .. متعبة .. غلبانة .. من الممكن أن يناقش معها أى موضوع .

— اسمعى يا فوزية ! عملتى إيه فى المدرسات ؟

فأجابت فوزية :

— ماشيين كويس قوى .. فيه واحدة منهم اتجوزت والا اتخطبت معرفشى .. لا ياربى .. اتجوزت .. واتنين كان بيحاولوا يتجنبونى الأيام دى .. إنما الباقى كويسين .

— والشنطة عملت فيها إيه ؟

— نقلتها النهارده عند محاسن .

— عند مين ؟

— محاسن أحسن واحدة فيهم .. دى إنسانة رائعة .. تصور إنها مستعدة تخبى ناس من الهربانين عندها فى شقتها .. مستعدة تعمل أى حاجة .. تدفع فلوس .. تجمع تبرعات .. وحتى مستعدة لو اقتضى الأمر تروح القنال .. اسمع يا حمزة .. إحنا مش حينفع كده .. لازم نشتغل أكتر من كده بكتير ..

داحنا ماعملناش حاجة خالص .

وكانت تتكلم بلهجة حامية وتوجه الحديث إلى نفسها أكثر مما توجهه إليه ، فأجاب حمزة من فوره :

— كويس جدا .. إحنا حنبتدى من نفسنا .. فانتو وأنا حنعمل نواه للعمل الضخم اللى بينتظرنا .

وظلت فوزية تهز رأسها تباعا وهى تحملق فى حمزة وتراقب حماسه فى إعجاب مخلص .. حتى لتخاف عليه من الخطأ ومن أن ينطق بحرف لا يقع فى نفسها موقعا حسنا .. وقالت فى انفعال :

— أيوه .. فعلا .. لا بد من الاستمرار بأقصى قوة .

— بالضبط .. إنما ازاى .. دى عايزة استعداد ، وعايزة جهود وإصرار . فاهمانى ازاى ؟ ولا بد حنوصل .

— لا بد .

وران عليهما صمت لم يستمر سوى لحظات خاطفات ، ثم بدأ حمزة يتململ فى مكانه ويبتسم محاولا أن تكون بسماته جادة على قدر الإمكان ثم قال :

— بس فيه موضوع تانى عايز أناقشك فيه .

— موضوع الفلوس ؟

— لأ .. موضوع .. خاص كده .

— خاص ؟

— أيوه .

وعاد ينظر إلى فوزية ليؤكد ثقته بنفسه ، ولكن اضطرابا عظيما ألم به وهو يرى أن من أمامه لم تعد فوزية .. لم تعد الصغيرة .. المتعبة .. المتحمسة .. التى تكاد أن ترتجف من البرد .. إنها أمامه قبس من نور ساطع براق لا يستطيع

مواجهته .. إنها تكاد تستحيل فى عينيه إلى شيء مقدس كقسم المكافحين .. كالتضحية .. كأمل الملايين فى يوم الخلاص . ولكنه لم يعد فى إمكانه التراجع .. عليه أن يستمر :

ـــ فيه موضوع .

ـــ إيه .. إتكلم يا حمزة .

وابتسمت .. يالبسمتها تلك وفى ذلك الوقت بالذات ! البسمة التى تذيب الإرادات إن شاءت وتصنع الأبطال إن أرادت .. البسمة التى قد يواجه الإنسان جيشا ولا يستطيع مواجهتها .

ـــ بقى شوفى يا فوزية ، أقصر خط بين نقطتين هو الخط المستقيم ، وأنا مش عارف أبتدى ازاى .. إنما دى حاجة مليش بيها أى دخل .. حصلت غصب عنى .. بصيت لقيت حاجات عمالة تتجمع وتتراكم لغاية ما ماقدرتش أستحمل.فاهمانى ازاى ؟ .. وإذا كنت بكلمك النهارده فلأنى معنتش قادر أستنى لبكره .. خلاص فاض الكيل فاهمانى ازاى ؟

وتساءلت فوزية فى دهشة كثيرة :

ـــ إيه الحكاية .. إيه المشكلة ؟

فواصل حمزة كلامه وهو كثيرا ما يحدق فى سطح المكتب الزجاجى المضيء وقليلا ما يحدق فيها :

ـــ المشكلة إنى أنا من مدة ابتديت أحس ناحيتك بإحساسات تانية غير إحساسات زمالتنا فى المعركة وزمالتنا فى الكفاح .. قاومت هذه الانفعالات من أول دقيقة .. إنما كان بيحصل حاجة غريبة قوى .. فكل ما كنت بقاومها كل ما كانت بتزيد بشكل خطير .. والمشكلة إنى حسيت إنى لازم أناقش معاكى بصراحة المسألة دى .. فإيه رأيك ؟

وبدأت فوزية تتخذ أهبتها للرد ، ولكنه واصل كلامه :

ـــ أرجوك حاولى تاخدى المسألة بعمق وبشكل جدى .. أنا عمرى ما مريت بحالة زى اللى أنا فيها دى .

وبدأت فوزية تستعد للرد ولكنه استطرد قائلا :

ـــ المشكلة خاصة جدا ..ومهما كان رأيك فيها .. ومهما كان جوابك فأرجو إن ده لا يؤثر على العمل اللى بنؤديه مع بعض .. أهم شىء هو المعركة باستمرار .

واعتزمت فوزية هذه المرة أن ترد ولكنه استوقفها بإشارة راجية من يده :

ـــ أرجوكى برضه إنك تفكرى أكتر فى المشكلة .. مش عايزك حتى تتكلمى دلوقت .. فأنت لا تتصورى أهميتها عندى .

وهنا قاطعته فوزية وأرغمته على التوقف وانطلقت تقول :

ـــ متتكلم بصراحة أكتر .. متقول يا أخى إنك بتحبنى وتنتهى وإنك عايزنى أحبك .. مش هى دى المشكلة ؟ مش هى دى الحكاية اللى اجتمعنا علشنها ؟ إحنا ورانا إيه غير كده .. لا كفاح ولا يحزنون .. فضينا للحب .

وحاول حمزة أن يقاطعها ويتكلم ولكنها استمرت :

ـــ أنا كنت فاكرة إن الناس اللى زيك حاجة تانية .. كنت فاكره إن العمل الخطير اللى وراهم أهم من الحاجات التافهة اللى بيجرى وراها كل الناس .

وهنا أصبح الحوار من الصعب أن تعرف قائله ، وأصبح صاحب الصوت الأعلى هو المسموع حين رد حمزة قائلا :

ـــ دى مش حاجات تافهة يا فوزية .. دى حياتنا .

ـــ حياتنا أسمى من كده .. حياتنا وراها حاجات أهم من كده .. المفروض إننا نحترق عشان غيرنا يعيش .

ـــ أبدا .. إحنا يجب نعيش وتكافح علشان الناس تعيش .. إحنا مش رهبان ولا ملائكة .. إحنا بنى آدمين .. إحنا عايزين نحب و كل الناس تحب .

— بلاش كلام فارغ .. حرمانا هو الضريبة اللى بيفرضها علينا الكفاح .

— إذا عملنا كده نبقى شواذ .. نبقى بنخرف وكفاحنا يبقى كله تخريف ..

— طبعا .. أمال حتقول إيه غير كده ؟ أنت عاوز تفلسف انحلالك .. إنت اللى كلامك كله تخريف .. أنا اللى غلطانه .. مش ممكن كنت أتصور .. دا منتهى الانحلال .. إنت بتخون دورك وثقتى فيك .. إنت انتهيت .. أنا لازم أناقش زملاءك.دا منتهى الشناعة ..

وكان وجهها يشحب باستمرار كمن طعن غيلة ، ونقاط عرق تبزغ فوق جبينها وتتجمع نقاط أخرى من غضب جامح فوق أنفها الدقيق ، وملامحها ، وما كادت تلفظ كلماتها الأخيرة حتى كانت يدها على حقيبتها وحتى كانت أسرع من نداءات حمزة عليها وهى تأخذ طريقها خارجة .

وحتى لم تقفل الباب وراءها .

١٠

ظل حمزة على الأقل ساعتين لا يدرى أين هو ولا فى أى مكان من الكرة الأرضية يستقر ، كانت أفكاره كثيرة يزدحم بها عقله .. يمسك الواحدة فتهرب وتختلط بالأخريات ، ولا يستطيع أن يفكر فى شيء بذاته ولكنه يحس دائما أن هناك أشياء تتلاطم فى مخه وتسد عليه مسالك تفكيره .. ويذكر أجزاء من المحادثة ويستعيدها ويستعيد بدقة الكلمات التى قالتها ويتأملها ، ثم يرجعها مكانها فى ذاكرته ساخطا لاعنا ..

كانت ــ ربما لأول مرة ــ تخونه ثقته فى نفسه ، وهو لن يخدع هذه النفس بعد الآن . كان فى قلبه شعور دائم أنها لا بد تحبه أو إن لم تكن تحبه فهى على الأقل لن ترفض إذا طلب منها أن تحبه ، أخداع ما كان يحسه فى أحاديثها وإشاراتها من علامات لذلك الانتظار ؟ كان يحس دائما أنها تود أن تقول له شيئا مثل ما قاله لها الليلة وأن الحياء فقط هو ما يمنعها .. من أين جاءه ذلك اليقين ؟ .. يا لحمقه وغبائه وضياعه .. أقصر خط بين نقطتين ! .. كلام فارغ وسخافات .. كان يجب أن يكون أكثر لباقة .. كان يجب أن يحسب حساب الفشل .. كان يجب أن يعد العدة للرفض .. كان لا بد من استعمال الدبلوماسية . أحسب المسائل العاطفية بغبائه مشكلة من مشاكل الكفاح اليومى من السهل طرحها على بساط البحث بطريقته الساذجة العقيمة تلك ؟ أمان سوداء ظلت تلاحقه وتطارده وتخرق عقله كمسامير حامية ، تمنى أن يدهمه وابور أو يختفى بطريقة ما من الوجود حتى لا يراه الناس وحتى لا يرى نفسه . وراح يكز على أسنانه ويضغط بيديه فوق ضلوعه وتنقبض كل عضلاته محاولة أن تجعله ينكمش وينكمش حتى لا يبدو للعيان ، ومضى

يكوم على نفسه أحقادا ذات لفح رهيب ويذيقها من ألوان التأنيب والتقريع ما لم يذقها إياه فى حياته كلها ، وقد أفاق من الأحلام التى عاشت معه أياما طوالا ليجد جبهته تقرع البلاط ، ويجد نفسه ممددة على الأرض الجرداء حزمة جافة من فشل لا أمل فيه .. ولم يكن ما حدث فقط هو ما يكتم أنفاسه بل ما هو آت كذلك ، فقد فقد بفقد فوزية عنصرا هاما من عناصر كفاحه ، ومناضلة قوية إذ قطعا ستبتر كل صلة لها به ، بل يحتمل أن تنفذ تهديدها وتناقش قصة « حبه » التافه مع بقية زملائه أعضاء اللجنة العامة للكفاح المسلح . وحين يتصور ماذا يكون موقفه حين تحيطه هالة الزملاء متعجبة مستنكرة .. حين كان يتصور هذا يتوقف فكره فى الحال ويأبى أن يمضى ، ويأبى إلا أن تبتلعه دوامات أخرى من الألم الهائل .

وجاء بدير بعد منتصف الليل . لم ينتبه إليه حمزة كثيرا فقد لاحظ أنه فى حالة انبساط غير عادى وأنه يتكلم باستمرار ودون توقف ويضحك ، وأنه خلع ملابسه وظل بالفانلة والسروال فى جو ملتهب بالبرد . وأنه أخيرا جلس أمامه وتطلع إليه كثيرا قبل أن يقول :

ــ اسمع يا حمزة يا خويا .. بقى انت عندى على العين والراس ، مستعد أخبيك وأروح معاك فى ألفين وستميت داهية .. انت عارف أنا باعزك قد إيه حتى من أيام المدرسة الثانوية ، ومفيش مرة جتنى تطلب فلوس إلا أما اديتك نص اللى معايا .. وأنا راجل بتاع مزاج ، وانت بصراحة داخل فى مزاجى . عاجبانى شخصيتك يا أخى ، حد شريكى ؟ أنا كده واللى مش عاجبه يشرب بيرة زى ماشربت .. أنا كنت عايز أقول إيه ؟ أقول إيه ؟ أيوه يا سيدى..أيوه..بقى انت فى عينى دى من جوه وعينى دى .. وعينى دى بالمناسبة ستة على ستة ودى ستة على أربعة وعشرين .. انت فى ننى عينى كمان ، إنما الست اللى بتجيلك دى اللى اسمها .. سميحة والا فوزية مانى عارف .. هى اسمها إيه ؟ هو

انا عبيط ؟ هو أنا مش فاهم ؟ آه الست دى مسألة تانية يا خويا يا حمزة .. فحكاية الدروس دى طبعا لا تخيل على ولا تخيل عليك .. ويمكن البوليس يكون مراقبها ، يمشي وراها ، يتحك فيها ، تكون مشبوهة ، تكون قابلت واحد مشبوه تودينا احنا الاتنين فى داهيه .. آه زى ما بقولك كده وربنا المعبود .. دا مافيش أبسط اليومين دول من المرواح فى داهية .. وأنا بصراحة من غير أى إحراج لك أو لى .. انت عايز الصراحة .. عايز الصراحة يعنى .. أنا مش عايزها تيجى هنا .

وسمع حمزة هذا وانفعل ولكنه سكت فعاد بدير يقول :

ــ أيوه هى الصراحة كده .. وفيه أحسن من الصراحة ؟ أنا راجل مش بتاع لف ولا دوران .. انت فى عينيه من جوه .. إنما هى .. حد ضامن ؟ حد بيقرا على ضهر إيده ؟ حد عارف حاجة ؟ مين عارف ؟ يمكن .. يمكن قوى .. ما يمكنشى ليه ؟ هو لولا شوية البيرة اللى ملخبطنى دول كنت كلمتك أحسن من كده .. الله يخرب بيتك يامين النهارده .. آه ما أنا لما بزعل بشرب بيرة ، ولما بفرح بشرب برضه بيرة .. إلا من حق طيب .. أنا شربت بيرة ليه النهارده ؟ يا ترى كنت زعلان والا فرحان النهارده لما شربت ؟ حاكم أنا لما بزعل بشرب مع الجدع ده اللى اسمه دايما بانساه .. الباجورى .. الباجورى .. ولما بفرح باشرب مع الواد منعم وأنا شربت مع منعم النهارده .. يبقى لازم كنت زعلان .. زعلان قوى .. آه .. ما هو بصراحة كده يا حمزة انت فى عنيه من جوه .. إنما هى .. حد ضامن ؟ حد عارف ؟ يمكن .. ما يمكنشى ليه ؟

ونام حمزة لدهشته نوما عميقا .

وحين استيقظ فى الصباح كان بدير لم يكن قد فرغ من استيقاظه بعد ، فقد كان يفعل هذا على دفعات ، ووجده حمزة حينئذ جالسا على طرف الفراش

يفرك عينيه ويتثاءب ، وما إن لمح عيني حمزة تفتحان حتى قال وهو يموء :

ــ اسمع يا حمزة .. صباح الخير الأول .. والله أنا عايز الشنطة ضرورى .

فقال حمزة فى امتعاض :

ــ هى هتروح فين يا أخى ؟ اشمعنى افتكرتها دلوقتى ؟

ــ أصل عايزها ضرورى .. دى كان شنطة المرحوم والدى .. وزى ما قلت لك بقى خليك فاكر .. لما تيجى الست دى تفهمها .

ــ أهى مش جاية .

ــ ليه ؟ حتيجى بكره يعنى ؟

ــ ولا بعده .

ــ الله .. هو حصل حاجة ؟

ــ لا أبدا .. ظروف .

ــ إيه يعنى ظروف إيه ؟

ــ ظروف .. هو انت لازم تعرف كل حاجة ؟

ــ لا مش لازم .. إنما حصل حاجة يعنى ؟ سوء تفاهم ؟

ــ إنت مش مش عايزها تيجى ؟ أهى مش جاية .

ــ بس يعنى والسبب إيه ؟

ــ إنت مالك يا أخى .. خلاص .. ماعدتشى جاية .. استريح .

وانتظر بدير قليلا ثم سأل ولعله كان بسؤاله يقصد إعادة الحديث إلى مجراه ليس إلا :

ــ طيب .. والشنطة ؟

ــ يا أخى ماتفلقنيش بقى .. ما قلت لك حجيبهالك .

وحين غادره بدير إلى عمله مضى حمزة ينزف .

كانت جروح المساء قد بدأت تنبح ، وما أشد إيلام جروح المساء إذا طلع

عليها صباح .

كان بدير قد تركه وحيدا مع إحساسه القاتل بضياعه وتفاهته وخيبته حتى راح يراجع حياته كلها ، ولم يخرج منها إلا بحفنة من المواقف المخزية والقذارات ، وخيل إليه أنه لم يفعل شيئا فى حياته يستحق معه أن يعيش .. بدا له ماضيه ساعتها أبشع من ماضى الخائن وأوهى من حجج المتردد . وكم هى قاسية ساعات الألم .. إنها بقدر ماترهف الإحساس تحرقه ، وبقدر ما تفيد فى تجنب الخطأ تضر بالكائن الذى سيتجنبه أبلغ الضرر .. إن السعادة لا بد أن تكون هى الحياة بلا آلام .

وكما راجع حمزة ماضيه أتى على حاضره أيضا ، وأية مهانة وجدها وهو يرى نفسه فاشلا مختفيا والأيام تنقضى والمعركة تخمد جذوتها وتهمد نيرانها الراقدة تحت الرماد ، وهو جالس يلعب ويحب ويناقش مشاكله الخاصة .

ومن لحظة أن فتح عينه لم يستقر على حال ، جلس ووقف وخبط رأسه بيده كثيرا وراح يلصق جبهته أحيانا بالحائط ويفكر ، وهو فى وضعه ذاك مستعد أن يطحن الجدار برأسه فى أية لحظة .. وبدا له يوم الشتاء البارد الذى كان فيه يوما سقيما مريضا تفوح منه النتانة ، كغريق استخرج من الماء بعد أيام .. بل رأى كل أيام الشتاء وكأنها جيف متراصة ينهشها برد كالح أغبر ، شتاء .. وخيبة .. وعزلة .. وبدير .. وفوزية .. ووجهها الذى طالعه مخيفا حين تنمرت ملامحها .. ماذا أحبه فيها ؟ وأى شىء فيها يستحب ؟ وأية أحلام بغيضة وتصورات مخدرين عاش فيها وهو حبيس جدران بيضاء وأيام سود .

وغلى دمه بأحاسيسه تلك وكأنه يكتشف لحظتها فقط أنه قد هرب من السجن الأميرى ليواجه حتفه فى ذلك السجن الحقيقى الذى يحيا فيه ، ويحيا لماذا ؟ ويختبىء ليفعل ماذا ؟ كل ما فعله أنه أحب ، وكل ما اختبأ من أجله كان هو اللحظات التى يقضيها مع معبودة الفؤاد ..

هراء ما فعله وهراء ما يفعله ، وهراء تلك الساعات التى تمضى والأيام التى تنقضى والمعركة تموت ولا تنتظر ، هراء .. لن يخرج الإنجليز ترتيبه وتنظيمه وقيادته المزعومة للمعركة وهو مختبىء فى القاهرة .. مكانه هناك فى التل الكبير أو القرين أو الإسماعيلية أو أية مصيبة .. يجب أن يغادر ذلك المكان فورا .. يسافر الليلة .. ويحارب الليلة أيضا .. يجب ! وأمه جالسة زمانها على جوال قديم أمام بيتهم فى عزبة الدريسة تطرز المناديل وتتطلع إلى ابنها الكبير ؟

والرصاص الذى كان يتحدث عنه ، و ٦ مارس والأولاد الأبطال وفوزية التى كان ينظر إلى كفاحها على أنه كفاح تلامذة مجتهدين ، فوزية هذه تقول : لنا تاريخ ، وهو يقول ـ هو الأستاذ القائد الذى كان عليه أن يتعهدها ويسقى عودها ويقدمها لشعبه مكافحة صلبة ـ هو يقول فيه موضوع خاص عايز أناقشه .. عواطف بتنمو .. مش قادر .. يا شاطر .. يا حدق يا روميو . وما محل مش قادر هذه من الكفاح ومن معركة الوطن ؟

وتعود الجروح إلى النزيف ، وتعود أسنانه تئز وعضلاته تنقبض وشىء داخله يهيب به أن يحطم ويقتل ويثور أو ينتحر .

ومر اليوم بلا بدير على الغداء وبه بلا غداء ، ثم جاع فى العصر فمضى إلى المطبخ يبحث وأسكت ما وجده آهات ، وولد المطبخ والمائدة الرخامية وعليها آثار بن آهات .

ـ وفى الخامسة فوجىء أكبر مفاجأة .

دق جرس الباب وفتح ، وروع بفوزية واقفة تلهث وشفتها السفلى ترتجف محاولة أن تبتسم ، وأهدابها تسترخى على عينيها وهى تقول وكأن ليس بها رغبة فى الدخول .

ـ أنا جيت .

وتمتم حمزة بأشياء ، وخطت إلى الداخل فى تراخ وأغلقت شيش النافذة

وأشعلت مصباح المكتب وأضاءت الحجرة بالضوء الباهت المنعــكس ، وجلست على نفس الفوتيل ووضعت ساقا غير ثابتة فوق ساق ثم قالت :
ـــ عايزة قهوة .. فى كباية كبيرة وحياتك .

١١

كان المطبخ لحمزة فى ذلك الوقت نجدة أتته من حيث لا يدرى ولا يعلم ، فالمطبخ ودورة المياه وزنازن السجن وكل تلك العلب المبنية الصغيرة التى لا تكاد تسع الإنسان ، فى هذه الأماكن يحس الإنسان أنه أقرب ما يكون إلى نفسه ، ويحس حالما يغلق الباب عليه بأمان غريب ، وكأنه قد أصبح بينه وبين العالم ومآسيه سد منيع . وكان حمزة وهو يعد القهوة يحس بالمطبخ ببياضه ونظافته وكأنه أخته العانس الطيبة التى تعود أن يعترف لها بأدق أسراره دون حياء أو ندم أو رغبة ، ولذلك ترك عقله يتشتت وتذهب كل قطعة منه فى ناحية ، حتى أنه وضع البن والسكر فى الكنكة ثم وضعها على الموقد دون أن يضيف إليها ماء حتى تصاعدت رائحة السكر المحترق ، فتنبه وباشر إعدادها مرة أخرى بحرص أكثر .. كان يحس بنفسه خفيفا خفة غير عادية وكأنه بالون ممتلىء بغاز أخف من الهواء ، وكان يحس بالسعادة ويريد أن يتجاهل إحساسه بها حتى لا يحزن وييأس حين يفقدها .

كان به فرح غير عادى ورهبة غير عادية أيضا . إن مجيئها ليس له إلا معنى واحد .. إنها استجابت وجاءت ، وأن الظلام الذى تراكم فى نفسه وشوه أمامه طريق المستقبل قد انقشع فجأة وحفل الطريق بنور باهر فياض . إنه بالأمس وحين طرح ذات نفسه أمامها فإذا بكلامها ينهال عليه لاسعا ملتهبا ، وإذا بالألم العظيم يجتاحه وقد قدم لها قلبه فكوته بالنار .. أحس بالأمس أن كل

شيء قد انتهى وإن الأمر لم يكن سوى وهم عابر أيقظته منه قرصة واقع أليم . كان بالأمس وبعدما حدث يبحث فى نفسه عن بقية باقية من عاطفة تجاهها فلا يجد .

ولكن ماذا حدث ؟ أمجنون هو ؟ وهل نفسه أرجوحة صبيانية تصعد فى لحظة إلى السماء ، وما تكاد تتكامل اللحظة حتى تكون قد هوت إلى الأرض ، وما تكاد تبدأ لحظة جديدة حتى تكون مرة أخرى وجهتها السماء ؟ لقد أحس وهى واقفة على الباب تقول له : « أنا جيت » عبر شفتها الراجفة الباسمة ، أحس أنه حقيقة يحبها حبا كفيلا بملء الكون كله ، حبا لو وزع على ملايين من الناس لأشعل فى قلب كل منهم نارا ، وأحس بأن الأمر جد وأن عاطفته ناحيتها لم تكن عيبا و لم يكن انحرافا ولا جريمة ، وإنما كانت حقيقة مادية ظلت تترسب طبقة وراءها طبقة فى أعماقه . ليس هذا فقط ، بل إنه أدرك فجأة أنه كان يحبس عواطفه فى قمقم ويأبى عليها الانطلاق ، وإنه كان مثل الميت من الجوع حين يذهب فى زيارة ويجىء الطعام ألوانا أمامه ويأبى أن يتذوق منه شيئا لأنه مكسوف ، ولأنه عيب ، ولأنه معقد تعقيدا يسد عليه مسالك الحياة .

لماذا يلف ويدور ويسخط وييئس ويضحك على نفسه وينوح ؟ لقد أحبها وهى الآن معه .. له .. جاءته بملء إرادتها وباختيارها ؟ .. لماذا هو مغرم بإقامة العراقيل واختلاق السدود والطريق أمامه واضح وصريح وفوزية كلها على قيد خطوات منه ؟ ولماذا هو واقف كالعبيط يفكر ويحلل ويصنع القهوة ويدعها تنتظر ويؤجل اللحظة الحاسمة ؟

وقبل أن يتحرك حمزة شعر بيد توضع على كتفه ، نفس الأصابع النحيلة الطويلة وكأنها امتدت إلى قلبه مباشرة ومست شغافه ، والتفت إليها ليجد نفس وجهها الذى لا يمل رؤيته ، ونفس ابتسامتها ونفس عينيها العسليتين ،

وكم كانت جميلة عيناها ، وكم كان جميلا أن يحدق فيهما ويرى صورته واضحة وناطقة حتى بنظارته ومنعكسة على كل حدقة من حدقتيها ، صانعة ستارا رقراقا محلى بصورته ومسدلا فوق عسيلة عينيها ، لا يخفى جمالها بقدر ما يبرزه ويثيره .

كانت هناك ويدها على كتفه ، والقهوة فى يده ، وفوزية فى قلبه ، وحمرة فى عينيها ، وابتسامتها لا تزال ترتجف ورجفتها فى أنفاسه ، تتلاحق ، وأفكارها معلقة بأنفاسه ، وأفكاره غائبة ، والغيبة فى ملامحها ، وغيبتها طالت ثم جاءت ، ومجيئها سعادة ، والسعادة فى صدره ، وفى صدره رضاء ، ورضاؤها واضح ، وفى وضوحه هيام ، وهيامه خائف ، وخوفها يتلاشى ، وخوفه يمت إلى الأمس ، وبالأمس كان يهدر وهديره الآن مسموع ، وهديرها فائر ، والقهوة هى الأخرى قد بدأت تزن تفور .

وصعدت يدها فى تردد واجف إلى رأسه ، ومرت بأصابعها بسرعة فى أرجاء شعره فنكشته وهى تقول :

— هيه .. إزيك ؟..

وعاد ينظر إليها ، كانت حافية وقد خلعت حذاءها وجوربها وكانت تضيق بالأحذية والجوارب ، مرتدية شبشب بدير وقدماها صغيرتان دقيقتان تائهتان فى كبره ، وأصبعها الصغير كان يرقد منكمشا على نفسه وملتصقا بشدة فى الأصبع الأكبر الذى بجواره كأخ صغير أصابه ذعر فمضى يحتمى بشقيقه . كانت واقفة ، رائعة وهى واقفة ، فيها كل ما كان لها من حيوية ونشاط وتتأمله بطريقة لم يعهدها .. طريقة مختلفة تماما عن طريقتها الدغرى فى الكفاح . ففى نظرتها حنان رقيق وفى وجنتيها حمرة وفى ملامحها سرحان تائه ، يحملق فيه ويبحث ويكاد ييأس من البحث فينبض ويدق ويهمس بأشياء وأشياء .

وقالت مرة أخرى :

ـــ مش كويس إن أنا جيت يا حمزة ؟

وأحس ل « حمزة » وهى تنطقها بنكهة تمشت فى أوصاله .. كان مجرد أن يتصور كلمة « حمزة » تتصاعد حروفها من مكان ما حول قلبها وتحمل دفء أنفاسها وتتجمع الحروف فى فمها وتتعطر برضابها ، ثم تتكامل وتتهيأ وتودع شفتيها منطلقة إلى الفضاء وقد تشبع كل حرف فيها بذكريات حبيبة عن رحلته الغالية .. كان مجرد تصوره هذا يجعله يحس براحة عميقة وكأنه هو لا اسمه الذى نبع من مكان ما حول القلب وكأنها بمجرد أن تنطق اسمه تبعث له مع كل حرف منه بآهات حب وإعزاز .

ومع ذلك فقد كانت لا تزال به رهبة ولا يزال مترددا غير واثق .

وعبثت بشعره عبثة أخرى سريعة وقالت :

ـــ أنا غلطت امبارح .. وفضلت طول الليل آأنب نفسى .

ـــ ليه ؟ .. على إيه ؟

ـــ لأنى كنت امبارح بغالط نفسى ، بغالط شعورى لك فى طول المدة اللى فاتت ، بغالط حتى شعورى بتاع أول امبارح .

الموضوع أصله كبير قوى ومفيش داعى نتكلم فيه دلوقت . خد الجواب ده اقراه .. مش دلوقت .. خليه بعدين قبل ما تنام أحسن .. حتلقى فيه كل حاجة . أنا كنت معقدة قوى يا حمزة .

أنا ساعات كده بتطلع فى دماغى حاجات وأصمم عليها .

ـــ ده عيب المثقفات .

وتلجلجت فوزية كمن يريد قول شىء ثم يعدل ، وأجابته :

ـــ ودا برضه عيب المثقفين . ليه ناقشتنى امبارح ؟ . ليه كنت عايز « تقنعنى » بحبك ؟ ليه هاودتنى وقتلت لحظة الحب الجميلة دى بالنقاش ؟

الحب لا يناقش وإذا نوقش يدبل . الحب يتاخد .. يتاخد كده !

قالت هذا وشبت على أطراف أصابعها وقبلته فوق شفتيه .. واحمر وجهها وتلاحقت أضلعها صاعدة هابطة وتوقفت كلماتها ، وعادت تنظر إليه بتدله وعاد هو يحتل عينيها .

وبلغت العصبية بحمزة حدا لا يوصف .. أخذ منها الخطاب ووضعه فى جيبه وضحك وأسرف فى الضحك ، ونظر إلى قدميها وأحس بالبرد يلسع أقدامه ، وصعبت عليه فوزية وأحس بها ضعيفة صغيرة ، وخجل وابتسم ونظر إليها ، ولم يستطع الاحتمال فأحاطها بذراعيه وجذبها ناحيته بقوة . ولم تنتظر فوزية فقد شبت مرة أخرى على أطراف أصابعها وقبلته ، وضمها بقوة أكثر وأحس بجسده يتفصد أنهارا وبملايين من قطرات سعادة وافدة تسبح مع دمه ، وكان وجهه لصق وجهها ورقبته ترقد فى منحدر جيدها وشريان رقبتها ينتفض ويحس به يضغط على جلد وجهه ضغطات مقشعرة وسريعة ومملوءة بالانفعال . ورفع رأسه حتى واجهها وأصبح لا يرى عينيها فقد كانتا لصق عينيه ، وشفتاها فى ارتعاش دائم كارتعاش الخائف ، ولمعة عرق تكسو شفتها العليا ، وأنفها الدقيق ترتجف فتحته وتتسع وتضيق كلما مرت به أنفاسها اللاهثة ، وهبط بفمه على فمها واحتوت شفتاه الغليظتان فمها الصغير الذى كان لا يزال يرتجف ، وضم شفتيه وأحس بفمها يستكين إلى فمه وتذهب عنه قشعريرته وينعم باطمئنان دافئ .

ولم يكن لحظتها غائباً عن الوعى .. كان فى أتم وعيه . لم يكن ينظر إلى نفسه وكأنه لا يزال قطرة فى محيطها ولا كانت هى القبس المتجسد ولا المعنى المجرد الذى له قدسية لا يجرؤ على الدنو منها . كانت صغيرة دقيقة بين ذراعيه ، وكان الفم الذى يطبق عليه هو فم فوزية الثائرة الزميلة ، والقلب الذى يدق بعنف فى حضنه هو قلب امرأة ناضلت وتناضل ، والرأس الذى بين راحتيه

هو ما يدور فيه القلق الدائم الشريف على مصير شعبه ، والأصابع التى تضغط على ذراعيه وتسترقه هى نفسها الأصابع التى حملت حقيبة الديناميت وحملت إليه الجنيهات ، والتى من يدرى ماذا تحمل غدا .. لم تكن هناك أنثى فى ناحية وزميلة كفاح فى ناحية ، ولم يكن نصفه حمزة الثائر ونصفه الآخر حمزة الرجل ، بل لم يكن هناك فوزية وحمزة كان هناك لقاء ضخم رائع نبضات قلبها تحرك قلبه ، وأنفاسها تصب فى أنفاسه . وصدرها ملء صدره ، وفم واحد أصبح لهما ، وأذرع تحيطهما ، والتحام لا ينتهى يؤلف بينهما ويضم شتات إنسانين وفرحتين وتاريخين ، وحياتين طويلتين بكل ما فيهما من عناد وبسمات ، ويأس وأمل ، وماض وحاضر ، ومدرس وعامل دريسة ، وأم ماتت وأم على قيد الحياة ، ورجال ونساء وعائلات وذكريات .

وفارت القهوة وسالت غزيرة على جوانب الكنكة ، وأغرقت شعلة الغاز وتصاعد طليقا يملأ المطبخ ، وتنبهت فوزية وكأنما تفيق من حلم طويل غريب ومدت يدها تقفله وهى لا تزال تحيا فى روعة الحلم ولم تكن تعرف كيف يقفل ، وكاد حمزة فى ارتباكه أن ينسى هو الآخر أى مفتاح يدير .

وعادا إلى الحجرة ذراعا فى ذراع ، وعينين تنهلان من عينين ، وأحلاما فى أحلام ، وسعادة تكمل سعادة ، وبلا قهوة .

وبالتأكيد لم يكونا هما الشخصان اللذان غادرا نفس الحجرة من وقت قليل .. كان قد حدث فى كل منهما حادث سريع خاطف غير مجرى حياته ، وكأن أحدهما كان موجبا فلامس السالب وسرت كهربا ، أو كان حرفا لا معنى له لاقى حرفا آخر فصارا كلمة لها وقع وثقل ومعان .

وجلست فوزية على الفوتيل وجلس حمزة على ذراعه العريضة وكأنه لم يعد يحتمل أن يبتعد عنها لحظة ، وفتح فمه يقول :

ــ تعرفى ؟

فأغلقت فمه بأصابعها الرقيقة قائلة :

ــ استني شوية .. خلينا ساكتين .. أحيانا بيكون للسكون معنى وسكوتنا حيدى معنى للسكون .

وإن كان حمزة لم ينطق بحرف إلا أنه لم يسكت بل راح يتأملها بعينيه وأصابعه ولمسات شفتيه ويخاطبها بكل ما يملك من لغة السكون ، وما أبلغ لغة السكون ! وكان حديثه مع شعرها فيه كلام وكلام .. وقد راح يجوب بأنفه ويوسده خصلاتها السوداء الكثة وتنفذ إليه تلك الرائحة التى تتدغدغ لها أعصاب أنفه وتسكر .. خليط من عرقها وزيت شعرها والنظافة التى كانت تشع منها كانت لها رائحة هى الأخرى كرائحة قلب جوزة الهند الأبيض ، أو مكنون الوردة إذا فرقت عنه أوراقها وشممته .

وقال حمزة وهو مغمض العينين مفتح الحواس :

ــ أنا كان حبك بالنسة لى ترف ، دلوقتى أصبح ضرورة .

فردت وفمه هو ما كان يلتقط الكلمات .. وقالت وهى تتدلل وأحيانا يكون الدلال له أنوثة :

ــ انت عارف أنا رجعت ليه ؟

ــ ليه ؟

فقالت : رجعت ..

وسكتت لحظة ثم أضافت : عشان ..

وسكتت لحظة ثم أضافت وهى تبتسم :

قررت ..

إنى ..

ثم سكتت كمن لا يدرى ما سوف يقوله ، ثم خرجت الكلمة رغما عنها :

أتجوزك ..

واحتواها ذراعاه مرة أخرى وشفتاه وقال :

ـ وده أحسن قرار فى حياتى حاقوم بتنفيذه .

فقالت وأصابعها تتعانق خلف رقبته :

ـ أنا كنت خايفة أحبك لانتهى .. أنا با أحس إنى بابتدى دلوقتى .

ورفعت وجهها إليه .. كان فى عينيها ندى بكاء وكان فى عينيه احتقان نشوة .. وقال وهو يأخذ وجهها الصغير بين كفيه وفى صوته حشرجة انتصار :

ـ انت عزيزة عندى جدا يا فوزية . أنا مش باحبك حب عادى .. أنا حبيت مصر فيكى . حبيت النيل اللى ف دمك وبياض القطن اللى ف وشك وشمسنا الحلوة اللى عسلت ف عنيكى .

فقالت وفى صوتها دموع فرحة :

ـ أنا يا حمزة زمان كنت بحفظ وأقول شعر .. نسيتنى اللى فات ومن هنا ورايح حقول حمزة .

ـ كلامك جميل يا فوزية .. إيه كلامك ده ؟

ـ دلوقتى هو الحلم اللى ينطق الساكت ويحرك الصخر ويخلى الحديد يقول .

١٢

فوق حب الاستطلاع الذى ينفرد به حمزة كان الخطاب من فوزية ، وبعد ماذا ؟ أهوال جسام . ولهذا كان الأرق الذى يحس به ناحية المظـروف الموضوع فى جيبه شيئا طبيعيا ، كان لا يمكن أن ينتظر كما أرادت فوزية إلى ما قبل النوم حتى يعرف ما فيه ، ولهذا سرعان ما جمع أرقه وقال :

ــ إيه رأيك أنا مش قادر استنى ، لازم أقرا الجواب .

وعارضته فوزية قليلا ولكن قرأ فى ملامحها أنها لن تغضب فأخرج الخطاب باحتراس من جيبه وتأمل المظروف السميك على مهل كالذى يتهيأ لالتهام وجبة دسمة . كان واضحا أنه خطاب طويل ، واحتار حمزة أيستبشر بطوله أم ينزعج .

وقال لها قبل أن يفض الخطاب :

ــ انتى متأكدة إن مافهش حاجات زى « لازم نحترق ونترهبن » ؟

فأجابت فوزية :

ــ يوهوه يا حمزة .. بلاش تعذيب .

فابتسم وفتح شيش النافذة وفض الخطاب ، وقرأ كلمة حمزة التى فى أوله وأحس لها وهى مكتوبة بخطها بنفس فرحته حين سمعها وهى ترددها ، وتأنى وهو يتأمل الكلمة ثم وهو يلقى على فوزية نظرة أخيرة قبل أن يدلف إلى محتويات الخطاب .

* * *

كان أهون عندى أن أموت قبل أن أقف منك هذا الموقف .. أنا ياحمزة أخجل حتى من أن أسمح لنفسى أن أناديك أو أكتب اسمك ، قلت لك أمس

إنك « تخون دورك وثقتى فيك » ويبدو أن الإنسان حين يكون مذنبا يتهم غيره بنفس ما يقترفه . كيف أبدأ ؟ وكيف أزف إليك أنباء الإنسانية التى أحسست نحوها « بإحساسات أخرى غير إحساسات الكفاح » ؟ يكفى أن أقول لك إننى مثلت أمامك دور البطولة وإننى فيما يظهر كنت موفقة إلى الدرجة التى لم تلحظها أنت .. كل ما عرفته عنك من سعد قبل أن ألقاك أنك « وطنى مخلص ومكافح من حديد » ، وحين دخلت عليك الخيمة ورأيتك « والبندقية أجزاء بين يديك وسوادها يلوثك ، ونظرت إلى بعينين ساهمتين ثابتتين من خلف نظارتك ، تلك النظرة التى لا تزال راسخة فى عقلى ، قد يموت ولكنها لن تموت .. قررت من ساعتها أن أعرفك معرفة وثيقة ، ورحت أفتح الخيالى ودياناا رحبة وأمانى خضراء جميلة ، وأنا حين جلست لأكتب لك هذا الخطاب عاهدت نفسى على ألا أكتم عنك شيئا بالمرة ، ولا تحسب أن هذه مهمة سهلة .. فليس سهلا أن يقر الإنسان بأخطائه فما بالك حين يستخرج خفايا نفسه ويعرضها أمام عين أخرى غير عينه حتى لو كانت عينك . لهذا فاعلم يا عزيزى أنه لم تكن هناك لجنة مدرسات بالمعنى الذى تناقشنا حوله وحول تنظيمه ، كانت هناك بعض مدرسات متحمسات وكنت أكثرهن حماسا .. وأطلقنا على أنفسنا اللجنة .

وحين وعدتك بإحضار التبرعات التى جمعناها لم نكن قد جمعنا شيئا ولا حتى فكرنا فى الجمع ، ولست أدرى ما دفعنى إلى الكذب عليك ووعدك بإحضار التبرعات فى اليوم التالى . وحقيقة أحضرت لك السبعة والعشرين جنيها ، ولكن أتدرى كيف جاءت وبأى اسم اقترضت ؟

لقد درت على زميلاتى أقول لهن أن أبى مريض وأطلب منهن سلفة ، ودفعت من عندى سبعة جنيهات ولم أترك حتى الطالبات .. كنت أود مفاجأتك بمبلغ كبير ، مائة جنيه مثلا ، حتى أبدو ضخمة فى عينيك .

كان كل همى هو أنت والظهور أمامك .. ولما جاء ٢٦ يناير لن تستطيع أن تتصور مبلغ فرحى حين أمكن أن أعثر عليك بعدها .. ليس ذلك لأننى كنت مهتمة بقضيتنا الوطنية هذا الاهتمام ، وإنما لأنى كنت قد بدأت أهتم بك وأفكر فيك ، وأنا كنت طالبة فى كلية الآداب ورأيت مئات الطلبة وقابلت فى حياتى عشرات الرجال ، ولكننى لم اهتز و لم أحفل بأحد غيرك و كأنهم جميعا كان ينقصهم شيء وجدته لديك ، أو كأننى أنا كان ينقصنى شيء ووجدته عندك . وأنا قرأت كثيرا وآمنت بما آمنت أنت به من نظرة علمية للمجتمع .. ولكنى ما كنت أتصور أن يوجد إنسان مثلك يهب النظريات التى فى الكتب ما وهبته أنت لها ، ويضحى بما كنت على استعداد للتضحية به ، ويتكلم عن أعقد المشاكل ببساطة كما كنت تتكلم .

وإذا كنت قد ناقشتك أحيانا وتحدثت معك عن الكفاح والعمل والواجب ، فما كان ذلك لإيمانى بل كان لأننى وددت دائما أن أرضيك .

ولما عثرت عليك بعد الحريق وعرفت أنك مختف ، اجتذبت انتباهى الحياة الغريبة التى كنت تحياها ، الحياة التى تعادى فيها حكومة ويطاردك فيها بوليس الدولة ، الحياة التى تتنكر وتلبس من أجلها النظارات السوداء والطرابيش ، والتى فيها حذر وذكاء وتربص وقلق .

كانت حياة مثلها رائعة بالقياس إلى حياتى القانونية الراكدة .. تلميذات وبيت وكراريس وطبيخ . اجتذبتنى إلى حياتك وما فيها من مغامرة ، مغامرة كانت تضرب على وتر حساس فى نفسى . فبرغم اهتزازى بشخصيتك وإعجابى بك كنت أتصور أن لجنتكم هذه تحيطها أسرار وعملكم كله طلاسم ، وأن لكم مثلا رؤساء يختفون فى بيوت تحت الأرض متزمتين وصارمين ويرتدون ملابس غامقة ويملون عليكم أوامرهم بالتليفون ، ومن يخالف هذه الأوامر يضرب بالرصاص وهو ماش فى الشارع . وكنت

دائما أتصور رئيسكم الكبير شابا صغيرا وسيما .. أبيض وله شعر أسود وقد شاب فوداه ويرتدى دائما حلة سوداء ، جالسا طول النهار يتلقى الأخبار ويتكلم مرة واحدة فى اليوم ثلاث أو أربع كلمات فيأخذها مساعدوه ويشرحونها فى صفحات فلسكاب كثيرة ويوزعونها عليكم لتنفيذها .. لا تضحك يا حمزة فقد وعدتك أن أصارحك بكل خلجات نفسى وسأفعل . اجتذبتنى أنت وحياتك والأسوار التى تحيط بكم تماما .. ولهذا فلو لم تعرض أنت على أن أتصل بكَ فى مخبئك لعرضت أنا عليك ، ولا يمكن أن تتصور مبلغ سعادتى وأنا أحس أننى أقابل شابا يعيش حياة الخفاء تلك ، ولا يمكن أن تتصور ما كنت أحس به وأنا ذاهبة إليك آتية من عندك أنظر إلى الناس الجالسين معى فى الأتوبيس وأشعر أننى الوحيدة التى تحيا فى سر كبير خطير .

وانعكس هذا الإحساس على تصرفاتى فكنت أبدو أمام زميلاتى المدرسات جادة متزمتة ليفهمن أن قد يكون السر فى جدى هو النشاط « الخطير » الذى كنت أقوم به . وكان إذا سألنى أبى بالصدفة أين كنت ، أتعمد أن ألمح فى إجاباتى إلى أشياء يفهم منها أن لى حياة أخرى سرية أقاوم فيها الأعداء ، وكنت أذهب مثلا إلى زميلة من زميلاتى لتأخذ حصة أخرى بدلا منى فتسألنى عن السبب ، فأبتسم لها ابتسامة رثاء وأقول :

ـــ وهل أنا مثلكم نائمة ؟ الدنيا تتحرك .

وأزوم لتفهم من كلامى ما يحلو لها الفهم ، وكنت أكبت أحيانا شعورا صبيانيا كان يراودنى . مثل أن يقبض على معك وتنشر الصحف فى ثانى يوم صورتى وتحتها شىء مثل أخطر فتاة فى الشرق الأوسط .

وهكذا عشت فى إطار من الغموض فرضته على نفسى وكأننى كنت أود أن يعرف الناس جميعا ما أقوم به فى الخفاء . ومن جهتك أيضا كنت مع بدايات عواطفى ناحيتك أشك أنك أحيانا تجيب إجابات غامضة وأنك

تراوغنى وتكذب .

وكنت أود دائما أن أتعمق فيما يحيط بك وباللجنة من أسرار ، حتى سمحت لنفسى بقراءة بعض الأوراق التى وجدتها فى حجرتك ولدهشتى وجدت ما فيها أبعد ما يكون عما انتظرته من أسرار .. كانت القصة فى نظرى مغامرة ليس إلا ، أحب فيها البطل الذى هو أنت وتنتهى بوادى الخيالات الذى تنبت فيه الأمانى الخضر .

وحين حكيت لى عن يوم ٦ مارس ورأيت فى عينيك الإعجاب الذى يقرب من التقديس « بالغوغاء » والرصاص يخترق أجسادهم العارية ، استفززت فى كل نعرتى للبطولة وكل المعانى المثالية ، وصممت أن آخذ الحقيبة التى فيها الديناميت لأخفيها لدى وبهذا أتوج على عرش ثقتك .

إلى هنا كنت قد نجحت فى تمثيل دور البطلة أمامك ولم يكلفنى النجاح شيئا سوى بضع مبالغات وأكاذيب . ولم أكن أتصور وأنا أعرض عليك أن آخذ الحقيبة إلا أن أمرها بسيط وستمر مسألتها كما مرت مبالغاتى السابقات .

ولكن ..

ما أن أصبحت فى العربة وحدى مع الحقيبة .. أى ما أن دخلت بها بعيدا عنك وراء الكواليس حتى انتابنى شعور مفاجئ بالخوف من أن تكون الحقيبة فيها ديناميت حقا ، إذ أننى بينى وبينك كنت لا أعتقد فى صحة محتوياتها « وكأنك أنت الآخر ممثل » ! فوضعتها فورا على الكرسى وفتحت أقفالها ومددت يدى ووجدت تلك القوالب الصغيرة المرصوصة وتخيلت أنها لا بد حجارة أو طوب مثلا . واستخرجت واحدا منها وضغطت عليه وشممته فوجدته مادة غريبة لم تصادفنى فى حياتى ولا شممت رائحة مثل رائحتها أبدا .. وأغلقت الحقيبة فى الحال وجلست أرتعش وأنظر إليها وأحس بوحدتى معها فى العربة وكأننى طفل أدخل نفسه من بين الحديد فى قفص الأسد ،

وكان أول ما خطر لى أن أتخلص منها مباشرة .. أما كيف فلم أجد لى عقلا أفكر به .

وأمرت السائق أن يغير من اتجاهه وييمم ناحية النيل لتتاح لى فرصة للتفكير ، وظللت أرتعش وأفكر حتى وصلنا إلى الجيزة وكنت قد اهتديت لطريقة كانت مثلى فى نظرى .. أغير العربة وأذهب بأخرى إلى شارع فؤاد وأقف بها أمام عمارة من العمارات التى بها بابان ، وأنزل وأقول للسائق انتظر لحظة وأدخل من باب وأخرج من باب آخر .. وفعلا وصلت بى العربة أمام الأمريكين وهبطت منها والسائق ضامن أنى سأرجع إذ حقيبتى كانت لا تزال فى عربته .. ودخلت من الباب الرئيسى وخرجت من الباب الذى على الشارع الجانبى .

وأسرعت فى المشى .

ولن تتصور يا حمزة كثرة الأشياء التى فكرت فيها فى هذه الدقائق القليلة . كنت أنت أول من خطر لى بوجهك ولحيتك ونظارتك وابتسامتك الهادئة التى لا تثور والتى لا تفارقك ، وحجرتك فى سطوح أعلى عمارة فى شارع المبتديان ، وملاءة سريرك السفرى التى بليت من الوسط فقطعت ثم وصلت حتى تصبح الأجزاء البالية إلى الخارج ، والمنضدة الصغيرة التى فى ركن الحجرة وأدراجها وما فيها من أوراق لا أسرار فيها ، وصورة أخيك وهو يرتدى بالطو وجلابية وطربوشا والتى كتب على ظهرها بخطه .. إلى شقيقى العزيز الأستاذ حمزة ثم بيتا من الشعر عن المحبة الدائمة والإخلاص المقيم ، وفانلتك القديمة التى فيها خروق كثيرة والتى كنت على ما يبدو تستعملها منفضة ، وكتبك المتراكمة فى كل مكان بالحجرة ، وجهاز الراديو المصنوع صناعة محلية ولعلك أنت الذى صنعته ووضعته فى صندوق من الأبلكاش الأغبر ، والخطاب الذى كتبه لك أخوك على لسان أبيك يقول لك فيه إن أملك

صحتها « مش ولا بد » وأنها باستمرار تشتكى من المغص وتدوخ وعندها صداع دائم ، وصورتك مع دفعتك وقد وضعت فوق رأسك علامة × ، وفردة الشبشب المقطوعة المهملة التى تحت السرير ، والجوابات الغرامية التى حاولت إخفاءها أسفل الجريدة التى فرشت بها درج المنضدة والتى تقول لك فيها « المخلصة L » تقول أواه حمزة ، ومنظرك يوم قابلتنى مشمرا بنطلونك وجوربك ممزق وفيه طين ، ثم وأنت تهز رأسك فى إصرار وتقول شعبنا ده فيه قوة مقاومة لا يمكن تصورها .

ثم تبينت فجأة أنى هاربة كاذبة مخادعة لئيمة ، خنتك وأنت الذى أوليتنى كامل ثقتك ، وليس ذلك كل ما تبينت فلأول مرة منذ عرفتك فكرت فى هذه الثوانى بالذات فى القضية التى تدافع عنها أنت دفاع المستميت ، تصورت كم من الجهد بذلت لتشترى الديناميت وتخفيه ثم تعود وتأخذه ، وكم من النقود أنفقت وكم من المرات عرضت فيها نفسك للقبض والموت والنسف ، وتصورت كم ضحيتم لتهيئوا الناس للكفاح وتقيموا المعسكر وتدربوا وتعدوا بلادنا للوقوف فى وجه العدو ، وتصورت حسن الخشن وهو يعزم على بالشاى وقد قبض عليه ، وأولاد ٦ مارس الذين ماتوا وعلى أفواههم بسمات ، والخمسين عسكريا الذين قتلوا فى مذبحة المحافظة ، وأقسم لك يا حمزة أننى انتفضت فى الشارع حين فكرت فى كل هذا وأيقنت أننى أنا التى تطوعت مختارة لأخفى الحقيبة ، وأننى أنا التى تقوم بهذا الدور القذر وتريد التخلص منها وحرمانكم جهود أيام وليال وحرمان شعبى من سلاح من أسلحته ، وكأننى جاسوسة من جواسيس الأعداء .. ولا يمكن أن تتخيل مبلغ الاحتقار الذى شعرت به لنفسى ولتفكيرى .

ولو كنت متأكدة أننى سأموت ما كنت ترددت فيما فعلته حين استدرت وعدت أجرى وألهث ، ودخلت من الباب وخرجت من الباب الآخر

ووجدت السائق يبحث عنى بعينين زائغتين ، فركبت وقلت له : شارع خيرت .

وحين استقر بى المقام داخل العربة شعرت كأننى أفقت من كابوس مزعج ، وبدأت أتصور مبلغ جريمتى لو كنت قد تركت الحقيبة فى العربة ، إذ فضلا عما فكرت فيه ألم يكن من المحتمل أن يعتقد السائق أن فيها ملابس أو أشياء ثمينة فيأخذها إلى بيته ويفتحها ويخطئ فتنفجر وتنسف البيت بمن فيه ؟ ألم يكن من المحتمل أن يأخذها إلى القسم وتقع أو ترمى فتقتل عشرة أو عشرين أو مائة من الأبرياء ؟

وظللت أحدق فى ظهر السائق السمين العجوز الطيب وأفكر فيما كان ينتظره ، وأزداد حقدا على نفسى واشمئزازا منها .

وحين وصلت البيت أشفق على السائق ذو النوايا الطيبة فحملها عنى إلى شقتنا ، وقلت لأبى إنها ملابس فريق المرشدات التى اشتريتها لهن يومها ، وما دخلت حجرتى وأغلقت الباب ووضعت الحقيبة تحت الفراش حتى رقدت فوقه وقضيت هكذا ثلاث ساعات .

وإذا كان لكل إنسان نقطة يتحول عندها مجرى حياته ، فهذه الساعات الثلاث حولت مجرى حياتى .

حقيقة كان لى اهتمام دائم بالمسائل العامة .. فحين كنت فى الكلية كنت أسهم فى كل أوجه النشاط بقسط وافر حتى رشحت نفسى فى انتخابات الاتحاد مرة ، ولكن زميلاتى الطالبات لم ينتخبننى على اعتبار أن ترشيحى ما هو إلا « تقليعة » و « لفت نظر » لا أكثر ولا أقل .. حتى السياسة كنت أهتم بها وأتابع أخبارها ولكن الاهتمام شىء والإيمان شىء آخر .. واهتمامى بهذه الأمور كان فقط محاولة منى لأثبت للرجال أننى لست أقل منهم . وهكذا كانت صلتى بلجنة المدرسات وصلتى بلجنتكم . لم أكن أومن إلا بك

أو بالأحرى بتمسكى بك ، أما القضية وعملك وكفاحك فكان سواء لدى أن تكون مسئولا عن معسكر التدريب أو مدرسا زميلى أو حتى طالبا .. إلى أن كان ذلك اليوم الذى واجهت فيه حقيقة ما تكافح أنت من أجله ، وكانت حقيقة هائلة ..

فلم يكن ما تقوم به مجرد عمل ككل الأعمال بل كان كفاحا رهيبا من أجل غيرك ، ولم تكن تختفى ليطاردك البوليس وتستعذب المطاردة والمغامرة ولكنك تفعل هذا لتكمل دورك من أجل وطننا .. اكتشفت أنك أنت مهتم بالقضية الكبيرة قضيتنا كلنا ، وأننى فقط مهتمة بذلك الهدف المحدود .. علاقتى بك .. مهتمة بنفسى .

والإنسان يظل يمضى فى الحياة مؤمنا بما شب عليه وتعلمه من أفكار وفلسفات ومبادئ دون مناقشة للأسس التى يقوم عليها إيمانه ، إلى أن يحدث حادث مثل أن يمرض بالسل نتيجة حياة كلها سهر وعربدة ، أو يقترف جريمة ويقبض عليه .. حين يقع ويشعر أنه يهوى يبدأ حينئذ فقط فى مراجعة الخطوط العريضة لحياته وتأمل إيمانه والتشكك فى أفكاره وفلسفته وآرائه وتحميلها وزر ما اقترف ، أو قد لا يشك فى نفسه وإنما يظل مغمض العينين يعتبر أن ما حدث له كان قسمة ونصيبا وكان مكتوبا ، وأن الدنيا والحظ هما السبب . وقد أدركت ليلتها أننى دلفت إلى مهاوى ما كنت أعتقد أبدا أن فوزية التى أثق فيها وأومن بها تدلف إليها .

وأخذت أتفحص حياتى وأتوقف عند تصرفاتى وأراجع علاقاتى بالناس ، وإحساساتى الداخلية التى لا يطلع عليها أحد سواى ، والطريقة التى أحدد بها مواقفى من الشرف والخيانة وأقيس بها ما يصح وما لا يصح والفارق بينهما ، وأدركت بعد هذا كله أن الحقيبة قد أنقذت بمعجزة .. وأن الطريق الذى كنت أمضى خلاله فى الحياة كان يحتم أن أترك الحقيبة وأهرب من مسئوليتها

لأنى كنت لا أفكر إلا فى نفسى وذاتى وسلامتى ، ولا أفكر فيما أقوم به من عمل قدر تفكيرى فيما يعود على بالنفع من هذا العمل .. وبعض الناس لا تبدو أنانيتهم فى نظرهم شذوذا ولا قبحا ، والبعض الآخر يدرى ولكنه يتعامى حتى إذا ما واجه ذاته ورأى فيها الأنانية مجسدة فلا بد أن يستبشع تلك النفس ، ولا بد ستتفتح عيناه على حقائق ما كان يراها كفرد لا يؤمن إلا بنفسه ولا تتعدى نظرته حياته هو ورغائبه فقط .. سيرى حينئذ الناس والعالم والقيم والمسئولية من زاوية جديدة .

وكنت أنا الأخرى وكأنى ظللت مغمضة العينين طوال حياتى ثم فتحت عينى لأجد نفسى وسط شعب كادح عريق .. كنت أراه كل يوم ولا أحفل به ولا أفكر فيما يمكن أن يكون مصيره ، ولأجد السائق العجوز الطيب الذى كدت أقتله ، ولأجد أبناء الشعب من أمثالك أنت وحسن وسعد والآخرين .. شبان فى صلابتهم فولاذ يعملون من أجل الناس الذين أمر أنا بهم مرور الكرام وأتسلى على حسابهم ، وأعشق شبابا ورجالا آمنوا بالغوغاء والحفاة والمظلومين جميعا وعقدوا العزم على أن يذيقوهم السعادة وهم أحياء ..

وأخذت كلمات كنت أسمعها منك ولا أعيرها التفاتا تومض أمامى وتأخذ بيدى ، ولأول مرة فهمت أن النظريات التى كنت أقرؤها فى الكتب لم تكتب فقط من أجل أن يقرأها الناس وإنما هى تعبير عن واقع علمى موجود وملموس يأبى بعض الناس لسبب أو لآخر أن يراه .. فهمت أن المجتمع الذى أوجد فيه ما هو إلا جسد حى كبير وما أنا إلا خلية من ملايين خلاياه . ولا حياة لى إلا داخل ذلك الجسد أردت أم لم أرد .. ولا أستطيع أن أعمل غير ما يعود عليه بالنفع وإلا انبذنى وتخلص منى ومت .

ومقياس حياتى ليس هو ما أنعم به فى لحظات حاضرى لأن تلك الحياة تموت

معى وتفنى .. إنما المقياس الصحيح هو ما أقدمه لذلك الجسد ، لأن ما أقدمه سيحيا مع المجتمع طالما المجتمع حى وسأحيا معه أنا الأخرى .. إنكم وأنتم تفنون من أجل الناس لا تفنون ، وإنما الذين يقولون .. أنا ، وحياتى ، والمحافظة على كيانى وعمرى ، ومصالحى ، هم الذين يموتون . أنتم تربطون وجودكم بوجود مجتمع سيظل قائما أبدا ، ووجودهم الموقوت المحدود إذا قيس بكم يعد لا وجود ، ولن أحكى بقية ما فكرت فيه .. فقط أقول لك إننى أدركت أنى ضللت الطريق ومشيت فى درب يؤدى إلى خارج الجسد الحى الكبير ، ويقودنى فى النهاية إلى داخل نفسى الضيقة المحدودة ودائرة رغباتها الصغيرة لأجف فيها وأموت ..

وكنت أنت بعد الثلاث الساعات مثلما كنت دائما قائدى فى ذلك الطريق الجديد ، اعتزمت أن أضع يدى فى يدك وأتعلم . وأكبو ثم أنهض لأواصل المسير .

وإذا بى آتى إليك أمس وأنا حريصة ألا أشعرك بالمعركة التى دارت فى نفسى ، وحريصة على أن أستمر فى القيام بدورى ولكن فى الاتجاه الصحيح ، وحريصة على أن أكبت كل إحساس ذاتى وأحاول أن أراك من جديد وأفكر فيما تقوله من جديد وأتعلم منك الألف باء ، وحريصة على ألا أقول غير الحق ، ومع هذا سامحنى يا حمزة فيومها غلبتنى الرواسب الكامنة فى نفسى وكذبت عليك ، وقلت إنى نقلت الحقيبة عند محاسن وإنها رائعة ، فالحقيبة كانت وما تزال تحت فراشى .

كنت آتية وفى ضميرى كل ما أملكه من إرادة لأحاول أن أصلح نفسى وأتعلم منك ، ثم أفاجأ بك تقول ما قلت وتعترف لى أنك أنت الآخر ضعفت مثلى وأحسست ناحيتى .. إلخ .. ولك أن تتصور مبلغ خيبة الأمل التى أصبت بها . ومبلغ الضياع الذى وجدت نفسى أعانيه .. وقلت لك ما قلت

وقلت لى ما قلت ، وخرجت من عندك وأنا لا أدرى ماذا أفعل .. وخطر لى كما أسلفت أن أنتحر وقد انهار كل شيء أمامى .. قبلها بيوم انهارت نفسى ويومها انهرت أنت .. فماذا كان باقيا لى ؟

وكنت أظن أننى سأظل ثلاثة أيام بلياليها أفكر فيما حدث ، ولكن ما إن وضعت نفسى على الفراش حتى نمت .

واستيقظت فى منتصف الليل وجلست أفكر .. فيك . لماذا نخدع أنفسنا أحيانا ونتبرأ من عواطفنا وكأنها قذرات وتهم ؟

ظللت فى الفراش ساعات كثيرة أفكر فى أحسن الوسائل لذبحك وتأنيبك ولفت نظرك .. كانت دوامة تدور فى رأسى ، فلسبب ما كنت لا أتوقع أن تحبنى ، أو إذا أحببتنى لا تصارحنى بهذا الحب ، وكأن البطل الذى فى خيالى يجب أن يفعل هكذا ، ولسبب ما حين يحاول أحد الطرفين أن يعترف للآخر يمثل المعترف إليه دورا سلبيا أو حتى يأخذ موقف المدافع عن نفسه ، ولسبب ما نحرم على أنفسنا أن تنال ما تشتهى بكافة الحيل والعقبات .

ولا تدهش حين أقول لك إنى فكرت فى قطع صلتى بك نهائيا على اعتبار أنك « خنت ثقتى فيك وأنك اتخذت القضية التى تدافع عنها وسيلة لتحقيق مآربك الخاصة » ! وإنه أولى بك « أن تترك الكفاح للناس الذين وهبو أنفسهم للقضية » . أقطع صلتى بك وأحاول أن أجد طريقة لخدمة الشعب الذى آمنت به وأجد قائدا آخر « لا يفكر فى ذاته ويهب عواطفه للناس أجمعين » .

ثم قلت إن هذا ليس بعقاب كاف ، بل يجب أن أكتب خطاب توبيخ حافل بأقذع الشتائم وأرسله لك على عنوان بدير ويكون هذا آخر شيء أفكر فيه ناحيتك .

ونمت .. وصحوت فى الصباح وأنا على عزم الليل . وطلبت من الناظر

أجازة عارضة يوما لأتفرغ للتفكير فى الانتقام . وهدانى العقل إلى أن أكتب لك الخطاب ولكن بدلا من أن يكون هناك احتمال لتسرب محتوياته لبدير أذهب بنفسى وأدق الباب وأقابلك بمنتهى التجهم وأعطيك الخطاب من على الباب وأنزل فورا .. وطوال تفكيرى كانت الصور فى ذهنى تتغير ، ولكن دائما كانت « فهمانى ازاى » ترن فى أذنى وتتردد وكأنها تهزأ بكل ما أفكر فيه ، وجعلتنى لازمتك أفكر فيما قلت لى كلمة كلمة وأزنها جميعا وأحاول حقيقة أن أفهمك ، وسألت نفسى سؤالا لأكيل الضربة الأخيرة لأوهامى وانتقاماتى ما ذنبك ؟ وهل حرام أن تحبنى ؟

وهل هذا مستحيل ؟ وهل هناك تعارض بين أن تحب وبين أن تكافح من أجل كل ما أنت مؤمن به ؟

وأيضا لن تتصور مبلغ فرحتى للسؤال الذى ألجم أوهامى ، كدت أصرخ وأهلل لتلك الفتوى ، ولكنى لم أجد وقتا فقد ردتنى إليك « فاهمانى ازاى » التى كانت لا تزال تنبح فى أذنى وتجعلنى أتصورك بعد ما قلته لك، وأيقنت أنى لابد آلمتك أشد الألم .. أنت يا أعز إنسان .

وتنفعل صورتك فى خيالى بهذا الألم وتنطقه ملامحك ، وأتلوى أنا من العذاب وتزأر كل حشاياى تمنع عنك الألم وتناديك وتستعطفك . أنت الذى طالما تأملتك وتأملت خلجات حماسك وأحببتك وآمنت بك .. أنت الإنسان الكبير الذى يخدم أكبر قضية تعبر لى عن عواطفك التى طالما انتظرتها وتحرقت شوقا إليها .. وأركلك هكذا !

أنا ولو إنى فتاة إلا أنى نادرا ما أبكى ، ولقد بكيت وأحببتك وأنا أبكى ، وهفوت إليك وإلى غزارة ذقنك وشعرك المنكوش ودمك ولحمك وسرحاتك ونظارتك الحبيبة الملحومة ، وحتى فانلتك التى تبدو فتحتها بالية من بيجامتك .. أحببتك وهفوت إليك ، وتصورت أنى ممكن أن أموت أو يمثل

بى أو أجـــر ، إنما لا يمكـــنُ أن أتصور ألا أذهب إلـــيك أو أراك . وأنا على يقين أنى حين أدق الباب سوف تفتح لى باسما .. لا لأنك تحبنى وكدت تفاتحنى ، ولكن لأن الإنسان الذى فيك أوعى من أن يـرفض خطئى ، ولأن قلبك كبير لا يصد طارقا حتى لو كان الطارق أنا .

١٣

ووضع حمزة الخطاب بجانبه وعقد وجهه فبدت فيه مأساة ، والتفت لفوزية وقد أتعبها التحديق فى أدق ملامحه لترى فيها انفعالاته بما يقرأ حريصة على أن تخفى تحديقها ذاك . رفع حمزة رأسه والتفت إليها وسكت .. ولم تجرؤ هى الأخرى على النطق .. وقال أخيرا فى كلمات بطيئة والمأساة لا تزال فى وجهه :

— تعرفى إنتى تستاهلى إيه على الجواب ده ؟

فقالت فوزية فى اضطراب :

— إيه ؟

وقام حمزة فجأة واحتضنها وقبلها ثم قال :

— تستاهلى أكتر من كده .

— لا .. اسمع يا حمزة ما تخليش الحكاية تنقلب هزار .

— بقى ده هزار ؟ أنا فعلا مبسوط من الجواب .

— مبسوط ليه ؟

— تفتكرى لما تعرف بعض أخطائك وتحاولى تصلحيها مش يبقى حاجة تبسط ؟

— بس .. دى أخطاء كبيرة .

ــ الأكبر منها هو إنك عرفتيها .

ــ وأنا ماكنتش مؤمنة بقضيتنا !

ــ مفيش خاجة اسمها ماكنتش مؤمنة يا فوزية .. إنت كنتى دايما بتتحركى تجاهها وده هو المهم . فاهمانى ازاى ؟ الدافع باستمرار بيبقى مختلف عند الناس بس ما دام الهدف سليم خلاص .. دايما الهدف هو اللى بيطور الدافع .

ــ أنا ما اخبيش عليك كلامك بيبسطنى .. بس خايفة اكون بتقوللى كده عشان يعنى العلاقة اللى بيننا .

فعلا لولا واثق منك ، وانك حتمشى وإنى حساعدك وانك حتساعدينى ، كنتى ممكن تعتبرى كلامى تبرير .. بس ..

ــ بس إيه ؟

ــ المسألة مش بتاعة يوم .. إنتى اتغيرتى وكل يوم حتتغيرى .. وأخذ القرارات شيء وتنفيذها شيء تانى ، فاهمانى ازاى ؟ كل أما حتخطى خطوة لقدام حتثقى فى نفسك أكتر وتخطى أسرع .

ــ أنا مستغربة إنت واخد الحكاية بالبساطة دى ازاى ! إنت قريت الجواب ؟ وفهمته كويس ؟

ــ الظاهر إنك كنتى متوقعة أضربك مثلا عشان يبقى الموقف درامى قوى .. إنتى نسيتى حاجات كتير وحملتى نفسك كل الخطأ .. نسيتى إن فترة نشاطك كانت فترة إقبال من كل الناس على المساهمة فى القضية ، وإن الفترة اللى بدأت فيها اللى بتسميه مغامرة كانت فترة إرهاب ، يعنى الفترة اللى بتظهر فيها الانحرفات والمغامرات .

ــ بس انت مثلا ..

ــ انتى واخده عنى فكرة مثالية قوى .. أنا مش بطل ولا كلام من ده ،

فاهمانى ازاى ؟ أنا من دم ولحم وعندى نفس المشاكل الجنسية والنفسية اللى عند كل الشبان اللى زيى ..

وأنا برضه لما اتصلتى بيه كنت مبسوط لأنى حاشتغل مع واحدة حلوة زيك ، وبرضه لما ابتديت أعجب بك وأدخل فى الغميق كنت فاهم إن فيه تعارض .. أنا إنسان زيك تمام .

— يعنى واثق فيه يا حمزة ؟

— أهى دى مسألة فيها نظر .

وضحك ، واغتصبت فوزية ضحكة وسألته :

— يعنى لسة بتحبنى ؟

— على فكرة أنا مش مؤمن بمبدأ السؤال ده .

— ليه ؟

— دا سؤال لفظى .. إحنا بنحس الحب زى ما بنحس الخوف والفرح والكره .. فعشان تعرفى إذا كنت لسه بحبك واللا لأ إسألى نفسك .

— وإذا سألتها وقالت إنك بطلت ؟

— ابقى فى الوقت ده أقرصيها من ودانها وقولى لها تبطل كدب .

— إنت رايق .

— يعنى لازم أعيط عشان أثبت لك ؟

— لأ .. عايزاك تقول الحق .

— يعنى عايزه أكدب عشان أقول « الحق » اللى انتى عايزاه ؟ أنا ما أقدرش اقول إلا الحق .

وقبلها قائلا لها « الحق » كل الحق فى فمها .

وتقبلته فوزية ساهمة .

فسكت ثم ابتسم وقال :

— بقى مش أنا اللى ليه الحق انى أسأل ؟
— تسأل إيه ؟
— لحسن يكون الحب راخر صفى عندك على حاجة ؟
— يوه يا حمزة .. كفاية تعذيب .. كفاية بقى .

ودلفت من الكلمات إلى الدموع ثم إلى البكاء .. وانكفأت على ذراع الكرسى والدموع تنهمر وتبلل الذراع ، ومدت يدها تطلب منديلا و لم يك لديه واحد نظيف .

فأسرع إلى الحمام وأحضر « فوطة وش » قائلا :

— لا مؤاخذة .. إذا ما كانتش كفاية لما تتبل كلها أجيب غيرها .

وازدادت نهنهاتها وشهقاتها ، فجلس حمزة على كرسى وأسند رأسه إلى الحائط وقال :

— معلهش .. قليل من البكاء يصلح المهج .. الدموع وسيله فسيولوجية لغسل العيون ، فإذا ازدادت غسلت القلوب أيضا .

ولكن فوزية انخرطت فى بكاء مؤلم لا يصلح فى تلافيه الهذر . وما أدرك حمزة هذا حتى ترك مكانه ولف ذراعه حولها ورفع وجهها إليه ، وانبثقت فى صدره لوعة عذاب حادة حين رأى عينيها الباكيتين ورأى كأن شمس يوم حزين تغرب فيهما ، وقد تحول البياض الناصع إلى شفق ، وتوهجت العسلية المذهبة بأشعة الغروب كما تتوهج سنابل القمح حين يغيب وراءها القرص الأحمر ، والدموع تتساقط حزينة هى الأخرى تبكى وتدمع وتولد فى عيون الآخرين الدموع .

ووجد نفسه يهدهد عليها برفق واحتراس وكأنها مصنوعة من دقائق زجاجية لا تحتمل لمسه ، وكان يفعل ذلك بدهشة غير قليلة فتلك أول مرة كان يهدهد فيها على إنسان أو حتى قطة ، فما باله بفوزية وهى مستكينة إلى

التجويف الدافئ الكائن بين جنبه وذراعه ، والتى يحسها بعضلات صدره هشة أليفة ، ودموعها متلألئة يكاد من كثرتها وتتابعها أن يتذوق طعمها فى فمه ، وشعرها يجذب أنفه برائحته ورائحتها وهى مطمئنة إليه بكلها .. وبالشمس الغاربة فى عينيها .. وبمكرها ومبالغاتها .. وبكل ما تحمله له من حب .

كان البيت من البيوت التى تقع فى حواف الدقى ، وكانت النافذة تصنع بروازا مربعا للوحة حقيقية تغرب فيها الشمس نفسها عبر البيوت البعيدة والمزارع التى لا تنتهى ، وجو الغروب يشحن بمقدمات التغيير العظيم الذى سيطرأ على الكون بعد ذهاب الشمس .. وكانت شعاعات صفراء وحمراء قد اخترقت النافذة وبرزت من اللوحة وأضاءت الحجرة . وأحس أنه قد أصبح إنسانا آخر .. شاعرا أو موسيقارا .. أو فنانا مشحونا بأحاسيس مرهفة ناعمة هفهافة تتصاعد من نفسه وتملأ الجو الذى تضيئه لهثات شمس أخيرة ، بأبخرة معطرة وسحابات خفيفة مصنوعة من ذرات إنسانية خالصة . أحس أن قلبه يذوب وكأن عددا لا نهاية له من العواطف الدقيقة الضعيفة الواهنة يتسرب إلى ذاته الحديدية وينهشها ويشبعها نبضا ولينا وألفة ولا يستطيع مقاومتها ، ويدفعه العجز إلى حنين جارف للبكاء وكأن لحنا جنائزيا تأتيه أنغامه من بعيد لا تشمئز له نفسه ، ولكن يثير فيه أشجانه ويداعب أوتار حزنه المهملة فى نفسه فتروح تعزف هى الأخرى وتنوح ، ويتصاعد حزنها ألحانا تحرض على الحزن والعجز ، وتغرى بأن يفضفض الإنسان عن نفسه بالدموع أو بالكلام .

وآثر حمزة أن يتكلم ، وخرج صوته غليظا قد جرحه البكاء الذى لم يتم ، وكانت فوزية قد هدأت واعتدلت ومضت هى الأخرى تتحدث فى وجل .

وغابت الشمس .

وحل المساء .

وكان أحد أمسيات الشتاء وبدأت نسمات تهب .. نسمات ليس فيها جمود اليأس وإنما كان لها مخملية الأمل .. وكان حمزة قد أضاء النور وأصبحت الحجرة تسبح فى بحر من عواطف متدفقة . كان فى جوها ضحكات قصيرة مختصرة وطويلة لا نهاية لها ، وأيد تدق على أيد ، وقلق بال ، وتنقلات سريعة متلاحقة من حادثات فاتت إلى لحظات تصنع الحاضر ، إلى ومضات عيون والتماعات خدود وبسمات راجفة كمناديل حريرية معلقة تجف ، وكلام كثير يريد أن ينطق ، ورهبة من الكلام .. وحمزة يجلس فلا يركن إلى الجلوس ، ويتمشى فى المساحة القليلة الباقية فى الحجرة بغير أثاث فلا يركن إلى المشى ، وأسلاك خطط طويلة تخرج من رأسه لتمتد إلى الغد وبعد الغد ومئات السنين ، وفوزية تبدو فرحة تنظر إليه وتتحسه بعينيها وتتأمله كالشىء الثمين الذى تقلق حوزته حتى وهو بجانبها ، وفى قلبها وعينيها كانت قلقة لا تكاد تستقر على حال ، ولا تكاد تصدق أن حمزة أصبح لها وإنها ستصبح زوجة ذلك العزيز الثائر الذى يتوهج بمنطق لماع مشع ينفذ إلى الأقوال والأشياء فيفصصها ، ويتأمل تركيبها وقانونها كما كان بفعل « بالبريتا » ، ثم يصدر عليها حكمة فى بساطة وبلا ضوضاء .

ابتسامته وابتسامتها كانا هناك حين فتح الباب فجأة وظهر بدير مصفر الوجه جامد الملامح ترتعش أصابعه التخينة الشاحبة ، وخطا خطوة واحدة إلى الداخل وتوقف قليلا ، وجاب الحجرة كلها بعينيه وتفحص فوزية بدقة ، وكذلك فعل بملابس حمزة ثم قال له : تسمح .

وتبعه حمزة المذهول إلى الخارج ، وأغلق بدير الباب ومشى إلى حجرة النوم ، وما كادا يصبحان فى الحجرة حتى التفت بدير قائلا فى مرارة غريبة على صوته :

ـــ أنا مش قايل دى متجيش هنا ؟

ـــ دى مين ؟

فقال بدير وعيناه إلى الأرض وأسنانه تتضاغط :

ـــ الشرموطة بتاعتك اللى فى الأوضة التانية .

وكاد حمزة أن يصفعه ، وفعلا قام بعمل المقايسات اللازمة بين حجمه وحجم بدير والمسافات التى على يده أن تقطعها لتستقر على وجهه ، لولا أنه عاد إلى وعيه ورأى أمامه طفلا ضخما لا يستطيع أن يمد عليه يده .

ـــ تفتكر إن دى طريقة يا بدير ؟

ـــ ما هو مافيش إلا كده .. أمور الشرمطة دى ما أعرفهاش .. أنا راجل صعيدى .. يمكن يبان على إنى متساهل إنما فى الحاجات دى أنا صعيدى قح .

ـــ ويصح وانت صعيدى قح تشتم ناس متعرفهمش كده ؟ . كده ؟

ـــ بلا يصح بلا ما يصحش .. انت خليت فيها يصح .. أنا قلت متجيش .. فما دام جت تبقى انت وهى بره على طول .

ـــ سيبنا من التهويش ده وبلاش جعير وقول لى إيه حكاية التقاليد الصعيدية اللى ظهرت فجأة دى ؟

ـــ ما فيش حكاية .. بره يعنى بره على طول بلا أى تفسير .

وألقى عليه حمزة نظرة أخيرة أيقن بعدها أن لا فائدة من مناقشته وإنه فى حالة لا يعى معها ما يقول أو بفعل ، بل إنه فى حالة قد يرتكب معها جريمة . و لم يكن حمزة يتصور أن المسألة ممكن أن تتطور إلى هذا الحد وإنها ستتفاقم إلى أن تصل إلى هذه الدرجة .

واشار إلى فوزية وتقدمها إلى باب الشقة بعد أن جمع حوائجه القليلة ووضعها فى الحقيبة القماش ، وأغلق وراءهما الباب ومضيا يهبطان السلم . وفوجئا ببدير يطل برأسه من باب الشقة قائلا فى صوت مخنوق :

ـــ الشنطة الكبيرة .. تلاتة بالله العظيم إن ما كانت تجينى لأدفعك ثمنها غالى .

وأغلق الباب . وخيل لحمزة وهو يهبط بقية الدرجات أنه يسمع وراء الباب المغلق شهقات وتهنهات .

وبعد خطوات كانا يحتويهما ظلام شوارع الدقى ، حيث الليل والأشجار والفوانيس الغازية الشاحبة المتباعدة ونقيق الضفادع فى الخرائب الكثيرة وهى تستقبل مقدم الربيع .

وكان هناك نقيق مشابه فى رأس حمزة يعلو ويعلو . كان فى رأسه بدير الذى زامله عاما فى مدرسة ثانوية وقابله بعد ذلك فى القاهرة صدفة ، ونشأت بينهما منذ ذلك الحين علاقة لا هى سياسية ولا شخصية ولا لأن فيه اتفاقا فى الأمزجة ، ومع هذا ظلت قائمة لا تموت ولا تنطفئ .. اختفى حمزة عنده حين جاء بيفن إلى مصر ، ومع ما حدث فلم يكن ساخطا عليه بقدر ما كان ساخطا على نفسه إذ الخطأ خطؤه .. كان من الواجب أن يحاول بجدية أكثر أن يكشف عن الإنسان الذى فى بدير وينميه . إنه حتى وهو يطرده كان يحس ناحيته بالعطف والحب والألم ، وهى مشاعر نادرا ما كانت تطرق باله . وخيل لحمزة أن نظرته إلى بدير وإلى الناس عامة تغيرت ، بل لا بد أنها تغيرت ، ولا بد أنه كان مخطئا إلى حد ما فى استيعابه للجماعة البشرية . كان يؤمن أن الناس تتطور ولكنه يدرك الآن أنه كان يرى ذلك بطريقة آلية . أن فهمه للناس كان شيئا كهذا : المجتمع يكون كسرا اعتياديا له مقام يعد بالملايين وبسط يعد بالآحاد أو العشرات ، وإن المجتمع يتطور بتناقص البسط مع المقام . وكل إضافة تبسط على حساب المقام ، وكل إضافة للمقام تنتزع انتزاعا من البسط ، وإن الإنسانية ستظل فى عذاب وحروب حتى يطاح بالملوك والأبسطة وتتحرر المقامات وتصل البشرية إلى المجتمع الواحد

الصحيح . إنه يدرك الآن أن فهمه ذاك كان ناقصا .. إن الناس ليسوا أرقاما ولإرادتهم ولعواطفهم دخل فى تطورهم المحتوم .. إن الناس ليسوا آحادا وعشرات لا تملك إلا أن تتكاثر وتتناقض وتصنع التاريخ بحركتها ، ولكن الناس زهرات الحياة اليانعات فيهم أرق ما أبدعته الحياة من إحساس ، وأثمن ما استطاع التاريخ أن يضيفه على البشر من عواطف ، وإن الإنسان يمضى فى الحياة وحوله هالة من أحاسيسه وعواطفه وأفكاره لها قدسيتها ولها هى الأخرى قوانين ووجود . وكأنما كان ينقص حمزة أن يحب وأن يمضى وفوزية بجواره فى ظلام الدقى ليحس بها كالينبوع الفياض الذى يغذيه بالهام جديد يرى على ضوئه الناس وأعماقهم ، ويرى ما فى أعماقهم من نيل وجمال ، ويرى فى بدير بذور الإنسانية التى كان عليه أن يتعهدها ويروبها ..

وسألته فوزية وهو يلمح السؤال يلح عليها :

— ماله بدير ؟ إتجنن .

— لا .. حبك .

— حبنى ؟ حبنى إزاى ؟

— دا مش حبك وبس ، دا بيغار عليك كمان ، وعشان كده طردنا .. هو انت حد يشوفك إلا إما يحبك ؟

— غريبة ! يمكن .. أنا كنت حاسة إن نظرته لى مش عادية أبدا . وبعدين ..

— ولا قبلين .. بدير كويس بس دى حاجة عارضة .. أنا حسيبه لما يبرد شوية وبعدين أبدأ أتصل به تانى .. الحقيقة أنا اللى غلطان مش بدير .

— ودلوقتى رايحين فين ؟

— أعرف شوية ناس .. حنجرب .. معاكى فلوس لحسن حناخد تاكسيات كتير .

— خد .

ــ تروحى انت بقى .

ــ أروح إزاى ؟ أنا معاك لغاية أما أشوف حتروح فين .

ــ الساعة ستة ونص دلوقتى .

ــ انشا الله تكون اتناشر .

وكانما كانت هناك مؤامرة متفق عليها .. الطالب الذى يعرفه فى الجيزة مش موجود ، وعلى الباز لا أحد يعرفه فى العنوان الذى ذكره له ، وقريبته الساكنة فى شارع خلوصى وجد زوجها جاء من السفر وظهر رفضها واضحا فى عينيها ، وكان التاكسى لا يزال حائرا بهما كنحلة ضلت طريقها إلى خليتها .. وشوارع القاهرة نهار وحاراتها فجر وأزقتها ليل بهيم .

والأحياء كثيرة شبرا وعابدين والسيدة ومصر القديمة والأزهر وطولون وشارع فؤاد والدرب الأحمر .. وبنايات ضخمة ، خمسة أدوار وعشرة وعشرين ، ومئات الآلاف من النوافذ وآلاف من الأبواب والبوابين ، وعمارات نام سكانها وعمارات لم تنم وعمارات لا تنام ، ورواد سينمات ورواد شوارع وفسح وكباريهات ، وملابس سهرات ، وما بعد ظهر ، وبدل وأصواف ومعاطف ، وفساتين فاقعة الألوان ، ونساء جميلات فى فتارين من البودرة والروج قد تقمصتهن فوريرات تعالب ودببه ، ويمكن نمور وأسود . وإشارات مرور حمراء وخضراء وصفراء ، وأنوار نيون بكل الألوان ، وعمال نظافة وعمال بلا نظافة ، وعساكر سود وبيض على عجلات وعربيات وداوريات ، ومبانى بنوك هائلات ترقد ثابتات كأحدث أهرامات الأهلى ومصر والكريدى ليونيه والأمة العربية وبنك المستعمرات . وما وراء البحار ، وخواجات وأروام وجريج ومن كل ملة ولون ، وجامعى أعقاب وأصحاب عربات وشحاذين ، وأناس ينتهى يومهم وأناس بيدءون اليوم ، وأموات وأطفال يولدون ، وراديو يذيع آخر الأنباء وبرقيات

ومواعيد ، وأسعار تهوى وأسعار ترتفع ، وأناس يهوون ويرتفعون بلا أسعار ، وخمور تخلط وحشيش ، وعمليات اصطياد وصفقات ، ومشاورات لتأليف الوزارة ، وحناطير تنتظر وكاديلاك وتاكسيات تتجمع فى أكوام كالذباب كلما بصق مكان رواده ، وسواقين يتشاتمون ويمسون ويهزرون ، وهؤلاء جميعا لهم مكان يأوون إليه وأمكنة لا يأوون إليها ولا حتى يعرفونها ، وفوزية وحمزة يتسللان وسط هذا كله يحتميان من الظلام بسواده ومن النور بالعربات .

ورهيب ذلك الإحساس الذى يعترى الإنسان حين يرى هذا كله ويعيش داخله ، وهو مدرك أن لا مكان له فيه ..

وحمزة يسأل :

— طب والعفش يا فوزية حنجيبه منين ؟

— مش مشكلة .. حاخد أودة النوم بتاعة أمى .

— حتقولى لبوكى إمتى ؟

— الليلة .. ضرورى حيوافق .

— حتى لو عرف أن أبو يا عسكرى دريسه .

— عسكرى إيه ؟

— دريسه .

— دريسه إيه ؟

— عامل بيصلح سكك الحديد .

— أبوك عامل ؟

— أيوه .

— يعنى من صميم الشعب ؟

— أيوه .

ــ يعيش أبوك .

ــ تعيشى انت .. تفتكرى أبو كى حيوافق ؟

ــ أظن كده .. مش عارفه .. بالكثير حيمط بوزه ويقول : انت حرة .. دا مستقبلك اتصرفى فيه .

ــ يعنى مش حايرفض ؟

ــ مش ممكن يرفض .

ــ يعيش أبو كى .

ــ وبعدين .. الدنيا دى كلها ومش لاقيين مكان نبات فيه الليلة بس !

ــ لازم حنلقى .

ــ يعنى بالعافية حنلفى ؟

ــ أيوه بالعافية .. أنا متفائل ومع ذلك مش مصدق إننا خلاص حنتجوز .

ــ اعتبر الموضوع ده منتهى .

ــ دا لسه ما ابتدأش .

ــ دا انتهى من أول يوم شفتك فيه وايديك فيها جاز فى الخيمة .

ــ وحيبقى لينا ليلة دخله ؟ تعرفى ليلتها حا اعمل إيه ؟ حاقفل الباب ورايا واقول :

ــ يا زميلة فوزية حنتناقش .. ماتتكسفيش .

ــ يا جدع انكسف انت .

ــ احنا لسه قفلنا الباب ؟

ــ هس .. الراجل ده باين عليه مخبر .

ــ مش باين .

ــ أنا أراهن .

ـــ لو حتى بالك كنتى عرفتى إنه مش مخبر .. لأنه أولا ماشى فى وسط الشارع وماشى يتلفت .. وباين عليه بيدور على حاجة .. أهو لقاها .. ووقف يستنى الأتوبيس .. وأهوه ركب .

ـــ دا أنا غبية قوى .

ـــ لا .. يمكن جديدة .

ـــ وحا اتقدم ؟

ـــ م .. م منظور .

ـــ تعرف إنك لذيذ .. أنا كل دقيقة باكتشف فيك حاجات تتحب .

ـــ وأنا كل دقيقة يا أحس بالتغيير اللى عملتيه فى نفسى .

ـــ أنا عملت تغيير ؟

ـــ كتير ..

ـــ مثلا ..

ـــ مثلا .. كنت واخد الكفاح بشكل بطولى .. كنت فاهم إنى يا اضحى عشان الناس فلازم يحبونى ويفردولى مكانه كأنى مسيح ، فاهمانى ازاى ؟ ودلوقتى شعرت بقضيتنا كبيرة وبدورى فيها متواضع ، وكل ماباشوف ظلم ياشعر إن اللى يا أعمله مهما كان قليل .. مثل تانى .. كنت حاسس بالغربة وإنى صحيح بقوم بدورى اللى بيخدم الناس ، إنما كنت بعيد عنهم .. إنت خلتينى أشعر بأنى ارتبطت بالمجتمع ارتباط وثيق .. إنى بقيت منه .. إننا كلنا عيلة ، فاهمانى إزاى ؟ أنا وانت اندمجنا فى كل الناس وأصبح تعدادنا بالمليون . أنا وأنا بيص للناس حاسس كده .. شايفه دول اللى مروحين واللى جايين ، واللى راكبين على العربية الكارو دى ، والمتشعبطين على السلم ، واللى قاعدين ع القهوة دول ؟ دول شعبنا .. شايفاه إزاى مضروب ومبعثر ؟ أنا حاسس دلوقتى إنى با أحبه أكثر وإنى عايز أفنى

علشانه ، وحاسس أكتر بحاجته للقائد اللى يلمه ويوصل بيه زى ما بتقولى للحب ولبكره ، فاهمانى إزاى ؟

ـــ تعرف الكلام ده على لسانى كنت عايزه أقوله .. تعرف أنا اكتشفت اكتشاف خطير !

ـــ إيه ؟

ـــ أنا مابقتش فوزية .. أنا بقيت فوزية وحمزة .

ـــ وتعرفى أنا اكتشفت اكتشاف خطير !

ـــ إيه ؟

ـــ أنا مش حا اتجوزك بس ، دا أنا حا اتجوز بيكى المجتمع ، فاهمانى إزاى ؟

ـــ أنا بيتهيأ لى إن كل كلمة من كلامك ده بتخلينى أحبك أكثر من الأول .

ـــ احنا يا فوزية فى كل لحظة حبنا بينمو .. لأنه جزء من حبنا الكبير للناس والقيم الإنسانية ، والناس بتتحرك وتتطور .. وهو برضه النهارده مولود وباستمرار راح يكبر ..

ـــ ولما تتجوز ؟

ـــ حايبقى شباب .. فى عز شبابه .

ـــ انت الليلة دى رائع .

ـــ أنا شاعر بقوة جديدة .. بطاقة من النشاط بتسرى فى تفكيرى ونفسى وتكوينى .. دلوقتى حاسس بعمق أن بلدنا بلدنا فعلا ، والناس دول ناسنا ، وإننا لازم نعيش .

والليل يمضى لا يحفل بالمدينة ، والمدينة تحيا غير حافلة بالليل ، بناياتها الكبيرة تبدو صغيرة وبيوتها عشش نمل وشوارعها أضيق من ثقوب الابرة ، والناس كثيرون كثيرون .. وفوزية بجوار حمزة وفى كيانه ، وذراعها حول

ذراعه ، وصدرها قريب من صدره ، وفى عينيها بريق وتحد والعيون كثيرة ، والخطر فى كل خطوة .

وفى مكان من شارع الملكة ، والعربات طائرة كالريح والأسفلت يمتد طويلا أسود يلمع بضوء المصابيح المنمقة الموضوعة على جانبيه ، خطر له خاطر فتوقف فى الحال وقال :

ــ أما احنا مسطولين صحيح . ما أروح عند صاحبتك دى اللى قلتى إنها مستعدة تخبى ناس .. اسمها إيه .. ما .. قولى معايا .

فأجابت وهى تضحك :

ــ ما فيش داعى تتذكر اسمها .

ــ ليه ؟

ــ لأنها موجودة هنا بس .

قالت هذا وهى تشير إلى رأسها .

ومن شارع الملكة إلى السكاكينى وإبراهيم باشا والعتبة مرة أخرى ، ولا أمل ولا شروع فى أمل ، وفى شارع عبد العزيز قرر حمزة أن يذهب إلى حجرته فى المبتديان ويقضى فيها الليلة . هناك خطر ولكن ليس هناك مفر .

ووقف فى الظلام المجاور لدار العلوم وأرسلها تستكشف . وعادت إليه بعد قليل مسرعة قائلة إنها رأت أربعة لا بد أن يكون أحدهم مخبرا .

وابتعدا بسرعة عن المنطقة كلها عن طريق شارع الفلكى وكان ما معهما من نقود قد انتهى ، فاقترض حمزة من نقود السلاح التى معه على أن يسددها حين يحصل على مرتبه عن نصف الشهر الذى انقضى . وسأل فوزية أن تذكره أن يكتب لها توكيلا لتذهب وتصرف المرتب من مقر شركة الحرير .

وكان حمزة قد قرر أن يحاول مرة أخرى مع قريبته التى فى شبرا ويقضى عندها الليلة بالعافية أو بالرزالة وليكن ما يكون ، ولكن قريبا من باب اللوق قطع

حديثه الساخط وسألها :

ـــ مش ده سعد ؟

ـــ آه .. هو صحيح .

كان سعد مقبلا من بعيد هو وثلاثة شبان آخرين ، وكان واضحا جدا بينهم بقصره واصفراره ونحافته ، وكان يرتدى هذه المرة بدلة كحلية أنيقة ويضع منديلا أبيض فى جيب سترته الأعلى .

وتفتحت أمام حمزة أبواب الأمل على سعتها إذ لابد أن يكون لديه مكان ، بل لا بد أنه على صلة ما باللجنة وممكن أن يعيد اتصاله . وطلب من فوزية أن تنتظره ثم أسرع ناحية سعد وزملائه ونادى عليه . و لم يسمع إذ كان الأربعة فى تلك اللحظة منخرطين فى قهقهة عالية تفرقوا على أثرها فى أرجاء الشارع يضحكون . ثم عادوا يتجمعون . وقبل أن يصل إليهم حمزة كانوا قد توجهوا إلى عربة « فيات » واقفة على الرصيف المقابل لمحطة باب اللوق ودخل الثلاثة فيها . وقبل أن يدخل سعد كان حمزة أدركه وأمسك بكوعه ، والتفت سعد وامتلأ وجهه بدهشة واسعة الأطراف وقال :

ـــ هاللو .. هاللو .. حمزة .. انت فين ؟

وعانقه عناقا حارا وقبله على جانبى رقبته ، وسأله حمزة :

ـــ انت فين يا راجل ؟ بقى كده ما تجيش فى الميعاد .

ـــ أبدا مش صحيح .. دا ما حصلشى أبدا .. بالشرف رحتلك يومها قبل الميعاد بربع ساعة وفضلت واقف بعده بيجى نص ساعة لما نشفت من البرد .. بشرفى انى رحت ، وبالأمارة ..

ـــ طيب بالأمارة الميعاد كان فين ؟

واحتار سعد وقلب رأسه وقد تزمتت ملامحه يمينا ويسارا وفوقا وتحتا ، وعوجها مرات ثم قال : آه آل .. طبعا .. كان عند قصر النيل .. أيوه

بالضبط عند قصر النيل .. لأ .. أنا فى حكاية المواعيد دى ظبط قوى .

وابتسم حمزة وقال له :

ــ طيب وإيه رأيك إن ماكانشي فيه بينا أى مواعيد أبدا .

وتوقع منه حمزة أن يضحك أو يقهقه ولكنه عقد جبهته قليلا ثم قال :

ــ أبدا .. شوف .. شوف انت ناسى إزاى بقى .. شوف مين اللى مابيجيش فى المواعيد وينساها .. عرفت بقى .. عرفت ..

وقاطعه حمزة .. قائلا :

ــ أنا مختفى يا سعد وعايز مكان الليلة لأن فيه ظروف خلتنى أسيب المكان اللى كنت فيه .

ــ مختفى ؟

ــ أيوه هربان ، فاهمنى ازاى ؟

ــ هربان !

ــ ما عندكشى مكان ؟

ــ طيب وهربان ليه يا حمزة .. مش كويس كده . ما افتكرشى فيه داعى لهروبك .. ما افتكرشى حد يعرف عنك حاجة .. مافيش داعى أبدا .

ــ اسمع يا سعد .. مفيش داعى انت تضيع الوقت ، أنا لا بد عايز مكان دلوقت حالا .. فإيه رأيك ؟

وقبل أن يجيب سعد تصاعد صوت أنثوى من داخل العربة يقول :

ــ يالله يا سعد .. يالله يا سونه اتأخرنا .

ــ جى .. جى يافتفت .. جى بسرعة .. بس فيه حاجة مهمة .. جى .. ثم التفت لحمزة وقال :

ــ بس مكان إيه يا حمزة .. مكان فين ؟ أصل دول جماعة قرايبى ومدعوين .. أيوه مدعوين فى فرح .. فرح ابن خالى .. زميلى فى المدرسة دا

كان عفريت قوى معرفشى إيه اللى خلاه يجوز .

وهنا سمع سعد وحمزة صوتا أنثويا قبيحا صادرا من أنف وحلق واحدة من داخل العربة ، واحمر وجه سعد الأصفر جدا .. وثنى جذعه مرة أخرى وصاح فى غضب :

ـــ إيه قلة الأدب دى .. دا مش كلام .. مش أصول كده يا خوانا .. مش طريقة .

وقوطع سعد بصوت مماثل يرد عليه ، وهذه المرة كان صادرا عن شاب ، وهنا ابتلت حمرة وجهه بقطرات من العرق ثم قال لحمزة :

ـــ لا مؤاخذه يا حمزة .. شبان .. ماتآخذهمش .. طيش .. قلة أدب .

ـــ ما فيش مكان يا سعد ؟

فأجاب فى صوت منخفض :

ـــ والله يا حمزة انت عارف أنا ساكن مع أهلى .. ومش عارف أعمل إيه .. مشكلة غريبة .. طب مش تقوللى من يومين ثلاثة مثلا كنت عرفت أتصرف . كنت عرفت أعمل حاجة .. لا مؤاخذة يا حمزة .. باردون ..

قال سعد هذا وابتسم ابتسامة واسعة جدا ومفاجئة تشبه الضحكة ، ثم انقض على أذن حمزة فى التو بابتسامته تلك وهمس :

ـــ أصل الليلة عقبال عندك زى ما انت شايف فيه شغل عاجل قوى .

واقشعر جسد حمزة ، ولم يكن ذلك لهمسة سعد وإنما لإحساس غامر هبط عليه فى تلك اللحظة .. الإحساس بالحذر ، الإحساس بالموجة الصاعدة وهى تهبط وتتلاشى ، ثم يبدأ التراجع الذى يسحب معه كل ما كان عائما فوق الماء ، وكل الفقاقيع ، وكل ما ليس له جذور .. الإحساس بأنه واقف على شاطئ رملى والماء يتسرب تسربا خفيا وينسحب عائدا إلى البحر ويسحب معه رمالا كثيرة ولا يتبقى إلا ما تحت قدميه فقط .

ووجد سعد يقول :

ـــ وانت فين يا حمزة ، فين أراضيك ؟ ابقى خلينا نشوفك يا أخى ، لازم نشوفك . دا ولا كأننا كنا نعرف بعض ، دى مش أصول أبدا ، كلام فارغ .

ولم يصدق حمزة أن كلاما كهذا ممكن أن يختم عاما طويلا من اللقاءات والاجتماعات والمعارك .

وكان يود أن يهب فى وجهه سابا لاعنا مذكرا إياه بما كان ، وبمنابر كلية الحقوق التى ارتجت بخطبه ، وبما ظل يقوم به من كفاح إلى أسابيع قليلة مضت .

ولكن الظروف لم تك تسمح ، ثم أن حمزة نفسه كان فى تلك اللحظة يملؤه الشعور القوى بالحاجة لا إلى سعد ـــ ولكن إلى أوتاد حديدية تحمى ما فوق الشاطئ من الجذر المنسحب .

وقال له حمزة أخيرا :

ـــ انت مش مكسوف من نفسك ؟ بقى انت ما تقدرشى تشوفلى مكان الليلة بس .

ـــ انت عارف يا حمزة انت مش غريب . ماعنديش أى فكرة . لو كنت قلتلى .. لو أى حاجة تانية ممكن أعملها أنا مستعد أى حاجة ، بشرفى أى حاجة تانية .. أيوه ما قلتلك جى يافتفت قلتلك جى .. إيه ده ؟ دا مش كلام .. عن إذنك بقى .. أوريفوار .. أوريفوار يا حمزة .. خلينا نشوفك .

وكان حريا بحمزة أن يستسلم لما ألم به من اشمئزاز ، ولكنه ناضل وسعد يهم بركوب العربة وقال :

ـــ طيب .. ونشوفك ازاى يا سعد ؟

فأجاب سعد ورأسه داخل العربة وجسده خارجها :

ـــ أنا بقعد على قهوة ماتاتيا فى العتبة .. هناك شلة بلعب معاها شطرنج .. إبقى خلينا نشوفك .. أوريفوار .

ومضت العربة وفيها ضحكات وبقايا أصوات الحلوق .

وعاد حمزة إلى فوزية وما حدث كان مرتسما بكل تفاصيله على وجهه ، فلم تكن ثمة حاجة للإضافة خاصة وأن فوزية قالت له :

ـــ أنا لمحت بنتين فى العربية .

فغمغم حمزة و لم يجب .

كان قد قرر أن يذهب إلى قريبته فى شارع خلوصى . ونادى على تاكسى وقد تهيأ لتنفيذ القرار .

لقد عرض نفسه منذ خروجه من بيت بدير إلى مئات الفرص التى كان يمكن أن يراه فيها رجال البوليس السياسى ، وهو ليس غريبا عنهم فصورته يعرفها معظم المخبرين ، وقد قضى سنوات يعتقل ويراقب ويحجز ويتحرى عنه . كان لا بد إذن من الذهاب إلى شبرا ، وقالت فوزية وهو يهم بالصعود :

ـــ يا أخى ما بلاش عناد وتيجى عندنا .

ـــ قلتلك يا فوزية ميت مرة مش ممكن .. أولا مفيش مكان عندكو ليه .. ثانيا حتى لو فيه مكان ما ارضاش .. أنا لأن ده وضع مش طبيعى أبدا وحيكون صدمة كبيرة على أبوكى ، ثالثا حتى لو كنت مجوزك فبتكو فى شارع خيرت جنب وزارة الداخلية على طول ، فاهمانى ازاى ؟

إطلع من فضلك يا أسطى على شبرا .

وما كاد حمزة يستقر فى العربة حتى انتصب أمامه فجأة شبح سيد .. فأشرق وجهه بفرحة غير عادية وقال :

ـــ بس وجدتها .. وجدتها .

١٤

ـ هى إيه اللى وجدتها ؟

ـ خلاص .. اتحلت المشكلة .. لا بد سيد يعرف مكان أو حتى أنام معاه .

ـ سيد مين ؟

ـ حقوللك دلوقتى .

ونظر حمزة فى ساعته ، وكان يخيل إليه أنها على الأقل تعدت الحادية عشرة من كثرة ما لف ودار ، وفوجئ بها لا تكاد تتعدى التاسعة والنصف إلا ببضع دقائق . ومع هذا خاب أمله وغامت ملامحه فى الحال . إذ هو يستطيع العثور على سيد فى النهار فقط أثناء عمله فى الجبانة أما فى الليل فأين يعثر عليه ؟

ومرة أخرى أشرقت ملامحه وقال فى فرح صبيانى :

ـ عند باب الوزير تقول فين عمى سماعين أبو دومة .. ألف من يدللك .

فتشبثت فوزية بذراعه قائلة :

ـ إيه .. مالك يا حمزة ؟ إنت اتهبلت ؟

ـ لا .. أبدا ، أكيد أبو دومة عارف مكان سيد وح يدلنا عليه .. فرجت .. ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت .. وكنت أظنها لا تفرج .

ـ إيه أبو دومة وسيد والشعر ده ؟

ـ دلوقتى حتعرفى كل حاجة .. يا أسطى من فضلك إطلع بينا على باب الوزير .

وقبل أن تصل العربة إلى الميدان قال لها :

— أظن بقى تسيبينى هنا وتروحى ، فاهمانى ازاى ؟

ودقت فوزية أرض العربة بقدمها كالطفل الغاضب وقالت :

— قلتلك مش مروحة ، انشاالله أبات أنا وانت وقفين فى الشارع .. لازم أشوفك حترسى على إيه .

وأوقف حمزة العربة وحاسب السائق ، ثم طلب منها أن تنتظره على محطة أتوبيس ١٩ إذ أن منظرهما معا قد يسترعى الانتباه فى حى الأغراب فيه قليلون .

ومضى وحده .. وأصبح فى باب الوزير وقال فى سره : يا سلام على العظمة ! تقف عند باب الوزير وتقول فين أبو دومة ؟ تقولشى ابن طولون . طب فين أبو دومة .. هو معقول حد يعرفه ؟

وكان الميدان الضيق قد خفت فيه حركة الناس ، لا يبقيه ساهرا إلا القهاوى التى تحده من كل الجهات والناس القليلون الماشون قد كورهم البرد على أنفسهم ومضوا يتدحرجون فى صمت شتوى حزين إلى مضاجعهم .

وحمزة له خبرة فى السؤال لا تجارى من كثرة ما سأل عن ناس وأشخاص ، ولهذا جاب الميدان كله قبل أن تختار عيناه « جرسون » قهوة أنوارها قليلة وتقع فى طرف الميدان . وبعد مساء الخير والذى منه سأله عن اسماعين أبو دومة ، وهز الرجل رأسه وكأنه ينفى عن نفسه تهمة . وسأل ثانيا وثالثا ورابعا ولا أحد عمره سمع عن اسم كهذا . وكانت الناس وهو يسألها تنظر إليه باستغراب ، لهذا كان من الواجب إنهاء كل شىء ومغادرة الحى قبل فوات الأوان .

وكاد حمزة ييأس لولا أنه رأى رجلا جالسا على أحد القهاوى وأحس من منظره أنه ممكن جدا أن يكون حانوتيا .. وذهب إليه مباشرة وسأله ، وأنزل الرجل ساقه التى كانت موضوعة فوق الأخرى ونفى وتأسف ، ولكن يبدو

أن أحد الجالسين بجواره كان قد استمع للسؤال ، إذ بعدما استدار حمزة نادى عليه وقال :

ــ حضرتك عايز اسماعين أبو دومة مين ؟ مش بتاع الجبانة ؟

ــ أيوه تمام .

ــ آه .. دا بيقعد عند بتاع عصير القصب قريب هنهه .. تمشى من هنا كده على طول لغاية عامود النور اللى هناك ده .. الدكان على إيدك اليمين على طول .

ومشى حمزة حسب الوصف وانتعاشة أمل تشجعه ، ولم يكن فى كلام الرجل أية مبالغة فقد وجده حمزة هناك جالسا على دكة خارج الدكان بنفس جلبابه الصوف البنى وعمامته وشاربه المشوش الذى يلتوى عند طرفيه فيبدو كقرنى ثور .

ــ السلام عليكم .

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

قالها الرجل وهو يمد فمه إلى « غابة جوزة » كان آخر يمسكها .

وانتظر حمزة حتى شد أبو دومة ما طاب له الشد فى نفس واحد وسأله وهو يغالب ابتسامة كان يريد إيقاف تنفيذها :

ــ ما تعرفشى والله سيد اللى بيشتغل فى الجبانة فين ؟

وكان أبو دومة فى هذه الأثناء يخرج دخان النفس .. أخرج ملء مدخنة من فمه ثم انتظر قليلا وأخرج من أنفه ماسورتين رفيعتين كثيفتين لون دخانهما كلون البخار ، حتى خيل لحمزة أنه سيصفر بعد هذا ويتحرك .

وقال أبو دومة فى أدب ولا تزال سحابة الدخان قائمة ، ولا تزال بقايا الدخان تخرج مع الكلمات :

ــ سيد مين ؟ ما هو لا مؤاخذة ف دى الكلمة فيه سيدين .. سيد شطا

وسيد محمد إبراهيم .. الله ! حمدالله على السلامة يا بيه .. يا ألف مرحب .. أصل لا مؤاخذة ما تأخذنيش .. الدنيا ليل والعتب ع النظر . يا ألف مرحب ! ده نور إيه ده ؟ حمدالله على السلامة .

وكان قد قام واقفا وسلم على حمزة وشد على يده .. وأكمل ولا تزال يده فى يد حمزة :

ـ والله يا بيه إن جنابك ابن حلال .. أنا كنت لسه فى سيرتك من شوية .. ألف حمدالله على السلامة .

وكان حمزة ينظر إلى الرجل وترحيبه ووجهه الجاف الأسمر الخشن الذى جمده البرد ، وذقنه النابتة وشاربه .. وعينه الحولاء التى يخيل للإنسان أنها ليست فى محجرها كالعين الأخرى وإنما موضوعة بطريقة ما فوق طرف شاربه وكأنها الكرة الأرضية التى تدور ويحملها قرن الثور .. كان حمزة ينظر وهو يراقب فم الرجل الواسع يتفتح عن الكلمات المصرية الحلوة التى صنعتها إنسانية شعب عريق .. الكلمات التى قد لا تصفى على الربع ولكنها رائعة فى نفسها وكأنها رسل محملة بالدفء والسلام . كان قد أمضى ساعات طويلة وهو غريب بين مصريين ، مبعثر مشتت فى الأزقة والحوارى ، فكأن للكلمة الواحدة التى فيها نبض من ترحيب أو احتفال فعل السحر ، فما باله وهو يرى فى وجه الرجل فرحة حقيقية بلقائه وترحيبا به أيما ترحيب ؟

وقال حمزة وهو منفعل :

ـ الله يسلمك يا عم اسماعين .. والله إنك وحشتنى قوى .. إنت وسيد .. هو فين أمال ؟

فرد أبو دومة ولا تزال يده فى يد حمزة :

ـ إنت مادريتشى حصل إيه .

وسقط قلب حمزة فجأة وسأله بلهفة :

ــ لأ .. حصل إيه ؟

ورد أبو دومة فى تأثر :

ــ مش الواد يسيبنا هنا كده وحنا كنا ع الخير والشر سوا ويروح يشتغل فى الوابور . الله يخزى شيطانه البعيد . طب تصدق بإيه ؟ والله إن سيد محمد إبراهيم ده جانى زى ما جيتنى جنابك كده من كام شهر .. سلام عليكم يا عم سماعين .. قلت له سلام ورحمة الله وبركاته .. قاللى عايز آكل عيش .. قلت له والنبى إن ما أكلتك بإذن الله فطير ما أبقى سماعين أبو دومه .

ــ والوابور دا فين يا عم اسماعين ؟

ــ أنت من غير مؤاخذة رحتش سجن مصر .

ــ ليه يا عم اسماعين ؟

ــ أهو بيشتغل فى الوابور اللى وراه على طول .. يعنى من غير مؤاخذة تخش السجن كده يبقى هو على يمينك على طول .

ــ وقاعد فين امال ؟

ــ حد عارف له حته .. أهو مطرح ما بييجى عليه الليل بينام .. باينه بيبات فى الوابور .. باينه بيروح عند قرايبه محدش عارف .. حمد الله على السلامة يا سعادة البيه .. أنا وسيد واحد .. كلنا أخوات .. أنا والله سيد ده كنت أعزه زى الأسطى حوده تمام .

ــ الأسطى حوده مين ؟

ــ إبنى لا مؤاخذه .. أنا وسيد مفيش فرق .. هو كويس كويس إنما لا مؤاخذه أصل شغلنا ده عايز صبر وطولة بال . ليه ؟ يوم فيــه وعشرة مافيش .. واللى بيروح أكتر من اللى بييجى . وسيد مالوش خلق .. نفسه ضيق .. ما يقدرشى يستحمل ، ما يستحملهاش إلا اللى زينا كده واخدين ع الشقى .. ألف حمدالله على السلامة .. أنا وسيد واحد .. كلنا اخوات .

وكان حمزة فى ذلك الوقت يختنق فى واد ضيق فقد انهارت فجأة آمال رحلة طويلة عريضة .. والعمل ؟

ووقف يقضم أسنانه وأظافره ويدارى حنقه عن أبو دومه ويتركه يتكلم .

ــ تعرف بعد مامشيت سعادتك جانى حتة داكتور زى السكرة تمام .. قاللى ياعم سماعين أنا جاى ع السمعة .. إنت جنابك زعلان ليه كده كفى الله الشر ؟ خير .. هو لا مؤاخذة حصل حاجة ؟

ــ لا .. أبدا يا عم سماعين .

ــ ولا يهمك .. والله من يوم مامشيت من هنا وأنا مشغول عليك وعلى الأسمنت .

ــ إيه ؟

ــ إزى الأسمنت ؟

ودارت رأس حمزة دورات كثيرة قبل أن تستقر على ما يقوله أبو دومه .

ــ كيف عرف ؟

ــ هل أخبره سيد ؟ وكيف يمكن أن يسكت أبو دومه عن شىء كهذا وهو لا يحتمل السكوت !

ــ أسمنت إيه يا عم اسماعين ؟

ــ إبيه ..

قالها أبو دومه وهو يلوى رقبته ويضم ذقنه إلى صدره كمن يقول : إطلع من دول .

وخاف حمزة أن يستطرد الرجل فى الكلام أمام صاحب المحل والرجل الآخر الذى كان ممسكا بالجوزة . فاستأذن منهما وأخذ أبو دومه على ناحية وأعاد سؤاله ، فإذا به يعرف من المرة الماضية أنه كان حاضرا الأخذ الديناميت وأنه ليس بطالب طب ولا دكتور .

واستغرب وذهل ، الرجل يعرف كل شيء ومع هذا تظاهر بالعبط كل هذا التظاهر وسأله :

ــ وانت عارف كنا بنعمل بيه إيه ده يا عم اسماعين ؟

ــ إلا عارف .. هو أنا عيل يا سعادة البيه ؟ بتعملوا بيه إيه ؟ مش من غير مؤاخذة كده بالمفتشر بتموتوا بيه الانجليز . أنا ياما شفت وياما رأيت يا سعادة البيه .. إنت جنابك فاكرنى شوية .. هو تفتكر إن فيه حاجة تبقى فى جبانة باب الوزير وما اعرفهاش ؟ دانا ما بقاش سماعين أبو دومه .. دانا عارف كل طوبة هنا .. وكل شقفة هنا خابزها وعاجنها .. إنما صوابعك مش زى بعضها .. فيه ناس تبقى مش عارفه حاجة وتتكلم وفيه ناس تبقى عارفه كل حاجة وتسكت . طب تصدق بالله ؟ قول لا إله إلا الله .. قول .. تصدق بالله ؟ أنا سنة سعد باشا جم الانجليز يفتشوا الترب فرحت قايل لاتنين منهم : جرج « جورج » جرج .. وانت زجزج جرج ، برى كود .. وانت برى كود .. زجزج كويس كتير .. وشاورتلهم راحوا ماشيين ورايا .. ورحت واخدهملك عند السبيل وقلت يا سيد يا رفاعى مدد .. حاكم دول تعابين فلازم الواحد يستعين عليهم بسيدنا الرفاعى . وكان فى إيدى زقلة رحت عاينها وطاخ طيخ طاخ طيخ وينزلوا الاتنين ساكتين ، ورحتلك خافى رمتهم ولا حد شاف ولا حد درى .. وياما وياما بس الواحد أصله ما بيرضاش يكلم .

وهنا كان حمزة قد قرر أمرا فقال :

ــ اسمع ياعم سماعين ..

ــ أيوه يا سعادة البيه .. أنا وسيد واحد وزمتى ودينى .

ــ مش عارف حته أقعد فيها يوم والا اتنين ؟

ــ عايز بقى من غير مؤاخذة شقة والا أوضة ؟

— أنا مش عايز أوض وشقق ، فاهمنى إزاى ؟

— فاهمك إزاى إيه ؟ أنا فاهم قوى يا سعادة البيه .

— أولا بلاش سعادة البيه .. دى أنا اسمى .. اسمى حمزة .

— أهلا وسهلا .. ألف مرحبة يا سى حمزة افندى .. باب الوزير نور والله .

— إنت مش فاهم ياعم اسماعين .. أنا مش عايز أوضة والا شقة .. أنا عايز حتة بعيد عن الناس .

— تبقى من غير مؤاخذة بقى تروح الدراسة .. هناك حاجات زى طلبك كده كتير .

— أصل يا عم اسماعين المسألة إن دلوقت الحكومة بتمسك الناس اللى كانوا بيضربوا الانجليز .. ودلوقت بتدور على .. فأنا عايز استخبى فى مكان مايشوفنيش حد فيه .. تعرفشى حاجة زى كده ؟

— إلا آعرفشى حاجة ؟ وده اسمه كلام يا سى الأفندى ؟ بقى عمك سماعين أبو دومه ما يعرفشى يخبيك .. يا سلام .. أى خدمة يا سعادة البيه .. أى خدمة .. بس كده ؟

— تعرف صحيح ياعم سماعين ؟

— إلا أعرف ؟ دانا أخبيك وأخبيك .. دانا أوديك فى حتة مايعرفهاش الجن الأحمر .

وكان حمزة يسمع كلام الرجل ولا يفكر فيه ، فعقله كان قد عاد يستأنف البحث فى ذاكرته عن مكان إذ كان واضحا أن كلام أبو دومه تهويش ونتش ليس إلا .. ولذلك سأله وهو يبتسم فى مرارة عسى أن يرفه عن نفسه بالسماع :

— فين ياعم سماعين ؟

وسكت أبو دومه ، وازدادت ابتسامة حمزة وهو يرى الرجل قد وقع فى المأزق ووضع أصبعه على صدغه وراح يفكر . وأخيرا رفع رأسه وتهلل وجهه وقال :

ـــ أعرف لوكاندة .

فرد حمزة مباشرة :

ـــ لوكاندة إيه يا عم اسماعين ؟ مقدرشى أروح أى لوكاندة .. كلهم مراقبين .

ودعا أبو دومه إلى وضعه التفكيرى ، وفكر حمزة أن يسلم عليه ويمضى ولكنه لمحه يهز رأسه باستنكار ، وتهتز طاقيته الصوف التى تعمم عليها وهو يقول :

ـــ بس حترضى تروح هناك يا سعادة البيه ؟ مش معقول .

ـــ معقول قوى .. أرضى قوى .. فى أى حتة .. فين ؟

ـــ هناك فى الملك ده .

ـــ هناك فين ؟

ـــ فى أى حوش من الأحواش بنوع الجبانة .

وضرب حمزة الفكرة فى عقله وخرج بنتيجة مدهشة فقال :

ـــ قوى .. قوى .. أرضى قوى .. أنا عايز أى حتة ، فاهمنى ازاى ؟

ـــ فاهمك ازاى !

ـــ لا مؤاخذة يا عم اسماعين أنا بقولها كده بس ـــ صحيح ممكن أقعد هناك .. دانا أروح قوى .

ـــ تحب بقى جنابك حوش مطرحين وصالة والا حوش مطرح واحد ؟ أؤمر .. أى خدمة ؟

ـــ انت بتتكلم جد ياعم سماعين .

وظهرت غضبة لينة على وجه الرجل وقال :

ـــ إنت مش واسك « واثق » فى ياسى حمزة أفندى ؟ عيب ولا مؤاخذه يبقى شنبى على مره .. دانا مره واحد قاللى انت كذاب فحطيت صباعى فى عينه وخدته الإسعاف يومها وبقت حكاية .. هو أنا عيل لا مؤاخذه ؟ أما أبو دومه يقول كلمة تبقى هى الكلمة .. طب والله نظير كلامك ده لمقعدك فى مدفن داود باشا نفسه .. اتفضل .. ما تتفضل يا سعادة البيه .. اتفضل نوصل للبيت بس .. أصل المدفن مقفول بقفل .. قافلينه اصحابه .. ح انادى الأسطى حودة ابنى يعمل له سلكه ويفتحه .. اتفضل .

وانطلق أبو دومه فى حماس بالغ ، ومضى حمزة وراءه وهو يكاد يضحك إذ من المجنون الذى يصدق أبو دومه ؟ ولكن الرجل واصل سيره حتى بلغا الميدان فهز حمزة كتفيه كمن يقول لنفسه : خليك مع الكذاب . واتفق مع الرجل على أن ينتظره عند نفس المكان من الجبانة الذى وجده فيه فى المرة الأولى ، وذهب حمزة إلى فوزية الواقفة وقبل أن يصل إليها سألته بلهفة :

ـــ هيه ؟

ـــ بس يا ستى .. حنام مع سعادة داود باشا فى أوضة واحدة .

ـــ بلاش هزار يا حمزة .. لقيت حاجة ؟

و لم تصدق فوزية هى الأخرى ، ومع ذلك مضت معه ، وراحا يصعدان الطريق المؤدية إلى المقابر . وعند نفس الجدار وجدا هناك أبو دومه واقفا وقال له حمزة .

ـــ دى مراتى يا عم اسماعيل .

ولما وجد حمزة المسألة فيها اثنين إنجليز قتلوا وواحد فقد عينه أضاف :

ـــ دى مراتى .. عندنا أربع عيال .. معذبينا قوى يا عم اسماعيل .

ـــ ربنا يزيد ياسى حمزة أفندى .. أنا الآخر الأسطى حوده ابنى شفته على

كبر إنما واد يعجبك .. دلوقتى حتشوفه .

وبعد خطوات قليلة كانوا أمام عش مصنوع من خليط من الحجارة البيضاء والصفيح وبراميل الزفت المفرودة . وكان القمر قد بدأ يصعد إلى السماء والنور يأخذ طريقه إلى الأرض . وبدت الأحواش والمدافن كالبيوت الصغيرة المكدسة ، ولم يكن من فرق بينها وبين بيت أبو دومه إلا أنه أحقرها جميعا وأفقرها بناء .. حتى ليظن الإنسان أنه قبر أقيم لتخليد ذكرى الفقير المجهول .

وكان يرقد أمام العشة البيت كلب قد وقف شعره من البرد يشبه الكلب الذى رقد مع أهل الكهف فى غارهم مئات السنين .. بلا طعام أو شراب ، يشبهه فى أنه هو الآخر يبدو وكأنه هو وأجداده أجمعون قد جاءوا الدنيا صائمين وغادروها صائمين .

وخبط أبو دومه على الباب المصنوع من الصاج وقال :

ـــ يا أسطى حوده .

وخبط مرة أخرى .. وفتح الباب وخرج صبى صغير لا يتعدى العاشرة يرتدى جاكتة عسكرية صفراء تصل إلى ما تحت ركبته .. وقال له أبو دومه :

ـــ هات ياسطى حوده حتة سلك عشان تيجى تفتح بيه القفل .

وخرجت وراء الصبى امرأة .. طويلة ترتدى ثوبا أسود وطرحه سوداء ، وحين سقط القمر عليها أضاء وجهها فبدا أبيض حلوا .. وقالت :

ـــ خير يا ابو محمود .. فيه إيه ؟

فأجاب أبو دومه بنفس صوته المرتفع :

ـــ ما فيش .. أصل حمزة مضاضى الإنجليز .. وبينه وبين الحكومـة شوية ..

فهمس له حمزة :

ـــ ياعم اسماعيل .

ـــ أصل لا مؤاخذة يا سى حمزة .. مفيش بينى وبين أم محمود سر ، احنا ع الخير والشر سوا .

وسألت المرأة حمزة بصوت جميل وكأنما صنع من « ملبن » أنثوى خالص :

ـــ هو الأفندي من الفدائيين ؟

وعجب حمزة وهى تنطق « الفدائيين » نطقا سليما ليس به أى اعوجاج فسألها :

ـــ إنتى تعرفيهم يا ست أم محمود ؟

فأجاب أبو دومه :

ـــ إلا تعرفهم .. هى كانت تعرف حاجة الا هم ؟ دى متعلمة بتقرا الجرائين وتكتب ، واسمع أنا وهى الراديو تفهم هى كل حاجة زى البربند وأنا ولا كأنى سمعت .. دى فى السياسة إكس .. طب بنت ملك الانجليز اسمها إيه يا أم محمود ؟

وضحك حمزة وفوزية ، وضحكت كذلك أم محمود .. ورد الأسطى حودة الصغير بسرعة :

ـــ اسمها « الدع بت » يابا .

فقالت أمه :

ـــ يا واد مش اسمها كده .. قلتلك .. اسمها إليزابيث .

وتولى حمزة شرح موضوعه لأم محمود .

وبعد قليل كان الركب يتحرك وحمزة وفوزية وكأنهما فى حلم . كان الأسطى حودة على رأس القافلة وفوزية مع أم محمود التى كانت تحمل فوق رأسها لمبة أم ساروخ وفى يدها إبريق كبير وقد انخرطتا بسرعة فى الحديث

وكأنهما تعارفتا منذ عام ، وكان حمزة وأبو دومه يمشيان صامتين غير أن الأخير سرعان ما قال وهو يلكز حمزة :

— شوف ياسى حمزة النسوان .. أعوذ بالله .. ما يصدقوا إلا وهات ياكلام .

فقال له حمزة : إلا يا عم اسماعين اتجوزت ازاى ؟

— اتجوزت ازاى إيه ؟ زى الناس قسمة ونصيب .. رحت لا بوها الله يرحمه بقى ويحسن إليه ..

— وبتحبها يا عم اسماعين ؟

— أحبها يعنى إيه ؟

— مش عارف تحبها يعنى إيه ؟

— آه .. قصدك ع الحب ده اللى بيسرسع فى الراديوات .. لا .. لا معندناش كلام فارغ من ده يا سى حمزة .. دى مراتى .. أهلا وسهلا .. ألف ألف مرحب .

دا انت نورتنا والله .. طب تسدق بإيه ؟ أنا حلمت امبارح حلم اللهم اجعله خير ..

ثم رفع صوته وقال موجها الحديث لامرأته :

— مش قلتلك الصبح ع الحلم اللى حلمته ليلة امبارح يا ام محمود ؟

ولم ينتظر إجابتها ومضى يقول : حلمت خير والصلى ع النبى إن الهاتف جانى فى المنام وقالى : هوه : قلت هوه : قاللى الفرج جايلك شايل شنطة .. صبحت الصبح أخبط كف على كف وأنا عقلى ح يشت .. يا ربى فرج إيه اللى شايل شنطة ؟ قوم شوف .. ادحنا .. أهلا وسهلا .

وكان حمزة يستمع ويحاول تقدير ما سوف يدفعه ويليق بمقام « الفرج اللى شايل شنطة » مع أنه كان على شبه يقين إن كلام أبو دومه كله فارغ ولا يدخل

عقله . وكان أبو دومه يتكلم بلا توقف وأحيانا يصغى إليه حمزة .. ومعظم الأحيان يتأمل ما حوله .. قبور ، وقبور ، وأحواش عليها زهمة ولا صوت ولا هواء ولا حياة ، ونور القمر مجرد كفن أبيض كبير يغطى المبانى ويفرش الأرض ، وأم محمود على رأسها « اللمبة أم ساروخ » ترتد نارها ودخانها إلى الوراء ويتصاعد من شريطها الشرر ، ويبدو نورها الشيء الوحيد الذى أفلت من لون الكفن وثار فى وجه القمر ، وأصوات وقع الأقدام على الرمال التى تكاثفت حبيباتها تحتمى من البرد والليل والموتى ، هذه الأصوات تأتى مكتومة ، وأحيانا سمع حمزة معها صوت أبو دومة الذى بدأ يلهث :

ــ اتنين فى رقبتى .. الأسطى حوده .. وبسلامته أبو دوم .. على اسم جده .. الله يرحمه ويحسن إليه .. الفاتحة له .. حوده عال .. قلت يا واد وديه فى ورشة مكانيك أقله يطلع أحسن منك .. حاكم ماتلقاش ياسى حمزة أفندى حد يرضى تطلع أحسن منه إلا أبوك .. المرحوم أبويا كان يقوللى كده .. عليه رحمة الله .. الفاتحة له وأمواتنا وأموات المسلمين .. بسم الله الرحمن الرحيم .. كان لازم نقرا الفاتحة قبل مانخش على أسيادنا الموتى ونستأذنهم .. معلش يا سيادى الفاتحالكو .. بسم الله .. آمين .. الإنجليز .. ولاد كلب عايزين الحرق .. أنا مرة وأنا ف شبابى ..

ويبدو أن انخراط فوزية فى الحديث مع أم محمود جعلها تنسى المكان الذى تمضى فيه والزمان ، إذ سرعان ما توقفت حتى وصلها حمزة وأدخلت يدها بسرعة حول ذراعه وكانت ترتجف وتقول:

ــ أنا خايفة موت يا حمزة ..

ــ من إيه ؟ ماتبقيش صغيرة أمال .

فقالت وهى تلتصق به أكثر ووجهها شاحب :

ــ أنا بترجف يا حمزة .

وسألها حتى تتكلم وتنسى :

— انت كنتى عمالة بتكلمى معاها فى إيه ؟

فقالت وأسنانها تصطك :

دددى .. ووووليه ك ك ك ويسه .. جـ ج ج ج جدا ددددا ... ت ت ت تصور ب ب ب ت ت ت ح ب .. جوجو جوزها أ أ أ وى .. بتقول أ أ إنه ع ع عندها أ ح ح ح س س س ن من أ أ أ نور وجج ج دى ..

وخلع حمزة « جاكتته » وألبسها إياها بالقوة فصنعت بها ما صنعته جاكتة العسكرى بجودة ، وكانت كل رجفة منها تعتصر نفسه اعتصارا . لقد كان يتساءل عن التجربة التى تذيب الإنسان فى الإنسان وما تخيل أبدا أنها ممكن أن تكون على هذه الصورة ، وهو يرتجف من البرد وهى ترتجف من البرد والخوف تائهين فى العالم الآخر ، وحوده وأبواه يقودانهم من ممر .. ممرات جرباء متشابهة وصور لآلاف الأشباح تترامى ، وجلد فوزية وكذلك جلده قد تحبب وأصبح كجلد الطائر بعد نتف ريشه ، والمشوار لا يبدو له آخر ، وليلة طويلة لا يعلم أحد كيف تنتهى .

وفجأة قفز حمزة مذعورا مخلوع القلب ، فقد صرخت فوزية بجوار أذنه تماما صرخة مشحونة بالرجفة والذعر المروع .. وظلت تصرخ بلا انقطاع وتقول :

— رجليا رجليا رجليا رجليا .

وانحنى حمزة وقلبه لا يزال مخلوعا يرى ما فى رجليها .. ثم ضحك ضحكة هستيرية طويلة وهو يمد يده ويجذب عرف الكافور الجاف من بين قدميها ، ولم تصدق فوزية ولم تكف عن الاستغاثة حتى حين أراها العرف . وما أن تبينته أخيرا حتى انهارت مغمى عليها ، وتلقفها حمزة قبل أن تسقط وأبو دومه يقول : يا حول الله .. يا حول الله .. داحنا كنا وصلنا .

وحملها حمزة على كتفه ، وخيل إليه من فرط ما كان يحس به ناحيتها أنه يستطيع حملها الليلة بطولها ، ولكن بعد خطوات قليلة بدأ ينوء ويلهث ، ويسأل أبو دومه .

ولم تكن هناك حاجة للسؤال .. كانوا قد وصلوا وكانت فوزية قد عادت إلى وعيها . ولدهشة حمزة لم يعرف أنها أفاقت إلا حين أحس بشفتيها تلثمان جانب رقبته ، وقد ينسى حمزة أشياء كثيرة ولكنه لن ينسى أبدا ملمس شفتيها الباردتين الذى أحسته رقبته فى تلك الليلة من ليالى الشتاء . وخطر له خاطر .. لم يكن عبثا ما قاله لها الليلة إن حبهما فى نمو دائم ، وأشياء قليلة جدا تلك التى يكون الإنسان مستعدا أن يفقد حياته من أجلها مثل .. مبدئه .. وشرفه .. وبلده .. وفى تلك اللحظة أحس حمزة بعمق وبيقين أن فوزية أخذت مكانها جنبا إلى جنب مع مبدئه وشرفه وبلده .

وكان لا يزال يحملها ويلهث ويجاهد ليبقى حاملها ولا يفكر فى إنزالها ، وفوزية وقد أفاقت تماما لم تفكر هى الآخرى فى التنازل عن مرقدها ، ولم تهبط إلا حين شعرت بحمزة قد أصبح لا يكاد يستطيع الوقوف قائلا وهو يلهث :

ـــ أنا دلوقتى بقيت زى طرزان تمام .

وفى ذلك الوقت كانوا واقفين أمام بناء كالفيلا المكونة من دور واحد ، وكان حوده عاكفا على الباب ، والقفل وأمه تمسك له بالمصباح ، وأبو دومه واقف فى مكان تستطيع عينه المتحركة أن ترى فيه تقدم ابنه وترى فيه حمزة وفوزية دون أن يتعب نفسه ويستدير ، وأيقن حمزة بعد ما هدأت أنفاسه ورأى حودة وما يصنعه .. أيقن أن أبو دومه فعلا كان يعنى ما يقول .. وتعجب كثيرا وكان ذلك مستحيلا .

ومال على أذن فوزية يهمس لها بهذا وبغيره ، وأفاق من همساته على خبطة

أطارت عصافير السكون .. وأرجفت فوزية وأرعشتها .. وفتحت الباب .. . ورفعت صوت حودة قائلا :

ـــ اتفضلوا .

وابتسم أبو دومه ابتسامة أوسع من فمه وقال وعينه وأسنانه تتلألأ فى ضوء القمر :

ـــ صدقتنى بقى يا سى حمزة ؟ الأسطى حودة دا ولد ..

وكانت الرحلة كلها كوم والدخول إلى ذلك المكان كوم آخر .. رفضت فوزية أن تطأه واستماتت على حمزة لا تريده أن تتحرك وقالت :

ـــ يلعن أبو أى حاجة فى الدنيا . تعال بات عندنا وخلاص ، انشالله حتى يتقبض عليك .. مش معقول نبات هنا .. دانا اجننت .. أنا مالى .. هه .. هه .

وكانت عائلة أبو دومه قد دخلت وفوزية لم تكف عن اضطرابها ، وولد قربها فى نفس حمزة مشروع قبلة .. وقبلها مرة ومرات وبادلته فوزية قبلاته . وكان حمزة كلما دار ببصره فى مستعمرة الموت تلك احتضنها أكثر وأطال من قبلاته حتى خيل إليه أن فمها قد تضخم وتلمظ وأصبح كثدى نافر .

وسمع صفيرا مزعجا ، وانتفضت فوزية فى حضنه ، والتفت فوجد الأسطى حودة هو الذى يصفر وأمه تخبطه على كتفه وأبوه ينهره ، والأم والأب قد أعطياهما ظهرهما ..

ـــ لا مؤاخذة يا عم اسماعيل .

واستدار الرجل إليه ؛ وكاد حمزة يسقط على ظهره من الضحك ـــ وهو يرى فى ضوء القمر واللمبة أم ساروخ ـــ وجه أبو دومه الخشن الجاف ذا اللحية والشارب والفم الواسع يراه وفيه ابتسامة ضيقة خجلة ، وملامح تجرب ـــ ربما للمرة الأولى ـــ خجلا يكاد يقترب من خجل الأنثى .

ودخلت فوزية معه وقد نسيت فى خضم ما حدث إصرارها .

كان الباب الخارجى يؤدى إلى فناء صغير تحتله حديقة مهملة فيها شجرتا كافور طويلتان ترعب وشوشة أوراقهما . وهناك باب داخلى آخر كان حودة بلا ريب قد عالجه وفتحه ، ويؤدى الباب إلى صالة يتدلى من سقفها شمعدان فيه ما يزيد على العشر شمعات قد احترق منها جزء صغير وكانوا قد أوقدوها جميعا ، والصالة مؤثثة بكنب « أرابيسك » يدور مع الجدران ، وكذلك عدد من الكراسى من نفس النوع ، والحجرة التى على اليسار فيها أثاث مماثل ، وكذلك مائدة طعام كبيرة وحولها كراسيها ، والتى على اليمين فيها سريران ومراتبهما وملاياتهما ولوازمهما مكومة فى ركن ومغطاة بغطاء ، وفى كل من الحجرتين شمعدان كبير أضىء . ويقابل باب الصالة الخارجى باب داخلى قال أبو دومه وهو يفتحه :

ــ أهو ده قبر المرحوم داود باشا نفسه .. الله يرحمه .. الفاتحاله .

وبدا من خلال الباب المفتوح قبر مغطى بقماش من حرير أخضر لماع وحوله شبكة من النحاس الأصفر ، وكانت الأضواء تتسرب إليه فيبرق النحاس ، ويبدو القبر كله وكأنه أحد صناديق القراصنة الضخمة التى كانوا يملئونها بما اختطفوه من كنوز .

وكان الجو كله مشبعا بتلك الرائحة التى تتوالد فى المكان إذا طال عليه الإهمال والإغلاق .

وقال أبو دومه وهو يحول بعينيه ويبتسم ويتفكر :

ــ هيه يا سى حمزة .. كويس ده ؟ والا أوديك مدفن ألفت هانم أحسن ؟ اللى يعجبك .. زى ما انت عايز .. أى خدمة .. والنبى أنك طردت عنا وحشة .

وأجاب حمزة :

ــ دا كويس قوى يا عم اسماعين . أنا الحقيقة مش عارف أشكرك إزاى .. بس المهم دلوقتى عايزين نرجع فوزية عشان تروح .

ــ ليه ؟ ماتخليها تبات معاك .. أقلها تونسك .

ــ لأ .. معلشى يا عم اسماعيل . أصل الولاد لوحدهم ، فاهمنى ازاى ؟

ــ فاهمك ازاى ... أخ .. لا مؤاخذة ما تآخذنيش نسيت .. أيوه الولاد صحيح .. دا زمان بسلامته أبو دومه بيسرخ .. يارتنا كنا جبناه ويانا .

واقترح حمزة ثانية أن يوصلوا فوزية .. ولكن أبو دومه استمهله ، وخلع جلبابه وقال وقد أصبح بالفانلة والصديرى واللباس ذى الأرجل الطويلة والدكة ذات الثلاث شعب :

ــ بس لا مؤاخذة .. خمسة بس نوضبلك النومة .. إيدك يا أم محمود .. شيل معايا يا حودة .. أصل التراب مالى الحتة .

وحقيقة كانت أكوام من الغبار تغطى كل شيء ، خاصة ذلك الكوم الذى فيه معدات الفراش .

وحاول حمزة أن يمد يده ولكن غضبة أبو دومه جعلته يتوقف عن محاولته .

وخرج حمزة وفوزية بناء على إصرار أبو دومه وزوجته حتى لا يصيبهما العفار .. وقفا متلاصقين وحولهما أعشاب متوحشة ، وبجوارهما جذع الكافور الغليظ ووشوشة أوراقه .. والقمر يطل عليهما باستغراب ويتابع ما يدور فى الجبانة كطفل محب للاستطلاع ، ويبتسم ابتسامته الساذجة الخالدة .. وقالت فوزية :

ــ أما راجل عجيب أبو دومة !

ــ تعرفى أنا لغاية دلوقتى مش مصدق .

ــ وحتديله كام ؟

ــ على الأقل جنيه .. شوية والله .

ـــ يا أخي ماتيجي معايا وبلاش العندده ..

ـــ دا مش عند يا عزيزتي .. دا عقل . فاهماني ازاي ؟

ـــ وحتبات هنا لوحدك ؟

ـــ حاخاف من إيه ؟

قالها حمزة وهو خائف فعلا لمجرد التفكير في مصيره حين يذهب عنه الجميع ، ويبقى وحده .

ـــ وبتقللي مانتاش بطل .. حد يقدر يعمل كده ؟

ـــ انتي عارفه المثل اللي بيقول بطل رغم أنفه .. أهو أنا بالضبط .

ونظرت فوزية إلى السماء والقمر .. وما حولها من معالم صماء بكماء وقد أفرخ بعض روعها وقالت :

ـــ دي ليلة تاريخية يا حمزة .. حنبقى نفتكرها سوا .

ـــ معلش يا فوزية .. كل حاجة بتبقى صعبة لما الواحد بيكون فيها ، وبعدين لما بتفوت وتصبح ذكريات بتبقى جميلة .

ـــ تعرف إنك ساعات بتقول حكم .

ـــ وانتي ساعات بتمدحيني من غير داعي .

وسكتت فوزية وكأن سكوتها إجابة ، ثم قالت :

ـــ أنا يا حمزة باستغرب جدا على أبو دومه ده ومراته .. تصور واحدة حلوة بتقرا وتكتب زي دي تجوز ليه واحد زيه .

ـــ وليه ماتجوزوش ؟

ـــ لأن كان ممكن تجوز أحسن منه .

ـــ أحس ازاي يعني ؟

ـــ أصغر منه بكتير ومركزه أحسن .

ـــ شفتي بقى إن ساعات حكم الناس البساط بيبقى أحسن من حكمنا .

شفتى بقى إنها مابصتش لحاجات من دى . لازم فيه حاجة عجبتها فيه .. لازم . الست دى باين عليها معدنها سليم جدا .. دى لازم فى يوم من الأيام يبقى لها دور .

فضحكت فوزية وسألته :

ــ إزاى بقى ؟

فأجاب حمزة :

ــ انتى بتسألينى أنا ؟ البركة فيكى .

وجاءهما من الداخل صوت أبو دومه يدعوهما إلى الدخول .

وتأمل حمزة الفراش الفاخر والنظافة التى أصبحت عليها الحجرة ، ونظر إلى الرجل يشكره فوجد وكأن كل ما كان فى الحجرة وفوق كومة الفرش من غبار وتراب قد انتقل إلى وجهه ورأسه وملابسه ، ولم يترك حتى رموش عينيه ولا نهايات شاربه المشوشة فعلق بها وأضفى عليها رماديته ، وكذلك كانت أم محمود والأسطى حوده الصغير حتى بدت سحناتهم فى ضوء الشموع تستثير الضحك .

وقال أبو دومه وهو يمسح التراب الذى دخل حلقه وسود لسانه معلقا على فخامة المكان :

ــ أصل كان الله يرحمه نظاجة قوى .. هو اللى بانى الملك دا كله قبل ما ينتهى أجله .. عليه رحمةالله . هه ، كويس كده ياسى حمزة ؟ عجبتك الحتة ؟ أهو عندك أبريق الميه وبكره الصبح إن عشنا إن شاء الله أم محمود تجيبلك دور كمان .. وأهو الأسطى حوده بعد ما يخلص الشغل يبقى تحت إيدك .. إحنا لينا بركة الا انت .. دانا والله الدنيا ماهى سايعانى .

وقال حمزة فى نفسه إن الوقت قد حان فانتحى به ركنا من الحجرة وأخرج من جيبه الجنيه وقد طبقه فى يده حتى لا يراه أحد وقال :

ـــ احنا متشكرين جدا ياعم أبو دومه .

قالها وهو يمد يده ليسلم عليه ، ومد الرجل يده وما أن أحس بملمس الورقة حتى نفض ذراعه كله بسرعة وارتسم على وجهه غضب وقال وقد رغرغت عيناه بالدموع :

ـــ الله ! إيه ده ياسى حمزة ؟ انت بتشتمنى ؟ هو أنا راجل واطى ؟ أنا فقير ، فقير إنما برضه عندى مروءة .. والا اكمنى يعنى فقير ؟ دا انت ضيفى ياسى حمزة .. وانت راجل متعلم وتفهم .. دا الحمد لله يا أخـــى ربك ساترها . لا لا لا ياسى حمزة انت والله كأنك قلعت الجزمة وضربتنى .. دا انت كأنك تفيت فى وشى .. روح يا شيخ الله يسامحك .

١٥

وعادت القافلة كما جاءت لتوصل فوزية ، وظل حمزة وقتا طويلا صامتا يفكر فى ذهول مقرون بفرحة وثمة عواطف كثيرة تجتاحه . كان يفكر فى ما كان من أبو دومه ويخجل من نفسه ومما أطلقه على الرجل من أحكام ، ويفعل هذا برهبة وكأنما تفتحت عيناه على مخبأ حقائق مجهولة . وفى النهاية قال لفوزية :

ـــ شفتى بقى يا ستى اتجوزته ليه ؟ راجل عجيب .. كل يوم بيمر على الواحد فى المعركة بيتعلم منه حاجات كتير . أنا كنت طول عمرى باتكلم عن الشعب وبيخيل لى دلوقتى إنى ماكنتش مدرك بعمق إيه طبيعة الكلمة دى .. فهمانى ازاى ؟ أبدا دى مش كلمة بتطلق جزافا .. دى حقيقة حية ، إحنا عايشين فيها .. يعنى أبو دومه ده تفتكرى الواحد كان ممكن ح يلمس حاجة زى اللى حصلت الليلة إلا من خلال المعركة .. كان عمره حتتفتح له الكنوز

الموجودة وعايشة فى قلب الناس ومغطيها الألم والحاجة .. تعرفى أنا حاسس بتغيير كبير بيطرأ على من يوم ما عرفتك .. فيه حاجات كتير ماكنتش شايفها شفتها ، وحاجات ما كنتش لا مسها خلتينى ألمسها وأقدرها .. أنا كنت باكافح زمان لأنى كنت مجرد إنسان حاقد على الظلم والأعداء ، إنما الاستعمار ممكن ينتهى والظلم ممكن يتشكل والقضية مداها أبعد من كده بكتير .. القضية مش قضية الأعداء ، لأ ، دى قضية الشعب وأهدافه ، اللى يحلها هو إيمان الواحد بالشعب أولا وقبل كل شىء ، فهمانى ازاى ؟ يعنى زمان كنت ثائر عشان كنت حاقد فقط على الأعداء ومؤمن بضرورة زوالهم .. دلوقتى بكافح لأنى مش بس باكره الأعداء ، إنما لأنى أولا حبيت الناس وأمنت بضرورة سعادتهم .. كان زمان اللى بيحركنى هو الحقد والحقد أجله قصير ، دلوقتى اللى بيحركنى الحب والحب مداه بعيد .

كان القمر قد غاب والظلام الدامس قد حل ، والجبانة أصبحت بحلكتها التامة وكأنها قبر خانق كبير ، ومع هذا مشت فوزية تستمع لما يقوله وقد صنعت كلماته ما لم تصنعه فى نفسها قبلاته ولا صدره الدافئ ، فأذهبت عنها كل روع و لم يعد فى كيانها ذرة خوف ..

واستطرد حمزة بنبرات تحفل بإيمان نظيف ليس فيه شوائب وكأنما ينطق بلسان كل المثل العليا التى حلمت بها وصاحبتها ، ويخرج حديثه همسا قويا يكاد يؤرق الموتى ويحيى العظام وهى رميم :

ـــ أنا كان ممكن أقعد اتكلم كتير عن حبى وإيمانى بالناس ، إنما دى معانى مجردة مش ممكن توجد إلا بالعمل ، واحنا ضيعنا وقت كتير ولازم نبتدى .. ونبتدى بالناس اللى حوالينا . إحنا قدامنا حاجات كتير لازم نعملها ..

فقاطعته فوزية قائلة فى حماس :

ـــ بس الناس اللى حوالينا مش شايفه فيهم حد ينفع .

ــ إزاى مافيهمش حد ؟ شوفى يا فوزية .. صحيح فيه ناس أحسن منهم بس لازم تعرفى إن فى كل إنسان جزء طيب ونضيف وثورى وعلى استعداد لخدمة المجموع ، وجزء آخر وحش وفردى ومناقض له تمام . فهمانى ازاى ؟ تجربة الاختفاء والإحساسات اللى باحملها ليكى علمتنى إنى أعامل الأجزاء الطيبة فى الناس ، وصحيح أحذر من أجزاءها الأخرى إنما لا أعاملها . لازم حنلقى فى كل واحد من اللى حوالينا حاجة كويسة ، علينا إننا ننميها ونكبرها وبكده نخلق منهم ناس كويسين . فاهمانى إزاى ؟ يعنى نساعد الجزء الصالح فيهم على أنه يقهر الجزء الضار ، وبكده الناس حتتنظم وتقاوم لأن المقاومة هى مجموع الأجزاء الصالحة فى الناس ، وهى دى اللى بتدفع المجتمع لقدام ، وهى دى اللى بتغير .

ــ بس يعنى يا حمزة واحد زى .. زى سعد مثلا .. إيه الجزء الصالح اللى فيه ؟

ــ كويس جدا اللى جبتى المثل ده .. سعد أكيد فيه جزء كويس إنما لما فقد اتصاله بينا سيطر عليه الجزء الآخر وانحل . ومش ممكن حيتصلح أبدا بأننا نقعد نشتمه ونقول وحش ومتردد . مهمتنا دلوقتى إنه يبتدى يشتغل وبكده بس حيتطور .

ــ أما نشنوف .

ــ أنا متأكد من النتيجة .. أنا زمان ماكنتش بافكر بالطريقة دى أبدا .. دا الواحد أكيد اتغير . المكان ده قلعة .. واحنا ضيعنا وقت كبير .. لازم نبتدى .

ــ دى مافيهاش خلاف يا حمزة .. بس حنعمل إيه ؟

ــ حافكر الليلة فى اللى ممكن نعمله .. وفكرى انتى رخره كمان .

وسكتت فوزية قليلا ثم قالت :

ــ تعرف يا حمزة .. حاجة غريبة خالص .. أنا مش عارفة كل حاجة تقولها باقتنع بيها .. أنا بيتهأ لى إنك ممكن تقنعنى ببساطة إنى مجنونة مثلا .

ــ ودى عايزة إقناع ؟

وضحكا . وسألته فوزية عن الساعة .. كانت تدور حول منتصف الليل .

وكانت القافلة قد اقتربت من العمار فودعها حمزة بعد أن أعطاها نقودا لتعود بها ، ووجد عناء كبيرا فى إقناع أبو دومة بعدم مرافقتها حتى لا يراهما أحد معا .

وحين ابتسمت له وهى تكاد تتهاوى من التعب كان صدره يغلى بالحقد على الذين يمنعونه من مصاحبتها ، وكان قلبه يعمر باطمئنان دافئ صنعه الحب .. الحب العميق الذى بدأت تمتد له جذور ويصبح له تاريخ .

١٦

وأخيرا جدا رقد حمزة على الفراش الوثير والتف بالبطاطين الوبر ، ومدد ظهره المنهك وهو يتثاءب ويستمتع بالرقدة وبالدفء .. وكأنها صدر ديك رومى يلتهمه بعد يوم كامل من الجوع . وكان الإنهاك قد بلغ به الدرجة التى يتمنى فيها الإنسان أى مكان يستطيع أن يستلقى فيه ــ حتى ولو كان قبر داود باشا نفسه .

وكان يخيل إليه أنه سيظل يرتجف رعبا إلى أن تطلع الشمس وسيصرخ لدى كل خرفشة أو صوت ، ولكنه وهو راقد وقد ارتاح ظهره ونملت أطرافه كان يحس باللا مبالاة التامة . والسكون الذى حوله أقبح سكون ، والوحدة التى يحس بها باردة رهيبة لا أمل فى انتهائها ، والمدفن يعبق بالزمن والقدم

والعصر الذى ولى ، والفراش هو الآخر يملأ أنفه برائحة مقززة ، وكأن المراتب والمخدات والملاءات قد تكون لها صدأ على مر الزمن وأصبح لصدئها رائحة . وهو راقد هكذا فى قلب الرعب لم يكن يحس بأى خوف ، وأحيانا تبدو التجربة لا يحتملها بشر ، فإذا أصبح الإنسان فيها تقبلها بهدوء يكون هو أول من يعجب له .

ومضى يستعرض أحداث اليوم الحافل الطويل الذى خيل إليه أنه بدأ من شهر فات . وكلما تذكر مبلغ ما لاقاه من تعب دقت شرايين صدغه ، ثم أصبح دقها هو كل ما يشغل ذاكرته وقد بدأ النوم يحتويه . ولكن قبل أن يغفو هبط الدق الذى فى صدغيه ليرتفع دق آخر فى أذنيه . وارتفع دق الأذنين كثيرا حتى لفت نظره وطرد عنه النوم ، ثم ما لبث أن استرعى انتباهه كله وصحى تماما وأدرك أنه صادر من الباب الخارجى للمدفن . وتثلجت أطرافه فى الحال .. كان الدق مزعجا كئيبا كزئير وحش مذبوح . وشلت كل الحياة فى حمزة و لم يعد فيه إلا أذناه تتسمعان وتلهبان قلبه وأنفاسه .

واستمر الدق يزأر ويستوحش وينهش لحم السكون ثم انقطع فجأة . ومع هذا ظل يتحرك ويكاد لا يتنفس أو يفكر مخافة أن يعيد إليه تفكيره ذلك الدق . وأصبح قلبه هو الشىء الوحيد الذى يتحرك ويصدر صوتا فى الحجرة ، بل فى المدفن والجبانة بأسرها . وضايقته دقات قلبه وكأنها منبه ذو صوت مرتفع تقلق دقاته النائم ومن به أرق .. ثم .. بدأت الدقات مرة أخرى .. رفيعة كخناجر حادة .. وقريبة من نافذة الحجرة التى ينام فيها . وتثلج جسده كله وجاءه من الخارج صوت بشع صادر لا بد عن جمجمة هيكل عظمى :

ـــ يا أستاذ حمزة .

و لم يدرك أبدا أن هذا هو اسمه أو أنه المقصود ، وحتى حين أدرك لم يتحرك

و لم ينفعل . وتكرر النداء ووجد نفسه يخرج من حنجرته صوتا واجفا غريبا لا يمت إلى صوته يقول :

ــ مين ؟

ــ افتح يا استاذ حمزة .

ــ مين ؟ انت مين ؟

ــ افتح يا أستاذ حمزة .. أنا سيد .

وحشد كل قواه ليرفع صوته ويقول :

ــ سيد مين ؟

وجاءه الجواب :

ــ أنا سيد إبراهيم يا أستاذ حمزة .

وتشجع قليلا ، وقام إلى النافذة وهو لا يكاد يصلب نفسه وفتحها ، ومن خلال حديدها لمح فى الظلام الذى أضاءه النور الخارج واحدا يرتدى قميص عمال وبنطلونا أصفر ممزقا ، وبدأ الشك ينتابه فقد كان عهده بسيد أنه يرتدى جلبابا فقال :

ــ مين ؟ .. انت مين ؟

واقترب الشخص حتى وضحت معالمه فى الضوء ، فإذا به سيد فعلا بوجهه المستطيل النحيف وعينيه الواسعتين جدا ورقبته الطويلة ذات الحنجرة البارزة . وكما جاء الذعر فجأة رحل فجأة ، وقال حمزة :

ــ الله يجازيك يا شيخ .. نشفت دمى .

وفتح له ، ودخل سيد وسلم عليه بيدين باردتين كبيرتين وهو يقول :

ــ أنا بعد ماخلصت شغل فى الوابور جاى على هنا علشان طلب فى الغورية .. عم أحمد بتاع العصير قال لى إنه كان فيه واحد أفندى بيسأل على عم اسماعيل .. يا ترى مين ؟ جيت على أبو دومه قال لى على الحكاية .. فقلت

أروح أقضى الطلب وبعدين آجى أبات معاك أونسك .. أصل الجبانة كرب قوى بالليل وانت مش واخد ع الحاجات دى .

وغير مجىء سيد الأوضاع كلها .. ونسى حمزة الجبانة والرعب والبرد وأحس منفعلا بروعة الإنسان . من دقائق كان كالميت فى قبره حتى إذا ما جاء إنسان آخر .. إنسان واحد فقط مثل سيد وأصبحا جماعة ، ذهب الموت والبرد والسكون وغارت الوحدة ، وبدأ يحس بإنسانيته وينطلق لسانه متحدثا ضاحكا .

وما مضت دقائق أخرى حتى كان سيد قد جمع أخشابا من الفناء المهمل ، وأحضر رملا وضعه على البلاط ، وأوقد نارا ليدفىء المكان الذى كان يعصف به البرد . وامتلأت الحجرة باللهب الأحمر الوهاج الذى تشيع مجرد رؤيته الدفء والأمان .. وأطفأ سيد معظم الشموع وأبقى اثنتين وقال :

ــ تشرب شاى ؟

وشد حمزة على يده وكاد يقبله ، فقطرة الشاى فى مكان كذاك وفى ليلة كليلتها وبعد أهوال .. كانت لا تقدر بثمن ، وقال له :

ــ يا سلام يابو السيد دا انت تبقى واد مافيش منك .. فكرتنى بحسن .. كان يقول لى تشرب شى أقول له : آه ، يقول لى : نعملولك شى .

والله وحشنى قوى .. بس حتعمل شاى إزاى ؟

ــ جايب معايا العدة كلها .

وأشار لعدة فى منديل محلاوى كان قد وضعها على الفراش الآخر ، ودهش كيف لم يفطن لسيد وهو يحملها .

وحين ارتشف أول رشفة من الشاى وسرت كهربتها فى جسده مر بخياله بدير ، ولا يدرى لم ؟ فقال له فى سره وهو يبتسم : أين أنت يا أستاذ بدير لترى أنى لا أضيع حياتى من أجل الناس عبثا .. كل واحد منهم يستاهل أن

أضيع عمرى من أجله .

وبدأ حديث العمل .. وأنهاه حمزة بقوله :

ــ خلاص من بكره حنبتدى .. حنعمل بكره اجتماع الساعة .. الساعة تلاتة .. كويس ؟

ــ احنا بنخلص الساعة تلاتة .. وعلى ماجى هنا تكون بقت تلاتة ونص .

ــ طيب زى بعضه .. تلاتة ونص .. وتجيب معاك الحاجات .

ــ حاجيبهم إن شاء الله .

وحين انتهيا كان سيد لا يزال جالسا على الفراش المقابل قاعدا ورأسه بين ركبتيه . وكان حمزة قد أنزل البطانية من فوق أكتافه ولفها حول جلسته ، والنار التى بدأت تخمد تضىء وجهه بألوانها التى تمتد من الأحمر الطوبى إلى الأصفر ، وتعبث بملامحه المتعبة .

وكان ينظر إلى سيد نظرات طويلة ، ويتذكر أول يوم قابله فيه قريبا من وزارة الشئون الاجتماعية ورجاه أن يكتب له طلبا ليعمل فى الحكومة كغيره من عمال القنال الذين تركوا المعسكرات ونزحوا إلى القاهرة ، والذين كانوا لا يفترقون عنه إلا فى أنه لا يحمل ما يثبت أنه كان يعمل فى الجيش الإنجليزى .

وسأله حمزة فجأة :

ــ انت بتشتغل إيه فى الوابور ؟

ــ نقاش .

ــ نقاش ؟ بتعمل إيه يعنى ؟

ــ بانقش حجارة الطاحونة .

ــ وتعلمتها فين يا ابو السيد الحكاية دى ؟

ولوى سيد رقبته وأدار رأسه إلى ناحية كمن يقول : ياما اتعلمت ..

وعاد وجهه إلى مكانه وراحت ألوان النار تعبث بحبات العرق التى كانت قد احتلت جبهته ، وبعض أجزاء وجهه المستطيل المتغضن المرتكز على ركبتيه الذى لا تستريح ملامحه ، وقال وهو ساهم وعيناه فى النيران :

ــ ياما تعلمت من يوم ماسبت الفلاحة .. كنت مرابع باشتغل عند واحد بأردبين دره فى السنة .. وهجيت .. كنت زهقان وغاوى مكن . كنت أسرق قطن تانى جمعه وأبيعه وأشترى صندوق دخان للأسطى محمد سواق اللنز بتاع عزبة المردنلى عشان يخلينى أسوق اللنز وأحرت بيه خط .. كل خط بصندوق دخان ودفتر بفره .

وسكت سيد قليلا ثم انتابت وجهه الرعشة العصبية التى كثيرا ماتنتابه ، وكز على أسنانه وقال :

ــ بس كله إلا الترب ، وأبو دومه ومراته .

وقال له حمزة :

ــ دول ناس كويسين جدا .

وانتابته الرعشة مرة أخرى وهو يقول :

ــ ومراته دى رخرة مناخيرها فى السما بنت الـ « ... » .

ــ أبدا يا سيد دى ست كويسة .. هى عملت فيك حاجة ؟

ــ هى تقدر تعمل حاجة ؟

ــ أنت كل ساعة تجيب سيرتها .

ــ هى مين دى ؟ دا أن مكانشى جوزها قادر عليها أربيها أنا .

ــ انت مشغول بيها قوى .

فارتعش وجهه مرة أخرى وقال :

ــ يعنى مشغول بينت السلطان ياخى ؟ دى .

وبصق مشمئزا .

وراقبه حمزة وهو يضم فمه بشدة ويحك أظافره فى أظافره وينقبض وجهه وينبسط . وكان سيد هكذا دائما يحس حمزة كلما رآه أنه فى قلق مستمر ،

حتى وهو صامت يضج صدره بالأزمة ويبدو على لسانه كلام لا ينطلق ووراء ملامحه كبت مستطير .

وقطع صمته وقال فى صوت يجاهد ليفلت من أسنانه المضمومة :

ــ كل اما بشوف واحد متعلم زيك وسايب عيشة لوكس وجاى يناهد ويانا احنا اللى الواحد بتطلع روحه علبال ما يطلع اللقمة ، أبقى عايز أقوم على أولاد الكلب أخنقهم واحد واحد .

ثم لاحت ابتسامة شاحبة على وجهه وقال :

ــ وبعد ما يروحوا الإنجليز فى داهية .. أظن مش حنشوفك .

وكانت النار قد خبت وتحولت إلى بصابيص تشع ضوءا أحمر بلون وجه حمزة وسيد وكل ما حولهما من أشياء ، حين قال حمزة :

ــ بس لما يروحوا .. الحكاية يا سيد مش حكاية الانجليز دى حكايتنا احنا .. حياتنا ومستقبلنا على الأقل فى الميت سنة الجايين ، لغاية لما العيشة كلها تبقى لوكس زى ما بتقول .

ثم حل صمت طويل .. ولم يكن ماهما فيه من سكون فى حاجة إلى الصمت لتبدو النفوس خلاله كماء البحيرة التى لا يعكر صفاءها موج ، فيكاد يرى الإنسان أعماق نفسه ويكاد يرى حادثات صغيرة عاشت معه لحظة من عمره وأسعدته ثم تهاوت إلى قاعه .

وكانت النار قد خمدت تماما وأصبح لا يضئ الحجرة إلا نور الشمعتين الضئيل ، ونشوة الشاى والدفء قد ذهبت وخلفت وراءها وجوما . وكان لابد إذن أن تنبعث تلك الدندنة من سيد ، خافته أول الأمر وكأنما يوشوش نفسه ثم ترتفع معها رأسه ، ويبدو عنقه طويلا تكاد تبرز منه حنجرته .. ثم يقول يا ليل !

وما أروع الليل حين يقال فى الليل وفى مثل ذلك المكان .. ويعلو صوته

رنانا له أنين الناى ورنينه ، يغنى ياليل ويشيع الفجر فى الليل ، وياعين ويستل النوم من العين ، وياليل فيذوب البرد ويهاجر الظلام ، وياعين فترى العين النور ويملؤها دفء ومرح .

و لم يعد حمزة من الآفاق التى حملته إليها كلمات سيد ومواله .. وأحس مرة أخرى بنفسه وحيدا مع العواطف الدقيقة الواهنة التى تتسرب إلى ذاته وتنهشها وتشبعها نبضا ولينا وألفة ، وبدأت الأوتار الخفية تعزف ويخرج لحنها يغريه بأن يفضفض ، وشعر برغبة أقوى منه تدفعه لأن يحكى عن فوزية وقصته معها .

ونظر إلى سيد الذى كان قد سكت وعاد رأسه بين ركبتيه ، وقرر أن يحكى وبدأ بأن سأله : إلا انت ماحبتش أبدا يا سيد ؟

و لم يكن قد انتهى حين قال الفجر .. الله أكبر !

١٧

استيقظ حمزة على شيء يضايقه ويكاد يسد فتحات أنفه .

وحين استعاد حواسه وجد للشيء رائحة جميلة .

وفتح عينيه ورأى شبه الظلام الذى كانت فيه الحجرة ، ثم السقف المزدان بنقوش الفراعنة المقلدة . ثم وردة حمراء كبيرة فوق أنفه .. وبزاوية عينه اليسرى لمح حذاء أنثويا أنيقا مخلوعا وملقى بإهمال تحت الفراش المقابل ، وفوق الحذاء بمسافة قليلة رأى قدما صغيرة تتلاعب أصابعها داخل الجورب .

و لم تكن المسافة بعيدة فمد يده وأمسك بالقدم وجذبها ، وفى نفس الوقت تصاعدت موسيقى خافتة تقول :

ـــ صباح الخير .

وكان مستعدا أن يبقى على وضعه ذاك مدى الحياة لا يتكلم ولا يتحدث ولا يتنفس ، ولكن الصوت الموسيقى عاد يقول :

— بلاش كسل قوم .. عندنا شغل كتير .

وفى بطء جلس ، ووجد فوزية جالسة على الفراش المقابل بوجهها الأبيض المسمسم الحلو ، وعيناها منتفختان قليلا إنما زادها ذلك جمالا وجاذبية ، وكان احمرار خفيف يلون شفتيها . وقال لها بصوت أجش غليظ طير كل ما أحدثته تحيتها من موسيقى :

— صباح الخير .

وفتح عينيه وأغمضهما كثيرا ليرى أنها فى جلستها تلك أرشق من أصابع عازف كمان ، وأنضر من الوردة التى أصبحت فى يده ، وأنشط من كل ماقد يبعثه صباح شتاء من نشاط . وكانت ترتدى « بلوزة » بسيطة و « جيب » رمادى ، وبادرته قائلة :

— أولا . قوم اغسل وشك .

ووضع حمزة ساقا فوق ساق وهو لا يزال ممددا على الفراش ، وقال فى كبرياء :

— أولا — دورى لى على النضارة لأنى مش عارف حطيتها فين قبل ما انام .

ثانيا — كان فيه واحد نايم هنا راح فين ؟

ثالثا — مفيش ميه عشان أغسل .

رابعا — الساعة كام والنهارده إيه ؟

خامسا — تعرفى إنك حلوة زيادة عن اللزوم ؟

— أولا النضارة انت قاعد عليها وباينة منها حتة .. وأنا جيت ومالقيتشى إلا انت والمرحوم بس ، والساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة الموافق

كذا وعشرين من شهر فبراير سنة ألف وتسعمائة واحد وخمسين ميلادية ، وأم محمود جابت الميه الصبح وح احط عليك تغسل ، وانت اسمح لى كداب يا عزيزى حمزة حين تدعى أنى جميلة من غير ما انت شايفنى .

وكانت تقول هذا وحمزة قد قام ملسوعا يبحث عن النظارة خوفا من أن تكون قد أصابتها مصيبة لا تحمد عقباها ، ووجدها سليمة والحمد لله فوضعها على عينيه ، وثنى رأسه يمينا ويسارا مدعيا أنه يتفرج على فوزية ، وقال بسخرية :

ــ يا خسارة نضارتى معمولة للنظر بس .. لازم أعمل واحدة تانية لجمالك .

ــ يالله يا حمزة مش فاضين .

وقام ، وفى الفناء الموحش وقف وركع خافضا رأسه وفوزية تصب عليه من الإبريق ، وهو يتعمد أن يقترب منها حتى « تطربشها » قطرات الماء ، وهى تخطو لتبعد عنه فيخطو ويقترب . وهكذا انقلب الغسيل إلى مطاردة مرحة لفا فيها الحوش مرات ، وانتهت بأن صبت فوزية غير قليل من الماء فى ظهره .

وعاد حمزة إلى الحجرة الأخرى وشعره مشعث ، وقطرات مياه تتساقط من وجهه وقطرات أخرى تتساقط فى سلسلة ظهره ، وابتسامات كثيرة تنهمر من ملامحه ، وناولته فوزية المشط وهى تقول :

ــ فطارك أهه .

وكشفت فوطة كانت تغطى جزءا من سطح المائدة الكبيرة الموضوعة فى الركن ، فبدت أشياء سال لها لعابه ، فهو فوق شغفه الكبير بالطعام لم يكن قد تناول شيئا منه منذ غداء الأمس ، فإذا به وجها لوجه أمام إفطار فاخر .. فول بالزبدة ، وبيض مقلى ، وجبنة من ذوات الاسم الطويل ، وطماطم

حمراء مقسمة وعليها شطة وخل تماما كما يحبها ، وزيتون أسود وأخضر ، والأهم من هذا وذاك براد الشاى الذى كان لا يزال البخار يتصاعد من بزبوزه .

وقال حمزة :

ـــ إنت أروع فوزية فى الدنيا .. بس بدى أعرف عملت البيض ده ازاى ؟

ـــ حتعرف كل حاجة يا سيدى .. أصلى جبت لك وابور سبرتو وكنكة وبراد شاى وسكر وشوية حاجات كده .

ـــ وجبت فلوس منين ؟

ـــ حتعرف كل حاجة بس ماتستعجلشى على رزقك .

ـــ طيب تعالى بقى .

وأصرت فوزية على أنها شبعانة ، ولكن ما كادت تنقضى بضع دقائق وهى تتأمل حمزة وهو يقطع اللقم ويخندقها ويحملها إلى فمه بمهارة ، ثم يجيد مضغها ويفعل ذلك بطريقة توحى بأنه لا يأكل وإنما يتعبد ، ويتعبد بطريقة تغرى بتقليده ، ما كادت تنقضى بضع دقائق حتى راحت فوزية تمضغ لعابها وقد تفتحت شهيتها . وما أن أفلتت من حمزة دعوة أخيرة حتى انضمت إليه بلا توان وشاركته فى الإتيان على كل ما يؤكل .

وقالت فوزية أخيراً .

ـــ أنا جبت لك الجرايد .. فاضية مافيهاش حاجة .

ـــ إنتى مابتنسيش حاجة أبدا .. أنا مش عارف أقول إيه .. على فكرة قبل ما انسى .. النهارده عندنا اجتماع الساعة تلاتة ونص هنا .. خلاص حنبتدى .

وتركته فوزية ينكب على الجرائد كعادته ، وأزالت بقايا الطعام ونظفت

المائدة .. وفوجئت بأنه انتهى منها بأسرع مما قدرته فقالت :

ــ هه .. فاضية .. مش كده .

ــ ماتستهلشى الواحد يقراها .. بس فيه خبر قبض على أنصار سلام يونانيين فى اسكندرية .

ــ مالحظتش حاجة تانية ؟

ــ زى إيه ؟

ــ أصلى شفت حاجة كده استلفتت نظرى .. شوفها فى صفحة الأخبار الداخلية .

ــ وآدى الأخبار الداخلية .. هيه .. هيه .. هيه .. هيه مافيش حاجة .

ــ اهيه ياأخى .. بص .

ووجد فى العمود المجاور لعامود الاجتماعيات بروازا فيه :

ولدى حمزة :

عد إلى المنزل ، وحقك علينا .

والدك المكلوم : بدير

١٨

كان يومها من الأيام الدافئة التى تكثر فى أواخر الشتاء وتنبئ بأنه قد شاخ ، وبدأت أجنة الربيع تتوالد داخله وتنمو وتهدد بقاءه . وكانت هناك شمس ساطعة تتسابق حرارتها وأشعتها فى الوصول إلى الأرض ساخرة بالشتاء الكهل ، غارسة أصابعها التى لا نهاية لطولها فى جسده ، تكتم أنفاس زوابعه وتقهر برده وتطرد من السماء سحاباته ، نافذة حتى إلى الأحياء تثير فيهم الحركة بعد السكون ، والأمن بعد الخوف والانطلاق بعد التقوقع ، وتدفعهم مثلها إلى مقاومة شتاء طال احتماله ودنت نهايته .

وحين خرج حمزة وفوزية من الداخل إلى الحوش بهرهما الضوء الساطع ، وأحسا لليوم وشمسه بمرح كمرح الأطفال فى صباحية عيد .

وجلسا خلف الحائط ينعمان بمقدم الدفء و لم يكن حولهما سكون ولا صمت ، فعلى شجر الكافور وقفت مئات العصافير تتقافز وتغنى وتزاول الحب وتثير باحتفالها الكبير الحياة فى قلب الجبانة .

وبعد قليل ضاق حمزة « بجاكتة بيجامته » فخلعها ووضعها فوق راسه ، وراح يحدث فوزية عن اللجنة التى قرر تكوينها منه ومنها ومن سيد وسعد .. وعن مشاريعه لإحالة المدافن إلى ترسانة تستطيع بواسطتها اللجنة أن تقود كفاحا لا يلين لتعبىء الرأى العام وتستأنف المعركة .

وأبدت فوزية امتعاضها لتكوين اللجنة على تلك الصوره متشككة فيما يمكن أن تقوم به عناصرها الضعيفة .. ولكنه راح يحدثها فى هدوء واتزان عن نقط البدء ، وعن الأحلام والواقعية ، وعن أن الثوار الممتازين لا يستوردون من الخارج ولا يهبطون من السماء ، وأن عليهم البدء من حيث هم ومن

العناصر التى فى متناول أيديهم . وكلفها بالذهاب إلى سعد وإحضاره .

وحدثته فوزية هى الأخرى عن خطتها حيال لجنة المدرسات .. وكانت تبالغ فى تلك الخطط حتى إنها أبدت استعدادها لتكوين جيش منظم من النساء فى ظرف شهور .

وكان حمزة يحس أن مبالغتها صادرة عن حماس حقيقى . وتطرق الحديث إلى أبيها وكلامها معه عن الزواج وموافقته بشرطين : أن يرى حمزة ، وأن يسكنا معه فى نفس البيت .. وكان أمل فوزية كبيرا فى إمكان تنازله عن الشرط الثانى . واتفق معها على أن يذهب لطلب يدها من أبيها رسميا فى نفس الليلة . وكان الميعاد الذى اتفقا عليه أغرب ميعاد لخطوبة .. الحادية عشرة مساء ، على ألا يعلم أحد غير الوالد وألا يخبر بعلمه أحدا .

وأصرت فوزية على أن لابد من موافقة عائلته ، وأن مجرد إرساله خطابا لا يكفى ، ولم يكن هناك حل سوى أن تسافر وحدها إليهم لتراهم ويروها ثم تعود برأيهم .

وسألها حمزة إن كانت قد أخبرت أباها عن عائلته ، وكانت قد فعلت .. فقال لها أبوها : ما دام انتى عاوزاه اجوزيه ، انشاالله يكون أبوه عطشجى .. وضحك حمزة كثيرا متسائلا عما يكون رأيه لو عرف أن العطشجى وظيفة كبيرة جدا بالنسبة لعامل دريسة .

وكان حمزة فى هذه الأثناء قد توسد فخذها اللينة الناعمة ، والحديث كان يدور فى نغمات هادئة مستحبة تغرى بالإبطاء والاستمتاع بكل كلمة ، وأجبرتهما كثرة الدفء على العودة إلى الحجرة . وأخبرها حمزة وهما يدخلان من الباب أنه يرشح أم محمود لعضوية اللجنة . ولم تصدق فوزية وأثارت جدلا طويلا انتهى باقتناعها كالعادة ، وبابتسامة تسليم . ولمعت شفتاها وهى تبتسم فى الحجرة نصف المظلمة ، وأحب لمعة شفتيها تلك حين استحالت

حمرتها من لون إلى نور .. وأحب وجهها القريب منه وكأنه يراها لأول مرة ، بل خيل إليه أن ملامحها قد تغيرت وأصبح لها نكهة كالقهوة حين تحلى بالعنبر . وأحس لرؤيتها الجديدة برغبة جامحة فى تذوقها واعتصار كل ما فى ملامحها وشفتيها من نار ونور ونكهة ليروى تيارا من القلق اللاسع كان يجتاحه فى تلك اللحظة .

ولم يقاوم رغبته تلك ، ولم تقاوم فوزية واقشعر جسده بفرحة حب وهو يحس بها ، بحبيبته ، بفوزية تعتصر شفتيه هى الأخرى فى ثورة عارمة مكبوتة ، وظمؤها إليه يكاد يطغى على ظمئه إليها .

وولد فيه ذلك إحساسا غامرا بالاطمئنان ، وبأن ما بينهما من حب قد أصبح لا يختلط بالخوف والرهبة والتشكك والخجل ، وكلاهما قد وثق وأدرك أن ما يكنه الآخر له حقيقة واقعة يلمسها فى كل خلجة من خلجات رفيقه وفى كل كلمة ونظرة وضحكة .

كانت قد انتهت مرحلة التسرع واللهفة وبدأت مراحل الاطمئنان . لم يقل لها هذه المرة أحبك ولم تقلها له . إذ لم يعد ما بينهما كلمة تقال ، بل استحالت المعانى إلى أعمال وإدراكات يمليها الحب المصفى .

كانت أفكار كهذه تدور فى عقل حمزة وهو ينظر بشغف ، ويتابع حركات فوزية وتقلصات وجهها وطريقتها فى إعادة النظام إلى شعرها حين توقفت فجأة عن كل ما تفعله وعضت شفتها السفلى ، فسألها :

ــ مالك ؟

ــ أتارينى بقول م الصبح أنا ناسية إيه ؟ يا سلام على مخى ! تصور النمرة ردت النهارده ونسيت أقول لك !

واعتدل حمزة فى الحال وكأن نافورة نشاط ضخمة قد تفجرت فيه ، وسألها :

ــ صحيح ؟ طلبتيها إمتى ؟ وقال لك إيه ؟ .. صحيح ردت ؟ إزاى ساكتة م الصبح ؟ إزاى تنسى ؟ دى مسألة مهمة جدا .. إزاى تنسى ؟ .. قال لك إيه بالضبط ؟

ــ الأول كان متشكك ، فلما قلت له أنا خطيبتك ادانى ميعاد النهارده الساعة واحدة قدام محطة السيدة .. معلهش .. مش عارفة نسيتها ازاى !

ونظر فى ساعته بلهفة ، كانت الثانية عشرة والثلث .. واندفع يرتدى ثيابه على عجل وقلبه يدق بالحماس إذ قطعا سيعاود صلته بلجنة الكفاح المسلح عن طريق زكريا . وسألها وهو منهمك فى ارتداء الجورب :

ــ وما خلتيش الميعاد بالليل ليه ؟

ــ حاولت .. قال لى إنه لازم يسافر النهارده الساعة تلاتة .. وإن دى هى الفرصة الوحيدة .

ــ يسافر فين ؟

ــ مااعرفش ، ماسألتوش .

وسكتت فوزية قليلا ثم قالت :

ــ آه .. يا سلام على مخى .. وقال لى حاجة كان .. قال لى إنك تقطع صلتك حالا برشدى لأنه ثبت أنه بيشتغل دلوقتى مع البوليس السياسى .

ــ ايه ! .. رشدى ؟

ــ آه .. دانا فضلت طول السكة أقول رشدى .. رشدى .. رشدى ، عشان ما انساش إسمه .

وفى ومضة اختلط وجه رشدى الدائم الاحتقان المنتفخ بالسمنة ، وعيناه الصغيرتان المدسوستان فى ملامحه ، وابتساماته الخجلة يوم ذهب إليه فى العباسية ومعه حقيبة الديناميت واعتذر وتحجج بالأولاد ، اختلط هذا بأيام أن كان يعمل معهم جنبا إلى جنب فى اللجنة . ولسبب ما أحس حمزة

بالارتياح حين علم بتلك النهاية . كان لا يرتاح أبدا إلى شك رشدى فى الآخرين ، وإلى كلماته الضخمة الجوفاء ، وحبه اللزج المفرط لأولاده حتى إنه كان يحمل معه صورهم دائما ويطلع عليها كل من يصادفه ، ولا يتركه إلا بعد أن ينتزع منه كلمة إعجاب أو صيحة ثناء .. أجل ! إنه الآن مستريح ، فمن المستحسن دائما أن تمد الخطوط إلى نهاياتها .

وقال لفوزية حين انتهى من ارتداء ثيابه :

ـ أنا ماشى .. حكاية رشدى دى حمست الواحد أكتر . لازم تروحى لسعد .. بعد شوية .. قهوة ماتاتيا فى العتبة .. ورا الأوبرا .. الميعاد هنا الساعة تلاتة ونص .. ماتنسيش !

ـ ماتخافش .. بس الدنيا نهار وحاسب انت على نفسك.فاهمنى ازاى ؟

وخرجت « فاهمنى ازاى » من فمها حلوة لذيذة كمذاق الآيس كريم فى قيظ يونية .

وحين غادر المدفن كان أنفه لا يزال يتنفس رائحة شعرها ، وكان يحس بلوعة لفراقها مع أنه كان متأكدا أنه سيلقاها بعد ساعات .

وكان قد ذهب ما بينهما من غربة وحلت الألفة والتعود ، وأصبحت فى نظره عادة حيوية متجددة لا يستطيع عنها استغناء أو فراقا .

١٩

وكان وهو فى طريقه إلى الميعاد يرى فى وجوه الناس ربيعا قبل الأوان ، وجدية من يعمل ، وبريق الأمل الذى يصاحب العمل . كان الناس قد أفاقوا من صدمة الحريق ورفعوا الرءوس فى خوف أول الأمر وبدءوا يتهامسون بالشائعات ، ثم علا الهمس حين تحققت بعض الشائعات وأصبحت حديثا يقال ، وعرف الناس من الحارق ومن الضارب ، والناس حين يحددون أعداءهم لا يترددون ، وبدءوا يسخرون وانطلقت النكات بادئة برأس الرمح ووزرائه ولم تترك حتى الذيول ، وشد الأعداء من قبضتهم ليغلقوا الأفواه ولكن كانت السخرية قد أضاعت رهبتهم وهونت من شأنهم ، فقابل الناس الضغط بإحساسهم أن لابد من التقدم خطوات أخر ، وشعر الأعداء بالخطر ، وانهالت ضرباتهم هوجاء ومع كل ضربة يزداد تجمع الناس ويتعلمون ويلتفون حول المضروبين ، فيخاف الضاربون ويزداد البطش .. فتقترب النهاية .

وكان فى نفس حمزة إشراق لا تصنعه شمس .. ستكون لجنة أخرى ، وسيلقى زكريا بعد حين ويعاود العمل الرائع الشريف من أجل الناس . ستعود المواعيد واللقاءات والبحث المضنى وراء قضية الشعب . عشرات من الأشياء لا بد أن يخبرها لزكريا وعشرات لابد أن يسأل عنها ، وزوجة حسن محمد حسن وأولاده ، ونقود السلاح التى لديه ، والدبلة ، دبلتين . وبدير لابد من الذهاب إليه فى ميعاد قريب ، العدو قوى وسريع .. سيكونون أقوى وأسرع ، فى الماضى أخطاء لن تعود ، والمستقبل أكيد ، النصر لم يعد أملا لقد أصبح واجبا .

ووصل إلى الشارع المجاور لخط حلوان . ومع كل ما كان يفكر فيه لم يفته أن يلحظ أن هناك أناسا يتسكعون حول الخط ويبدو ألا عمل لهم . ولم يطمئن وفكر فى أن يرجع ولكنه عدل ، فلابد من مقابلة زكريا . وكل ما يحس به مجرد شكوك أما ميعاده مع زكريا فيقين ، فهل يأخذ بالشكوك ويترك اليقين ؟

وقبل أن يصل إلى المحطة دخل فى حارة جانبية وخرج فى شارع الخليج ، ثم مشى بحذر فى الشارع الواسع الذى يصل المحطة بالخليج ، ولم يكن لحظتها ميعاد قطارات فكان الشارع خاويا ، ورأى من بعيد وفى المكان الذى أمام المحطة مباشرة شابا لم يشك لحظة واحدة فى أنه مخبر فقد كان يرتدى جلبابا واسعا فضفاضا وكوفية ضخمة ، وتوقف وقرر أن يلغى الميعاد ، ولكنه قرر أيضا أن ينتظر من بعيد ليحذر زكريا حين يجىء . وأثناء انتظاره راح يراقب الرجل الواقف الذى كان يروح ويجىء ويتلفت وكأنما هو الآخر على ميعاد . وخيل لحمزة أنه رأى وجهه فى مكان ما ، ونظر إليه مرات أخرى ليتأكد .. واكتشف مقهقها أن الشاب لم يكن سوى زكريا بلحمه ودمه ، وقد تنكر فى زيه ذاك .

وأسرع حمزة إليه .. وحين أصبح على قيد خطوات منه عرفه زكريا وتقدم نحوه ، وتشابكت أيديهما فى سلام قوى اقشعر له جسد حمزة ورفرف بالفرحة . وقبل أن تترك يده زكريا كانت أيد كثيرة مفاجئة قد أطبقت عليهما بعنف . ومرت المفاجاة مرورا خاطفا .

وتلفت حمزة حوله فرأى نفس الأشخاص الذين مهما تغيروا فلابد أن تقرأ العين على وجوههم كلمة مخبرين مكتوبة بحروف من جلاليب وطرابيش وسحنات .

وكان حمزة فى كل مرة تحيطه أيد مثل تلك يحس بنوع من الارتياح ، وكأن

مهمته قد انتهت وأصبح عليه أن يستريح ، أو كأن القبض عليه حفلة تتوج فيها بطولته ويعترف له فيها بالجميل ، ولكنه هذه المرة أحس بالأيدى كنصل حاد يهوى عليه فيبتره وينتزعه بعيدا عن معركة الحياة والموت التى يقودها فى سبيل الإنسان ، وبعيدا عن فوزية وكل ما يمت بصلة إلى الحياة .

وأحس بأصابع من حديد تدلف إلى زوره وتخنقه .

ونظر إلى زكريا وكأنما كان زكريا هو الآخر يترقب نظرته . ولم يتحدثا بكلمة . وفى ذلك الوقت كانت الأيدى تمسك بهما ريثما تحضر العربة التى ستقلهم أجمعين ، والناس قد بدأ المشهد يسترعى انتباههم ويتجمعون . وتبين حمزة أن الأيدى القابضة عليهما تمت إلى أربعة : أفندى ، وثلاثة بطواق .

كانت المفاجأة لابد منها .

ونظر إلى زكريا وقالت عينه شيئا ثم توقفت ، ولمعت فجأة تقول .. الآن ..

وتوالت الأحداث مسرعة .

فى نفس اللحظة هوى حمزة وزكريا إلى الأرض فتخلصا من الأيدى التى شلتها سرعة الحركة ، ثم اندفع كل منهما فى اتجاه.وقبل أن يتحرك حمزة نالته صفعة قوية تريد عرقلته و لم تعرقله ، فقط فجرت الدم من أنفه ، ولكنه مرق بقوة اندفاع لا يمكن وقفها .

واختار الحارة الموصلة إلى شارع « الخليج » . لم تكن فى رأسه وجهة معينة .. كان يريد أن يجرى ويجرى ويبتعد بكل ما يستطيع عن ذلك المكان . وكانت أهم الأصوات التى تتلقفها أذناه هى أصوات أحذية مطارديه . لقد شعر بهم .. لم يكونوا كثيرين ، لقد نجح هو وزكريا إذن فى جعلهم يترددون وينقسمون . وفوجىء بأصواتهم تعلو وراءه :

ــ امسك حرامى .. حلق .

ولم يكن فى الحارة أناس عديدون . كانوا فى شغل عنه بالدنيا والدكاكين والزبائن ، ولكنهم حين كانوا يرونه قادما يلهث ورجال بملابس عادية يجرون وراءه وأصواتهم ترتفع من خلفه : امسك حرامى . كان يرى حينئذ فى عيون الناس ترقبا وتحفزا . وكان لديه شبه يقين أن أحدهم سيجد بعد قليل فى نفسه الشجاعة الكافية ويعترض طريقه ويمسكه ، ولذلك انطلق صوته يجأر :

ــ أنا مش حرامى .. أنا وطنى .

وانفلت إلى حارة أخرى قبل أن يذهب تحفز الناس وقبل أن ينقضوا عليه ، وسمع طرفا من كلمات قيلت وراءه :

ــ صهيونى .

ــ بال شوفى .

ــ امسك حرامى .

ــ مش باين عليه .

وجد نفسه فى شبكة غريبة من الحوارى المتداخلة التى تفضى كل منها إلى الأخرى .. أرضها حفر وطين .. وأبوابها متقاربة .. وحركة بطيئة تكاد تموت وهو المندفع وحده كالقذيفة . إلى أين ؟ إلى أين ؟ وأين المكان الذى يخفيه ؟ أين المكان الخالى من الناس الذى يستطيع أن يأوى إليه بلا واحد يعترضه ويسد عليه الطريق ويقدمه متطوعا للبوليس ؟

واستمات يجرى واضعا كل ما يستطيع من قوة فى ساقيه ، ومع هذا كان يخيل إليه أنه لا يتحرك من مكانه ، أو أنه يجرى ويدفع أمامه كتلا ثقيلة مظلمة من حديد غير مرئى . ولم يكن يعرف إلى أين .. كل ما يراه عيون ساهية لاهية لا تنفتح على آخرها إلا حين يجاورها ، ولا يتحرك صاحبها إلا حين يكون قد ابتعد ويكون صوت مطارديه قد اقترب قائلا :

ـــ أمسك .. حرامى .

فقط لو يعرف أين تقوده قدماه .. خيل إليه أنه يطرق أرضا غريبة ، وثمة إحساس يتحرك حركات ملتوية رفيعة فى نفسه ويقول إنه ليس على ما يرام ، وأن شيئا ينقصه .

ـــ امسكوه .. حلق يا أخينا .. حرامى .. حرامى .

جاءه الصوت هذه المرة قريبا حتى خاله وراءه تماما ، بل خيل إليه أن الكلمات تخرج من رأسه هو ، ووجد نفسه دون وعى يبتسم .. إن مطارديه يقولون للناس حرامى لينتبه إليه الناس حتى يسرقوهم هم . ما ألطفها مسرحية .. سيقولها ذات يوم لفوزية .

لابد من مكان يختفى فيه .. أممكن أن يدخل فى أحد الأبواب الكثيرة التى تمر أمامه ؟ .. فقط لو تطول المسافة بينه وبينهم دقيقة واحدة كان يستطيع التفكير ، إنه الآن لا يفكر ولا يرى أنه يجرى .. ويجرى تقوده غريزة .. وتقوده الجدران .. الجدران المتماسكة المتراصة هى التى تحدد طريقه .. أين هو الآن ؟ إن هذه المبانى لا تمت إلى السيدة ولا إلى المدبح ولا إلى زين العابدين . إنها غريبة وكأنه يجرى فى قرية من قرى الهند . دخل حارة ليس فيها أحد .. خاوية إلا من عربة من عربات النظافة ذات العجل الكبير الواسع .. العربة بعيدة عنه .. إنه يخاف أن يصطدم بها . هناك قوة تجذبه إليها .. حالا ستشطره . فليبتعد .. فليتجنبها بأقصى ما يستطيع . ولا يستطيع .. جدران على اليمين ، وجدران على اليسار ، وعربة كبيرة هائلة الحجم تسد عليه الطريق .. لا تدع له منفذا . كيف حدث هذا ؟ كيف ؟ لقد مرت بجواره و لم تقتله . من أين جاء الفراغ الذى مرق منه ؟ الحارة نهايتها تبدو قريبة .. إنه يرى أناسا كثيرين متجمعين عند نهايتها .. إنهم قطعا يتربصون به ، وينتظرونه .. أنه وطنى أنا وطنى ! وتلفت خلفه .. مطاردوه قد تكاثروا ..

أصبحوا عشرات .. لا يمكنه التوقف .. ولكن إلى أين ؟ .. لا بد من مكان خال .. مكان أمين .. بعيدا عن الناس .. يخفيه تماما ، ولا يدع عينا تراه .

إنه لا يحس بالتعب .. ولا بالراحة . زكريا لديه فرص أوسع .. إنه عداء سريع . حتى لو أمسكوه سيكون زكريا قد أفلت ولن تموت اللجنة .. لن تموت . الناس الذين عند نهاية الحارة كثيرون .. إنه يقترب منهم فى اندفاع أهوج .. إنه لا يستطيع أن يمنع اندفاعه أو يقلل من سرعته .. إنه يقترب جدا من الناس .. الأصوات تنبعث من خلفه : امسك حرامى .. عليه أن ينبه المتجمعين أمامه حتى يتركوه يمر وصرخ :

ـــ أنا وطنى أنا وطنى !

وحتى لم يسمع الكلمات وهى تغادر فمه فقد ضاع صوته تماما حين وجد نفسه فى اللحظة التالية فى شارع السد وفى ضجته الهائلة التى تتضاعف أيام الجمع . ولدهشته كان الناس الذين خيل إليه أنهم يترقبونه كانوا هم المزدحمين فى الشارع لا أكثر ولا أقل ، الرائحين الغادين الذين يتقابلون ويصطدمون ويتلاحمون كالعادة . وكان عليه أن يجرى حتى لا يدركه المطاردون مخترقا الصفوف المتكاثفة من الناس .. لقد هبطت سرعته جدا .. أصبح لا يكاد يستطيع نقل قدميه أو المسير .. فقط المسير .. المطاردون إذن قابضون عليه لا محالة .

وكان أخوف ما يخافه حمزة إذا وجد نفسه فى ازدحام ما أن تسقط نظارته ، ولهذا وبحركة لا إرادية رفع يده إلى انفه يمسك بها النظارة . وروع بأنه لا يجدها .. لا على أنفه ولا على أذنيه .. كيف حدث هذا ؟ وأين سقطت ؟ لا بد أنها وقعت أثناء محاولة فراره . لابد أنها دشدشت تماما حين سقطت .

الله ! وكيف كان يجرى إذن ؟ كيف استطاع قطع كل تلك المسافة دون

أن يصطدم أو يتعثر أو يسقط ؟ كيف ؟ ثم كيف يمشى الآن بغيرها ؟ إنه فعلا يرى . الأشياء والناس بكل دقائقها ولكنه يرى والرؤية واضحة .

وتطلع إلى الوراء — وكان قد تعمق داخل الازدحام — ليقدر المسافة الباقية للقبض عليه . ولم ير إلا قفا ضخما يحجب عنه الرؤية ، وقد سد الثغرة التى ناضل بقوة حتى اخترقها منذ هنيهة ، بل لحمها القفا وكأنه « قصدير » بشرى . ومال حمزة إلى اليمين عله يتمكن من التطلع ولكن كانت تسد اليمين امرأة تحمل ابنها فوق كتفها ، وحاول أن يتطلع من اليسار ولكنه وجده مغلقا تماما بشاب يحمل فوق رأسه قفص عيش طابونة ، وصبى جزار حاملا فخذة كندوز ، ومدخنة فرن بطاطة فوق عربة يد ، ورأس حصان يحاور الذباب ويداوره ، ومقطف لا يرى من يحمله وكأنه معلق بين السماء والأرض .

الله ! عليه أن يحدد مكانه بالضبط من مطارديه ليحدد سرعته وإلا ضاع . وحاول أن يزاحم ليصل إلى مكان غير مزدحم يستطيع منه الرؤية ولكنه لم يستطع حتى التحرك ، بل وجد نفسه مسوقا رغما عنه بحركة جيرانه وجيران جيرانه إلى التحرك قدما إلى الأمام .

وأصابه اليأس والضيق ، ولم يكن فى مقدوره أن يفعل شيئا آخر ليحدد مكانه إلا أن يصيخ بأذنيه ليسمع نداءهم المعهود ، امسك حرامى . وأصاخ آذانه ولكنه سمع هديرا هائلا من .. معسلة قوى يا بطاطة .. إمساكية السنة الجديدة ، إمسك شيش بيش .. اسمع يا جدع .. يامساء النجف .. عسل ياتين .. زى صدر البكارى يا رمان .. يا جدع دانا اللى شارى الحلـو وبابيعه .. أوعى رجلك .. أيها الناس اتقوا الله فى أنفسكم واذكروا يوما عبوسا قمطريرا .. يا أم هاشم .. امشى يابن الـ .. اسمع يا جدع وصلى ع الحبيب .. دا الخواجه فلس وباع نصيبه .

وبدا له الأمر مستحيلا .. مستحيل أن يكون المكان الذى ظل يبحث عنه

ليهرب من مطارديه ومن الناس الذين قد يتطوعون لإمساكه ، أن يكون هذا المكان الأمين هو قلب الناس أنفسهم .

وراح يتطلع إلى الوراء مرات ليتأكد ، ولم يجد سوى شمس وعرق ، وعمم وعصي ، وأكتاف ، وكوفيات وطرابيش ، وشعور سوداء وبيضاء وحمراء بالحناء ، ووجوه سمر وخمرية ، وحواجب رفيعة منمقة ، وبراقع ، وتجمعات حول بائع الكينا المقوية للدم والأعصاب ، وعمال ورشة يدفعون عربة قديمة وعربجية يصفقون ويتنخمون ويلعنون ، وأحصنة لها أجراس تدق ، وعربات تجعجع ، ورائحة سمك مقلي وطعمية ، وعطارة ومانى فاتورة ، وجعير ، ولبد ، وخناقات وقافيات . وعلى الجدران ! عاش الكفاح المسلح .. التحرر طريق السلام . لاعبو فريق الأسد المرعب ، ومناطيل صفراء ، وطواق صوف ، « وقصرية » فل بارزة من شباك ، وألف أفندى مثله بنظارات وبلا نظارات ، وأولاد بلد ، وطلبة ، وملاءات تنبعج بأرداف ، وتضيق عند أوساط ، وتظهر سيقان و « عفاريت » زرقاء وصفراء وكبار وصغار ، وأطفال روضة عائدات من المدارس وفى شعورهن أشرطة حمراء ، وناس كثيرين ، كثيرين من أمامه ، ومن خلفه ، وعلى جانبيه ، وفى كل مكان .

* * *

وما كاد يضع قدمه على باب المدفن حتى قابله صياح سعد :

— شفت بقى مين اللى فينا بيتأخر ؟ بشرفى أنا هنا من ثلاثه وربع . دا مش كلام دا لعب .. دا هزار . دا مش شغل . إيه اللى أخرك ؟ كنت فين ؟ وكمان جاى من غير نضارة !

رقم الإيداع ٢٨١٢ / ٨١ الترقيم الدولى ٥ — ٤٨٤ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه